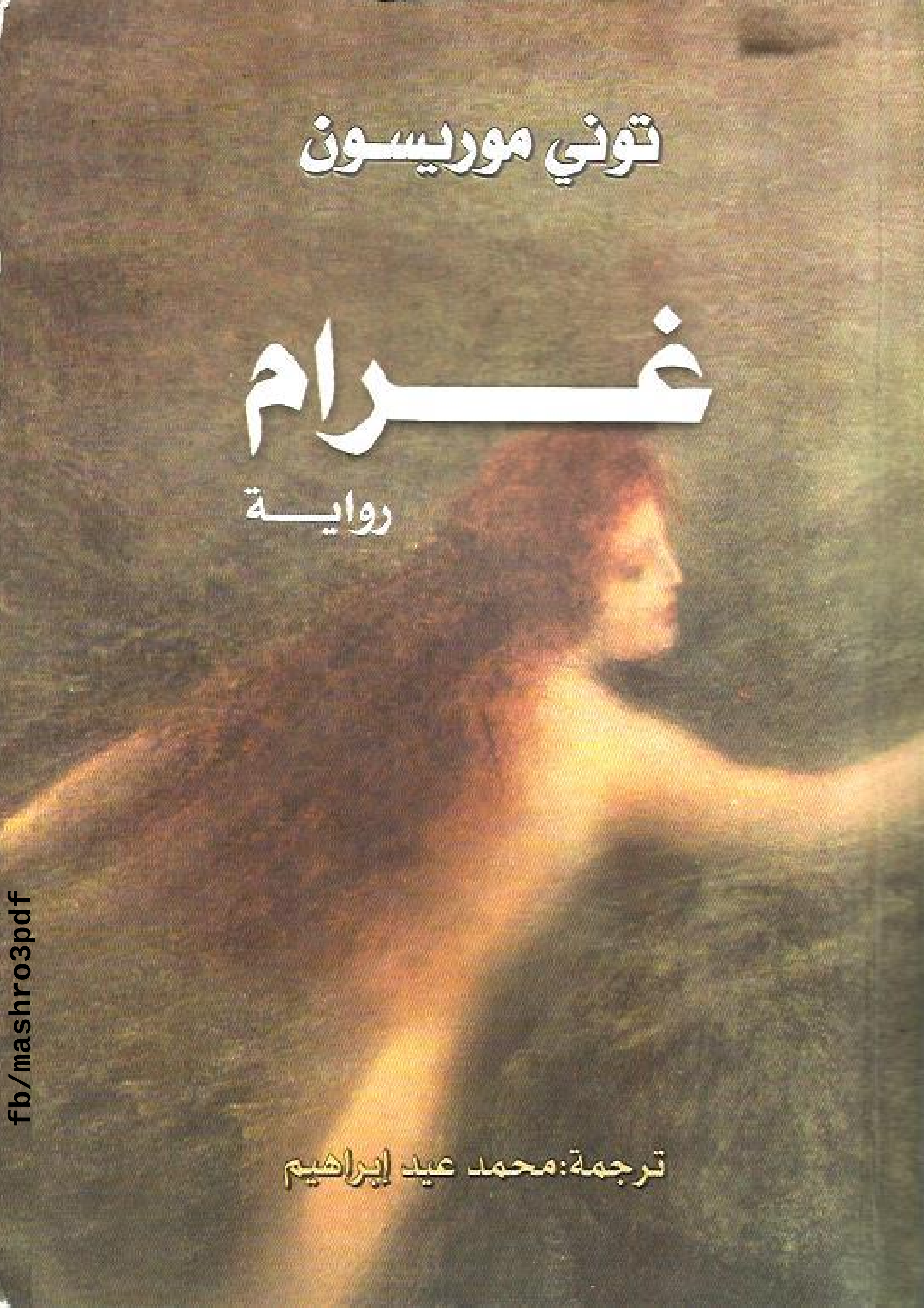

fb/mashro3pdf

غـرام

fb/mashro3pdf

- **غرام**
- توني موريسون
- ترجمة: محمد عيد إبراهيم
- الطبعة الأولى 2004
- جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
- الناشـــر: دار الحـــوار للنشـــر والتوزيـــع

سورية ــ اللاذقية ــ ص. ب 1018

هاتف وفاكس: 963 41 422339

البريد الإلكتروني: soleman@scs-net.org

الاسم الأصلي للكتاب

Love
By: Toni Morrison

fb/mashro3pdf

توني موريسون

غـــــرام

ترجمة محمد عيد إبراهيم

fb/mashro3pdf

دار الحوار

fb/mashro3pdf

غرام المنتجع الأخير

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

لا تزال توني موريسون (فوق السبعين)، نجمة جائزة نوبل في الآداب عام 1993، قادرة على إتحافنا بالجديد دائماً. ويعتبر النقاد روايتها الثامنة الأخيرة "غرام" (صدرت في كريسماس 2004) "أبدع ما سطّرت"، حيث تحكي فيها حياة خمس نساء يستحوذ عليهن رجل من وراء القبر. وكما يقول وليم فوكنر "الماضي لا يموت. لا يعود مجرد ماضٍ"، تذكر هاتيك النسوة كلَّ لمحة، اتهام، تشوّش جنسيّ، ضمن هذا الماضي. نساء تورطن في علاقة مع رجل، سواء ساعدهن أو آذاهن، إلا أنهن داومن على صحبته إلى النهاية.

لكلّ شخصية صوتها الخاص، حزنها الخاص، وأثرها الذي لم يمحه الزمن. بطل الرواية "الغائب"، بيل كوسيه، مليونير

fb/mashro3pdf

زنجيّ عصامي كان يملك منتجع وفندق كوسيه. زوجته الثانية وأرملته هيد، امرأة عصابية مصابة بالتهاب مفاصل، تودّ سرد حكاية العائلة. حفيدته كرستين، مومس سابقاً، تسعى لاسترداد إرثها المهضوم. فيدا، عاملة لدى كوسيه، ويساعد حفيدها رومن بمنزل هيد، لكنه يقع بين حبائل جينيور، وكانت امرأة خطرة خرجت حديثاً من إصلاحية ولها ماض أثيم ورغبة ساحقة في جنس متواصل.

تُشرف على الأحداث بلمسة ملائكية، إل، طباخة كانت تعمل بالمنتجع قرب بلدة "سيلك"، حيث تتقاطع مصائر هذه النسوة بدرجة أو أخرى. وتُمثّل إل دور الجوقة اليونانية في تعليقها على الأحداث معظم الرواية. وتؤكد موريسون أنها كانت ستسند رواية الحكاية كلها إلى إل، ثم تراجعت فاستبقتها شاهدة بعقل راجح. تبدأ الرواية وتُختتَم بصوت المتكلم على لسان إل، لا اسم لها طيلة الرواية غير حرف "إل". تقدم لنا بانوراما "سيلك" التي تقع جنب البحر، كذلك فندق كوسيه الذي تعمل فيه رئيسة الطباخين. بعد تقديم إل تبدأ الرواية مع جينيور، حين تتقدم لوظيفة بمنزل كوسيه، حيث تحتاج هيد مَن يسطّر لها حكاية العائلة.

تنال جينيور الوظيفة، فتنحلّ عقدة الرواية كلما دخلت شخصية جديدة للمشهد، من الحاضر أو الماضي. وأنصح القارئ بالصبر في البداية، حتى ينال المتعة كاملاً في النهاية.

fb/mashro3pdf

تشتمل الرواية على تيمات رئيسية: الجشع، الموت، الخديعة، والغرام طبعاً. وككلّ روايات موريسون، تسرد الماضي في علاقته وأهميته وأثره على الحاضر والمستقبل. ثم تمضي الرواية وئيداً، بصورة سحرية فاتنة عبر حُبكاتها المليئة بالمفاجآت وعمليات البوح والكشف والإفشاء. الحب والكره هنا بدرجات تصاعدية، ثم تزحف الأشباح والأرواح بأحلام الفتيات لتلبث في حياتهن حين يكبرن فيذكرن الصداقات والمشاحنات الباردة. يصرخن ويغنين بلحظات الضعف والقوة على نحو متعاقب.

تفتّش شخصيات "غرام" عن مسارات الحياة والموت بظلَ الغيرة، بدفء وإخلاص لصالح اتزانها الخاص، بلغة عاطفية مشحونة. تحفل الرواية بذكريات الاسترجاع مع صوت إل كجوقة أحياناً، وهي بنية روائية تناسب أسلوبية موريسون المعقدة، فتنساب المعلومات كأدلّة بمحضر جريمة قتل، فيأخذ القارئ وقتاًحتى يتبين أدوار الشخصيات بدقة، نتيجة استراتيجية مدروسة كنموذج عالي القيمة لكتابة الرواية.

تمثّل حبكةُ الأحداث مع موريسون، بشخصياتها الفاتنة ضمن مشهد يغلّفه الفن بخبرة حاذقة، لعبةَ استخفاء تُجبر القارئ على الدخول بجوّ الزنوج في "سيلك" حيث يعرف كلٌ منهم الآخر، فيختلط الحسد بالجشع والعاطفة بالجنس والانتقام، داخل مجتمع "سيلك" (تبعد خمسة وعشرين ميلاً من كليفلاند في أوهايو)،

fb/mashro3pdf

حيث تنمو في المدن الصغيرة كراهية حادّة بجذور شائكة، مع صمت مشتبك بالعواطف في مزيج لا فكاك منه.

في "غرام" منشور كامل مفعم بالرغبة، فالشخصية الرئيسية، بيل كوسيه، يدير منتجعاً على شط البحر لزنوج أمريكا بالأربعينيات والخمسينيات، لكنه متوفى الآن، وتصور الرواية قوة سيطرته على النقيض من زنوج عصره. أما ماي، كرستين، هيد، جينيور، فيدا، وحتى إل، فكلهن ممسوسات بغرام كوسيه، يلهب عواطفهن المشبوبة أصلاً، كأب وزوج وعشيق وراع وصديق ثم شبح. أشواق هيمنت على قلوبهن حتى بعد وفاته. وبينما دارت حياتهن حول محور واحد هو كوسيه، فمن جانب آخر كان هو محكوماً بقوى غامضة: ماضيه المضطرب وامرأة تُدعى سلشيال.

رؤية جديدة لطبيعة الحب، ثرية بأشخاص وأحداث درامية عميقة الفهم تؤكد أن الماضي يعيش طويلاً. رواية حسيّة قاهرة مؤسية، تعكس أوجه الحب المختلفة، من الرغبة إلى اللذة نحو الاستحواذ والشوق المرير، لتمنحنا دائرة كاملة حول هاجس الحب الأول الذي يشكلّنا جميعاً وللأبد. تدور معظم العلاقات بين هيد (تعشق كوسيه) وكرستين (تكره كوسيه)، وكانتا منذ الطفولة متلازمتين، حتى دمّر كوسيه صداقتهما بزواجه هيد، فتغيرت موازين القوى لصالح إحداهما ثم انقلبت تجاه الأخرى في النهاية.

fb/mashro3pdf

أصبح "المنزل الذي بناه كوسيه" مجرد ورقة لعب، فتنكشف قابلية هيد وكرستين وماي للجرح بعد موته الذي أعاد تشكيل حياتهن المبعثرة، أوقعهن في ألم مشاع بشَرَك اللغز المفروض عليهن، حيث تنشأ بمجرى الأحداث عقدة هامشية تتعلق بوصية كوسيه، مجرد كلمات غير مقصودة فوق قائمة طعام، وصية ملتبسة، تنفتح على تأويلات مختلفة من جانب كلّ من نساء كوسيه، وهي الوصية التي تقود حبكة "غرام" كلها.

ورغم أن النساء تأخذ زبدة أحداث الرواية، إلا أن ذلك لا يعني غياب الرجال. فهناك سندلر، مستخدم كوسيه جدّ رومن، وهناك رومن مستخدم هيد المتورط بعلاقة مرضية مع جينيور مستخدمة هيد أيضاً. وهناك كوسيه نفسه، بشكل أو بآخر. سندلر، أحد مستخدمي كوسيه وزوج فيدا، نموذج بارع لأوصاف السلوك الإنساني، لكن في لحظة سُكر على سطح مركب برحلة صيد، تنقلب الأدوار من جدّ إلى طفل حين يخاطبه كوسيه "كان ابني مثل عمرِك. أعني، حين مات". كما يستحيل رومن بطلاً حين ينقذ فتاة من براثن عصابة متوحشة تريد اغتصابها، لكنه يجاهد ألا يغيب عن الوعي كأي سوبرمان لا يريد أن يراه أحد ميتاً.

يعتبر النقاد موريسون سيدة السرد الروائيّ في أمريكا الآن، فهي تملك مفاتيحه وتأثيرها لا يُحد. وقد نبعت رواية "غرام" من حادثة حقيقية، كمعظم رواياتها. تفجّرت "محبوبة" (1987) من

fb/mashro3pdf

قصاصة صحيفة عن عبدة سوداء تُدعى مرجريت جارنر قتلت طفلتها. و"جاز" (1992)[1] من صورة فتاة بالثامنة عشرة قتلها عشيقها في حفل بدافع الغيرة. و"فردوس" (1998) من صحف أوكلاهوما السوداء القديمة التي كانت تدعو لتحرير السود بالقرن التاسع عشر.

تُفتتح الرواية بالتسعينيات، بعد مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاة كوسيه، حيث كان النزلاء يقضون أوقاتهم صيفاً مع الرقص والموسيقى، ثم يرحل الموسيقيون شتاء للعزف بملاهي نيوأورليانز وهارلم مع البيض والتفرقة العنصرية، فلا يدخلون من باب رئيس بل باب مطبخ، ويقضون الليل بعرباتهم لا بالفندق. لذلك انتشرت منتجعات السود في نيوجرسي وفلوريدا، أشهرها في لونج ايلند، فكان الزنوج يرتادونها وفنانوهم من الطبقة الوسطى. بدأت الظاهرة حين اتسمت تجمعات السود بالاكتفاء الذاتي بعيداً عن اقتصاد البيض، فلم يعانوا تمييزاً عنصرياً إلا بالمواصلات العامة. لكن نجاح "اقتصاد السود" أثار حفيظة البيض فهاجموه بشكل منظّم، بالقنابل والسرقات التجارية وحرق الكنائس إلخ. وتميل موريسون هنا نحو دعوة "بوكر تي" السلمية أكثر من قصاص "مالكوم اكس" العنيف. عموماً، ظلّ الوضع هكذا حتى آخر الخمسينيات، ثم اختفى.

إن "غرام" أقلّ روايات موريسون تعقيداً، فالعين هنا أكثر حدّة وحرفيّة بدقة متوحشة. تبدو ظاهرياً أبسط وأكثر مباشرة

fb/mashro3pdf

من رواية "محبوبة" الرمزية أو "فردوس" الاستعارية الوصفية، لكن بنيتها ممتعة لذوي الثقافة الرفيعة، وسيتمنى كتّاب الرواية لو كانوا كاتبيها. لا تعود موريسون هنا إلى النفَس الملحمي كما برواياتها الأسبق "تشيد سليمان" أو "محبوبة"، بل تحكي هنا وهناك، ثم تدع القارئ لالتقاط أنفاسه بنعومة كما دخل. قال ناقد "تثبت رواية (غرام) أن موريسون أفضل خمسةٍ من أكبر كتّاب الرواية في أمريكا اليوم".

تبدأ موريسون رواياتها بالقلم الرصاص وبساعات الصباح الباكر حتى تكلّ يداها. والصباح ساعة إبداع يحسّ فيه الإنسان بروعة الحياة قبل أن يحلّ المساء فيموت نور الطبيعة. بعد ذلك تكتبها على الكمبيوتر للمراجعة النهائية. تقول موريسون "يجب أن يكون لكلّ لغة موسيقاها، لا أقصد التنميق فأنا أعمد أن تكون بلا صوت في النهاية، لكن أن تكون محكية، خليطاً من القياسية والعامية لغة الشارع".

ومثل رواياتها كلها، تمتلئ "

غرام" بفجوات وفراغات ومساحات وحالات صمت، على القارئ أن يشغلها بفطنته، حيث تتطلب منه إعادة إنتاج الأحداث، "علامتها المميزة" بالكتابة، عبر تحولات الزمن والاسترجاع وتحولات الآراء، مما يأخذ لبّ القارئ. وقد يتحيّر بعضنا من بنية الرواية، حين يظنّها رومانسية بدلالة العنوان، لكنه يجد حباً بين زوج وزوجته، بين أب وابنه، لذة بين

fb/mashro3pdf

مراهقين، وظلالاً بين هذا وذاك. نكتشف بعد لأي قـــوة الحـــب الباعثة من ندوب الحياة، خاصة حين تغيب عن حياتنا.

"غرام" رواية حساسة، ثرية، كثيفة، عميقة. عمـــل شـــعريّ غنائي بامتياز، تقرأه مرّة للتعرف على مجريات الأحـــداث، ثـــم أخرى لأجل لغته ولوجه جمالياته البحتة. ويجـــب ـ أخـــيراً ـ التنويه إلى الشكل الطباعي للرواية، فالجزء مظلّـــل الحـــروف عبارة عن شكل أميَل إلى تيار اللاوعي، مونولوج شعريّ صاف يشمل القارئ بمتعة قصوى فهو قطعٌ من أجمل قصيد النـــثر، لا يُضاهيها كبار الشعراء.

إنها موريسون[2]، بلا منازع حقاً!

م. ع. إ

fb/mashro3pdf

الهوامش

(1) قمت بترجمتها في طبعتين: الأولى عن دار شرقيات بالقاهرة (1994)، والثانية (منقّحة) عن دار علاء الدين بدمشق (2003).

(2) ولدت توني موريسون باسم كلوي أنتوني ويفورد عام 1931، وتخرجت في جامعتي هاورد وكورنيل. عملت محررة لدى دار راندوم هاوس في نيويورك عشرين عاماً، تزوجت حتى 1964 من المعماري هارولد موريسون، وأنجبت منه ولدين. من 1984 أصبحت أستاذة العلوم الإنسانية بجامعة ولاية نيويورك، ومن 1989 حتى اليوم أستاذة العلوم الإنسانية بجامعة برنستون.

صدر لها روايات: "العين الأكثر زرقة" (1970)، "سولا" (1974)، "نشيد سليمان" (1977)، "طفل القار" (1981)، "محبوبة" (1987)، "جاز" (1993)، "فردوس" (1998). كتبت للأطفال، ولها نقد عن أدب الزنوج "لعب في الظلام"، وأغنية ومسرحية "حلمتُ بـ إيميت". نالت جائزة بوليتزر 1988 عن "محبوبة" (تحولت لفيلم سينمائيّ)، وجائزة نوبل عام 1993 عن "جاز". وموريسون صاحبة لقب "أكبر مبيعات بتاريخ الأدب الأفرو أمريكي".

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

غـــرام

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ســاقا امرأة مفتوحتان على وسعهما، أُهَمهمُ. يتوتر الرجال، لكــن يعــرفون أن الحكاية كلها من أجلهم. يرتاحون. جاهزين، عاجزين عن فعل غير النظر، مجرد تجربة لكني لا أفوه بكلمة. طبيعتــي هادئـــة، على أي حال اعتبَروني محترمة وأنا طفلة؛ نعتونـــي عاقلـــة وأنـــا شـــابة. فيما بعد ظنوني هبة من راشد الحكمـــة. يُـــنظر الآن للصمت كشيء غريب، وقد تناسى معظم جنسي جمال المعنى الكثير بقول القليل. تعمل الألسن كلها الآن مـــن تلقـــاء ذاتها دون معونة العقل. لا زلتُ قادرة على إنشاء حـــوارات عادية، ووقت الحاجة أتخذ موضعاً فعالاً لأوقف امرأة ــ أو مُديـــة. لستُ كأيِّ أحد. فبالعودة إلى الستينات، حين بدأت النســـاء تمتطي المقاعد وترقص منفرجة الساقين بالتليفزيون،

fb/mashro3pdf

بـدات المجلات تصورّ المؤخرات وما بين الفخذين كأن ذلك كلّ ما يخص المرأة، آه، أقفلت ذلك إجمالاً. قبل موافقة النساء على الانتشـار أمـام العامة، هناك بالعادة أسرار ــ بعضها نحفظه وبعضها نُفشيه. الآن؟ لا. فقد أصبح كشف الوجه نظاماً يومياً. أُهَمهمُ. ترقص الكلمات في رأسي على موسيقى من فمي. يهلّ الـناس هـنا لصـحن من جراد البحر، أو لتزجية الوقت، ولا يلحظـون أو يعنـيهم الكلام كله. أنا خلفيةُ موسيقى الفيلم التي تاتي حين يرى أحبابٌ بعضهم الآخر لأول مرة، أو يمشي زوج على جبهة الشط وحده متسائلاً عمن رآه يفعل سوءا لم يستطع مقاومـته. همهمتـى تشـجّع الناس؛ تؤطّر أفكارهم كما قرّرت ملدريد بيرس الذهاب إلى السجن لأجل ابنتها. أشكّ كما قدّرت، ان موسـيقاي لهـا حـدّ من التأثير أيضاً. طريقة "مزاج نيليّ" تـنجرف مع الأمواج فتغير شكل سباحتك. لا تجعلك تغطس، بل تضـبط ضرباتك أو تخدعك بالظنّ أنك جميل كلاً ومحظوظ. إذن لـم لا تسبح ابعد، أبعد قليلاً؟ ماذا يعني العمق لك؟ مجرد درب لاسفل، فلن يجديك شيء من دم راح كثيفا بأكاليل رأس ومفاتيح بيانو، الىس كدلك؟ طبعا، لا ادّعي هذه السيطرة. فهمهمتي غالباً خاصّة دون المستوى؛ ملائمة لعجوز محرجة أمام العالم؛ طريقة اعـتراض علـى القرن وهو يقفل راجعاً. كلّ هذا معروف ولا شـيء مفهوم. ربما كان هكذا دائماً، لكن ذلك لم يصدمنى حتى مـن ثلاثيـن عامـا حين كانت العاهرات يفتشن عن شرفهن،

fb/mashro3pdf

يَشرُعن دائما على هذا المنوال. حسنا، ربما لم يكن شرفهن؛ بل نجاحهن. سواء يمتطين مقعداً أو يرقصن نصف عاريات بالتليفزيون، فلا تختلف نساء التسعينيات عن المحترمات اللاتي يعشن هنا. فهذا بلد ساحليّ رطب ويخشى الله، تهوّر النساء فيه أبعد من مجرد شورت قصير أو سيور جلدية أو كاميرات. بين الحين والآخر، بملابس تحتية لطيفة أو بدون، لا تستطيع الجامحات إخفاء براءتهن ـ صورة من وعد هررة رحيمات بأن أميرهن على دربه. خصوصاً الخشنات منهن بقواطع عُلبهن ولكنتهن الفاحشة، أو المتأنقات بعرباتهن ذات المقعدين ومحافظ أيديهن المليئة بالأفيون. حتى من تحمل ندوباً كأوسمة رئاسية وجوارب أقدام تلف مكاحلهن، لا يستطعن إخفاء تلك البنت الطفلة الفاتنة، السُكر الصغيرة الملفوفة داخلها، فلنقل بين أضلع أو تحت قلب. كل منهن بطبيعتها لها قصة حزينة: برسائل غير كافية، أو أسوأ. حكاية عن آباء تنانين ورجال مزيفي القلوب، أو أمهات قويات وصاحبات تأبّطن لهن شراً. كل قصة فيها وحش جعلهن يخشوشنّ بدلاً من أن يكنّ مقدامات، فيفتحن سيقانهن فضلاً عن قلوبهن حيث ينطوي ذلك الطفل المحجوب.

قد يكون الجرح عميقاً أحياناً فلا يكفي أن تقول ـ لا ويلَ من جانبي. ثم شيء وحيد يمثّل الخديعة، يوضّح الجنون المتراكم المكبوح، ويجعل النساء تكره إحداهن الأخرى وتدمّر أطفالها كشرّ إضافيّ. الناس في آب بيتش، موطني، تحكي عن

fb/mashro3pdf

مخلوقات تُدعى الشرطة ـ أوساخ بقبعات كبيرة طُرحَت من البحر لتؤذي النسوة المنحلات وتلتهم أطفالهن العصاة. عرفتهم أمي وهي فتاة حين كان الناس يحلمون بأعين مفتوحة. يختفون وهلة ثم يرجعون بقبعات جديدة أكبر وقت الأربعينيات حين كانت تحدث أشياء قليلة على الشط من قبيل "انظر هناك، ماذا أحكي لك؟". مثل تلك التي تقبع بأخدود في الرمال مع زوج جارتها وأُصيبت بنوبة ذات يوم قريب في معمل التعليب، لا تزال المدية موثقة بيدها. لم تتجاوز التاسعة والعشرين حينئذ. امرأة أخرى ـ كانت تعيش في سيلك ولا تفعل ضراً لناس اب بيس ... حسناً، أخفت بطارية وصكّ مشتريات بالرمال مقابل شطّ والد زوجها ذات مساء لتجعل المغفل يبحث عنها ليلاً. كسرت زوجة الابن البائسة معصمها وهي تحافظ على الهمسات بينما كانت كلان[1] غائبة عن الصحف التي سرقتها. لم ير أحد بصراحة تلك الشرطة أثناء العار الذي لحق المذنبات، لكن عرفت بأنهم كانوا حولنا وعرفت هيئتهم أيضاً، فقد رأيتهم فعلياً في 2... وقت أن كان يسبح أمام حبل الأمان أطفال فغرقوا. بمجرد انتشال جثثهم، تجمّعت سحب رعدية فوق أم صارخة وقليل من المتنزهين المشدوهين، وبطرفة عين استحالت هذه السحب إلى صور جانبية لبوابات فاغرة الأفواه عليها قبعات بحواف عريضة. سمع الناس هزيم رعد لكني أقسم أني سمعت شهقات فرح. منذئذ وخلال الخمسينات كانوا يتلكؤون عند حاجز الموج أو يحومون فوق الشط مستعدين للانقضاض قرب الغروب (كما

fb/mashro3pdf

تعرف، حين تبلغ لذّة أحدهم ذروتها، يصيد المغفلون أعشاشا وينعس آباء مهملون). طبعاً تجوع معظم الشياطين وقت العشاء، مثلنا. لكن الشرطة تحبّ الدوران ليلاً، خاصة والفندق ممتلئ زواراً سكارى بموسيقى راقصة، أو مع هواء مالح، أو تغويهم مياه مضاءة بالنجوم. تلك أيام تألق فندق ومنتجع كوسيه، بقعة الإجازة المشهورة للملونين على الساحل الشرقيّ.
جاء الجميع: ليل جرين، فاتا هاينس، تيبون ووكر، جيمي لنسفورد، "قطرات المرح"، وضيوف من بعيد مثل ميتشجن ونيويورك لم يطيقوا انتظاراً للوصول هنا. كانت سوكر باي في دوامة مع الملازمين الأوائل والأمهات الجدد؛ مع معلمي مدارس شبان، أصحاب بيوت، أطباء، رجال أعمال. عبر المكان أطفال يركبون سيقان آبائهم ويدفنون أعمامهم حتى مستوى رقابهم بالرمال. رجال ونساء يلعبون الكروكيت ويحشدون فرق بيسبول حيث يُحسب الهدف بضرب الكرة في الأمواج. تراقب الجدات من فوق أباريق الترمُس الحمراء بمقابض بيضاء وسلال مليئة بسلطة لحم سرطان البحر، لحوم خنزير، دجاج، رقائق خميرة، وأرغفة من كعك بنكهة ليمون، آه يا إلهي. فجأة في 1958، امتدت جسور من جماعة حفظ الأمن مع استعراض الشرطة في صباح منير. فقد غرق عازف كلارنيت وعروسه قبل الإفطار. غسلت القناة الداخلية التي يطفوان عليها الشطَّ ساحبة لفائف من شعر لحيةَ بفوضى قشور. دارت همسات وأقاويل عن العروس اللعوب في شهر العسل، لكن الحقائق عكرة. كان لديها

fb/mashro3pdf

بالتأكيد الفرصة كاملة. فمنتجع كوسيه يضمّ مزيداً من الرجال العزّاب الوسيمين بكل قدم مربعٍ أكثر من أي مكان خارج أطلانتا أو حتى شيكاغو. جاؤوا جزئياً بسبب الموسيقى لكن ليرقصوا غالباً جنب البحر مع النساء الجميلات.

بعد موسم الزوجين الغارقين ـ أُرسلا إلى داري عزاء مختلفين ـ يخطر ببالك أن النساء بدون نفع يُذكر ولا تعود هناك حاجة لتحذير أطفال بعقول بغال، حيث يعلمون أنه لا مهرب: تنبثق الشرطة، سريعاً كالبرق، وقت ليل أو نهار، طالعةً من الأمواج لعقاب نسوة متمردات أو كبت شبان سيئ الطابع. وحين يخمد المنتجع ينسلون كالنشالين من طابور المنتفعين بالطعام المجانيَ. لا يزال بعض من يُغرق قلاع سرطان البحر بالخلجان الخلفية يذكرونهم، لكن لم يعد هناك المزيد من الفرق الكبيرة أو عرسان شهر العسل، مع القيوارب والنزهات والسابحين، حين أصبحت سوكر باي كنزاً لرمم البحر كما غرقت آب بيتش نفسها، لم يرد أحد أو احتاج أن يستدعي ذوي القبعات الكبيرة واللحى الوضيعة. مرت أربعون عاماً الآن؛ واختفى كوسيه عن المنظر العام، لكن لا زلتُ أخاف منهم كل يوم تقريباً.

عداي أنا وقلة من جحور السمك، تقع آب بيتش على بعد عشرين قدماً تحت سطح الماء؛ لكن لا يزال جزء الفندق الخاص بمنتجع كوسيه قائماً. قائماً نوعاً. يبدو أكثر شبهاً بأجزائه الخلفية ـ بعيد عن الأعاصير وهبوب الرمال الثابت.

fb/mashro3pdf

والأغرب ما تفعله جبهة البحر بالمباني الشاغرة. قد تجد أجمل القواقع هناك على السلالم، تويجات مبعثرة أو نقوشاً بارزة على فستان الأحد، وتتساءل كيف وصلت هناك، فهي بعيدة جداً عن البحر. تلال مكومة من الرمال بأركان شرفة وما بين أسياخ الدرابزين الأشدّ بياضاً من الشط، والأكثر نعومة كدقيق منخول مرتين. ينمو نبات قفاز الثعلب علوّ خصر حول مبنى يطلّ على المنظر، وورود تكره طول الوقت تربتنا، بدع هناك بأشواك أكثر من توت أسود وأعشاب أزهار بنجر حمراء. تبدو ألواح خشب الفندق الخارجية كرقائق فضة، دهانها مُقشّر كخطوط على طقم شاي غير مُلمَع. الأبواب المزدوجة الكبيرة مقفلة. لم يهشّم أحد منذ زمان بعيد ألواح زجاجها. لم يتحمّل أحد ذلك فالألواح تعكس وجهك كالمنظر خلف ظهرك: أطيان من أعشاب الثوم تحفّ الشطّ الفوار، سماء كشاشة سينما، وبحر يريدك أكثر من أي شيء. لو نظرت للداخل، مهما كانت العزلة الخارجية، فسيبدو الفندق واعداً إياك بالنشوة مع رفقة من تفضّل من أصدقاء. وموسيقى. تغيُّر مصراع كاميرا يعلّق أصواتاً كسعلة بوق؛ مفاتيح بيانو تردّد نغمة الرُّبع فوق الريح حتى لتفتقد الزحام المؤلم في تلك الصالات والغرف المحكمة الغلق.

طقسنا عليل غائم، بنور خاص. صباحات شاحبة تبهت في أوقات ظهيرة بيضاء، وعند الثالثة بالضبط تتوحَش الألوان بدرجة ترعبك. أمواج منهكة ياقوتية يحارب بعضها الآخر،

fb/mashro3pdf

رغوة تتخبَط حتى لتغسل فيها ملاءات. سماء المساء كأنها من كوكب آخر ـ كوكب دون نُظم، حيث الشمس برفوقة أرجوان لو أرادت والسحاب أحمر كالخشخاش. شاطئنا سكر، كما ظنّه الأسبان حين رأوه أول مرة. أطلقوا عليه سكر(2)، وهو الاسم الذي حرّفه الأهالي البيض طول الوقت إلى سوكر.

لا يشبع أحد من طقسنا إلا حين تعمّ رائحة التعليب الشط وداخل الفندق. فيكتشف الضيوف ما يتحمّله أهالي اب بيتش يومياً ويدركون لمَ نقل السيد كوسيه عائلته من الفندق وبنى ذلك المنزل الكبير بشارع مونارش. لم تكن رائحة السمك بشعة في تلك الأجزاء. كانت تضيف تنوعا اخر للأحاسيس، مثل نتن مراحيض سيّار. لكنها أصبحت مشكلة بالستينات. فهناك جيل جديد من النساء كن يشتكين مما تفعله بفساتينهن، شهيتهن، وفكرتهن عن الرومانسية. كان ذلك حوالي الوقت الذي قرر فيه العالم أن العطر هو الرائحة الوحيدة التي خُلقت للأنف. أذكر فيدا وهي تحاول تهدئة صديقة مطرب معروف كان يحمل عليها بعصبية من رائحة لحمها كالمحارة. آذاني ذلك، فلم أنقطع عن المطبخ أبداً. فيما بعد، بلّغ السيد كوسيه الناس بما دمّر تجارته ـ أن البيض خدعوه، جعلوه يشتري قطعة جبهة البحر التي يريدها لأن معمل التعليب، الملاصق جداً، جعلها غير قابلة للربح. أحالت رائحة السمك منتجعه إلى نكتة. لكني أعرف أن الرائحة التي تغطي آب بيتش تضرب سوكر مرة فقط أو مرتين

fb/mashro3pdf

شهرياً ــ وتنتفي من ديسمبر إلى أبريل، حيـن تكـون قـلاع سرطان البحر فارغة ومعمل التعليب مغلقا. لا. لا يعنيني ما قاله للناس، فهناك شيء آخر حطّم منتجعه. قالت مـاي، الحريـة. حاولت جاهدة الاحتفاظ بالمكان شغالاً حين فقد حموها الاهتمام، مقتنعاً بأن الحقوق المدنية دمّرت عائلته وتجارتها. كانت تعنـي أن الملونين أكثر اهتماما بتفجير المدن من الرقص على شـطّ البحور. هكذا ماي؛ لكن ما بدا كأنه عقل بغل استحال إلى مـخّ مُشوّش. فالحقيقة أن من كانوا يتباهون بإجازات كوسـيه فـي الأربعينيات أصبحوا يتباهون فـي الستينيات بفنـادق حيـاة وهيلتون، برحلات بحرية إلى الباهاما واوكو ريو. الحقيقة أنـه لا المحار ولا الدمج العنصري كانا محطّ اللوم. دعك مـن لحـم النساء برائحة المحارة، فالزبائن سيجلسون قرب مرحاض لـو كانت هي الطريقة الوحيدة لسماع ويلسـون بيكيـت أو نيللـي لوتشر. كذلك، من يميز عطراً عن آخر حين تلتصق قرب شريك بصالة رقص مزدحمة منصتاً إلى "أنوار الميناء"؟ وبينما واصلت ماي لوم مارتن لوثر كنج يومياً على متاعبها، ظلّ الفندق يجلب مالاً رغم أنه مع زبون مختلف. أنصتوا لي: هناك شيء آخـر يستحق اللوم. كان السيد كوسيه رجلاً مهذباً. فقد ساعد ملونين هنا أكثر من البرامج الحكومية مدة أربعين عاماً. كما لم يكـن من يحدّد سعر الوجبات بالفندق وباع خمسـة وسـبعين أكـراً لشركة بناء اكويل ابرتيونيتي لتشيّد اثنين وثلاثين منزلاً رخيصاً

fb/mashro3pdf

حتى أن كوخي كان يُخجلها. فأرضياتي على الأقل من البلّوط المقشوط يدوياً، لا مجرد صنوبر مصقول، وإن لم تكن دعاماتي مسطرة ناعمة، فهي حقيقية ومُعمرَة بشكل صحيح حين تُرفع.

قبل غرق آب بيتش بإعصار يُدعى آجنس، كان هناك جفاف غُفل الاسم. أُغلق المزاد، وقُسّمت الأطيان تقريباً، حين كانت أمهات آب بيتش تخضّ الطمي من صنابيرهن. أرعبت الجميع آبار جافة وماء مغثٍ، فتخلوا عن منظر البحر منكبين على صكوك العقار بوزارة الإسكان فئة 2 %. لم يعد ماء المطر كافياً لهم. متاعب، بطالة، أعاصير تتلو فترات جفاف، مستنقعات تحولت إلى كعك جاف من الطين حتى هجره البعوض – رأيت ذلك كله فالحياة ببساطة ظلت نفسها. ثم ارتفعت منازل الحكومة وأطلقوا عليها جيران شط البحر – بينما لم تكن. بدأت شركة البناء البيع لجنود فيتنام والبيض المتقاعدين، لكن حين أصبحت أوشنسايد مقصداً للمطرودين من العمل بكوبونات طعام، صارت الكنائس والأحداث الإيجابية شغلهم الشاغل. وساعدت الرفاهية البعض حتى وصل التجديد المدنيّ إلى البلدة. ثم كانت وظائف. امتلأ المكان بالساعين إلى مكاتب ومعامل مستشفى على بعد اثنين وعشرين ميلاً شمالاً. بالمسافرين إياباً وذهاباً من هذه البيوت البديعة الرخيصة نحو مراكز التسوّق وصالات السينما، سعداء للغاية حتى لا تعكّرهم سحابة فكر، ناهيك عن ذكرى الشرطة وحدها. لم يعبروا في بالي إلا حين بدأت أفتقد مَن بقي مِن نساء كوسيه متسائلة إن كانت واحدة قتلت أخرى منهن في

fb/mashro3pdf

النهاية. من بقربي يعرف إن كانتا ماتتا هناك ـ واحدة تقيأت على السلالم وهي تمسك مدية قطعت حلقَ من أطعمتها السم؟ أو أصيبت واحدة بعد إطلاق نار على أخرى، ومن تعب الحركة جاءت الى الموت أمام ثلاجة؟ ستختفيان بعد أيام. ليس قبل أن يحتاج ابن سندلر أجره الأسبوعي. الأفضل أن أتخلّى عن التليفزيون قليلاً.

اعتدت رؤية واحدة على الطريق تقود سيارة اولدسموبيل العتيقة الصدئة ـ إلى البنك أو مرة لشراء لحم سالزبرى. وإلا ما غادرتا المنزل لسنين. ليس لأن واحدة عادت بكيس تسوّق وول مارت وتستطيع القول لدى مرور كتفيها إنها مضروبة بالسياط. لم تعد حقائب السمسونايت البيضاء التي معها منظراً موجوداً بأيّ مكان. ظننتُ أن الأخرى ستصفق الباب بوجهها، لكن لم تفعل. أخمن أنهما تعرفان أن كلا منهما تستحق الأخرى. فهما بخيلتان أكثر من معظمهن ومتحفظتان، تهتمان اهتماماً عادياً بلفت أنظار الكارهين. تعيشان كملكتين بمنزل السيد كوسيه، لكن لأن فتاة انتقلت هناك منذ قليل بجونلة قصيرة كملابس تحتية ودون ملابس تحتية على الإطلاق، قلقت عليهما فقد تركتاني هنا من غير شيء عدا حكاية خلق قديمة أسطّرها. أعرف أنها قمامة: مجرد قصة أخرى مختلقة لترويع الشويرات وتقويم مسار أطفال جامحين. لكنه كلُّ ما عندى. أعرف أنني أحتاج شيئاً آخر. أفضل. كقصة تبين كيف صَرَعَت نسوة صقيقات رجلاً طيباً أرضاً. وهكذا، أهمهمُ.

fb/mashro3pdf

الهوامش

---

(1) كلان: جماعة كوكلاكس كلان، الدموية الأمريكية. (م)

(2) بالإسبانية، في الأصل. (م)

fb/mashro3pdf

1

بورتريه

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

في اليوم الذي دخلتُ فيه شوارع سيلك، كانت ريــــح عاتيـــة تُخفض درجة الحرارة فعجزت الشمس عن رفع الترمومـــــترات خارج الديار أكثر من درجات قليلة فوق منسوب التجمد. تراكمت طبقات ثلج رقيقة عند حزّ الشطّ وللداخل، منازل شارع مونارش مكومة معاً تئن كالكلاب. طبقات الثلج لامعة، ثم تختفي في ظـلّ باكورة المساء، تجعل الأرصفة التي تمشي عليها تتشـــقّق حتـــى بآثار خطو رشيق، ناهيك عن خطوٍ بعرج خفيف. لابد أن تحنـــي رأسها وتغلق عينيها لأقصى درجة في ذلك الطقس، ولأنها غريبة فهي تحدّق بوسع عينيها في كل مـــنزل، تفتـــش عـــن العنـــوان المطابق للموجود بالإعلان: واحد شارع مونـــارش. اســـتدارت أخيراً إلى درب يُفضي حيث يقف سندلر جيبون على باب جراجه

fb/mashro3pdf

ساعياً إلى شقّ كيس الثلج عنه. يذكر طرقة كعبيها على الإسفلت وهي تقترب؛ زاوية مؤخرتها وهي تقف هناك، خلفها شمس من الليمون، نور الجراج بوجهها. يذكر لذّة صوتها وهي تسأل عن وجهة بيت النساء الذي يعرفه طول حياته.

حين أخبرته العنوان، سألها "متأكدة؟"

تناولت قصاصة مربعة من جيب سُترتها، مسكتها بأصابع دون قفاز تتفحّص، أومأت.

أمعن سندلر جيبون في ساقيها وقدّر أن ركبتيها وفخذيها ملدوغين بالبرد، فقد عرّضتهما لذلك جونلتها القصيرة جداً. أعجبه ارتفاع كعبي حذائها، وتفصيلة سترتها الجلدية القصيرة. فكّر في البداية أنها تلبس قبعة كبيرة صوفية لتمنح أذنيها ورقبتها الدفء. ثم أدرك أنه شعرها ـ رمت به الريح للأمام، تصرفه عن وجهها. بدت له طفلة لذيذة منسّقة العظام، شامخة قليلاً لكن ضائعة.

قال "نساء كوسيه. هذا ما تفتشين عنه. لم يعد المنزل من الطراز الأول منذ وقت طويل، لكن لا تستطيعين قول ذلك. لا تستطيعين إخبارهن شيئاً. 1410 أو ربما 1401".

جاء دورها الآن لاختبار يقينه.

فكّر بتوتر مفاجئ ـ إنها الريح، جعلت عينيه تدمعان. قال "سأخبرك. اصعدي الدرب. لن تضيعي إن حاولت. فهو كبير ككنيسة".

fb/mashro3pdf

شكرته لكن لم تدر حين صاح بظهرها "أو سجن".

لم يعرف سندلر جيبون ما جعله يقول ذلك. فزوجته في بالـه. ربما نزلت من الباص الآن، تخطو بحذر فوق رصيف زلق حتى تصل. هناك تأمن السقوط. وبالتروي والحس العام المعهود فيه، استعدّ للطقس المُجمّد بالحيّ المجاور فما لديه تاريخ لذلك. لكـن تعليق "السجن" كان يعني أنه يفكّر حقاً فـي رومـن، حفيـده، المُفترَض أنه عاد من المدرسة منذ سـاعة ونصـف. بالرابعـة عشرة، طويل وعضليّ، فيه شيء يتوارى خوفاً، شيء مختلَـس يجعل سندلر جيبون يهزّ إبهامه كل مرة يهلّ فيها الولد. يسعد بـه وفيدا جيبون، يربيانه بعد تطوّع صهرهما وابنتهما. أمّ بـالجيش؛ أبٌ بالأسطول التجاريّ. أفضل اختيار بعيداً عن أيّ شيء هـو العمل القطّاعي (تطهير الميناء للنساء، حمـل قمامـة الطـرق للرجال)، وهو ما بقي بعد غلق معمل التعليب. اعتادت أمـه أن تقول "آباء عاطلون وأطفال يعرجون". ونيل عمل منتظم بأي فِناء يساعد، لكن ليس لدرجة توبيخ رومن على كسبه مالاً قليلاً بعيـداً عن عيون شرطة طموح، غير منشغلة. تشكلت فتوته في ظـلّ خوفها من المحترسين، لكن أصحـاب الـزيّ الأزرق الداكـن يعملون على إقرار النظام الآن. ثلاثون عاماً مضت مـع عمـدة واحد، قسم بسكرتيرة واحدة أصبح الآن أربع سـيارات دوريـة وثمانية ضباط بأجهزة إرسال لحفظ الأمن.

كان يمسح غبار الملح عن يديه حين وصل مَن برعايته معـاً، تذمّر أحدهما "هوو! أيسعدني أنك فعلت هذا! ظننتَ أني قد أُحطّم

fb/mashro3pdf

عنقي". يردّ الآخر "ماذا تقصدين، يا جران[1]؟ لقد أخذت بيدك طول الطريق من الباص".

"واجب عليك طبعاً، يا حبيبي". ابتسمت فيدا جيبون، أملاً بأن تُبعد من طريقه أي نقد يحتشد به زوجها ضدّ حفيدها.

على العشاء، بطاطس بالصلصة تُبهج المزاج، فالتقط سندلر النميمة التي بدأها وثلاثتهم يعدّون المائدة.

سألت فيدا، مهتاجة "ماذا قلت إنها تريد؟". تصلّبت شرائح الخنزير بإعادة إحمائها.

"أظنها تبحث عن نساء كوسيه. بالعنوان الذي تريده. أقصد، العنوان القديم. حين لم يكن غير هن هناك".

"مكتوب بورقتها؟"، وصبّت بعض صلصة الزبيب على ما تُقدّمه من لحم.

"لم أتطلّع فيها، يا امرأة. فقط رأيتها تمعن بالورقة. مجرد قمامة صغيرة من صحيفة".

"أراهن أنك ركّزت على ساقيها. فأنا أعرفك".

غطّى رومن فمه وأغلق عينيه.

"فيدا، لا تُصغّريني أمام الولد".

"طيب، أول ما أخبرتني كان عن جونلتها. فأنا أتبع قائمة أولوياتك".

"قلتُ كانت قصيرة، وهذا كل شيء".

"لأي حدّ قصيرة؟" وغمزت فيدا إلى رومن.

fb/mashro3pdf

"يلبسنها لفوق إلى هنا، يا جران" واختفت يد رومن [illegible] المائدة.

مالت فيدا جانباً "لفوق إلى أين؟"

"ألا تتوقفان كلاكما؟ أريد أن أبلغكما شيئاً".

سألت فيدا "أتظنها ابنة أخت الزوجة؟"

"ربما. رغم أنها لا تبدو هكذا. عدا الحجم، فهي أكثر شبهاً بأهل كرستين"، وأومأ سندلر إلى مرطبان الجلبة[2].

"لم يبق أحد من أهل كرستين".

"قد يكون لها ابنة لا تعرفينها". أراد رومن أن يشارك بالحوار، لكن كالعادة تطلّعا فيه كأن زمام بنطلونه مفتوح.

قال جدّه "احفظ لسانك".

"أنا أتكلّم فقط، يا جرامب[3]. أنّى لي أن أعرف".

"لا ينبغي لك، فلا تحشر نفسك".

"ششش".

"أتهزأ مني بشفتيك؟"

سألت فيدا "سندلر، خِفّ. ألا تتركه في حاله دقيقة؟"

فتح سندلر فمه ليدافع عن موقعه، لكنه استبدله بقضم طرف قرن فلفل.

قالت فيدا "عموماً، كلما سمعت أقلّ عن فتيات كوسيه كان أفضل".

قطّب رومن وجهه "فتيات؟"

fb/mashro3pdf

"آه، هـــذه فكرتـــي عنهن. فتيات متحذلقات سكيرات، لديهن أسبابهن في ازدراء الناس كقدرٍ ينظر إلى مقلاة".

قال رومن "باردتان معي. خصوصاً، النحيلة".

حملقــت فـــيه فـــيدا "ألا تُصدّق؟. إنها تدفع لك؛ وهو كلّ ما تحتاجه من الآخرين".

تلعثم رومن. هي الان في ظهره. "لماذا تجعلاني أعمل هناك ما دامتا بهذا السوء؟"

خربش سندلر بإبهامه "نجعلك؟"

"نعم، تعرفان، ترسلانني هناك".

"أغرقي هذا الولد، يا فيدا. فهو لا يعرف الحظّ من الضراط".

"أرسلناك لأنك تحتاج وظيفة، يا رومن. لبثت هنا أربعة أشهر وحان الوقت لتسمن قليلاً".

حـــاول رومن العودة بالحوار إلى وهَن مستخدمتيه بعيداً عن شخصه. "الآنسة كرستين تمنحني دائماً الطعام الطيب لآكله".

"لا أريدك أن تتناول شيئاً من فرنها".

"فيدا".

"لا أريد".

"تلك إشاعة".

"إشـــاعة بقدمين ضخمتين قديرتين. ولا أثق بالأخرى أيضاً. أعرف ما تستطيعه".

"فيدا".

fb/mashro3pdf

"أنسيت؟" ارتفع حاجبا فيدا بدهشة.

"لا يعرف أحد بالتأكيد"

سأل رومن "يعرف ماذا؟"

قال جدّه "عبث قديم".

وقفت فيدا ثم تحركت إلى الثلاجة. "قتله شخص بيقين جلوسي أمامك. لم يكن بالرجل ضرر". الحلوى، أناناس معلب بأكواب شربات. يميل سندلر للوراء، دون تأثّر. لمحت فيدا نظرته لكن قررت أن تدعه يكذب. كانت تعمل؛ وهو حارس أمن في بنسيون مرح. ورغم رعايته المنزل بشكل رائع، كان يتوقّع عودتها لتطبخ وجبة كاملة كل يوم.

سأل رومن "أيّ رجل؟"

رد سندلر "بيل كوسيه. يملك فندقا وممتلكات أخرى، بينها الأرض تحت هذا المنزل".

هزت فيدا رأسها. "رأيته يوم مات. عفياً عند الإفطار؛ ميتاً عند الغداء".

"كان لديه الكثير ليردّ عليه، يا فيدا".

"ردّ شخص نيابة عنه: (لا غداء)".

"تغفرين أيّ شيء للفاسد العجوز".

"دفع لنا مالاً معقولاً يا سندلر، وعلّمنا أيضاً. أشياء لم نكن نعرفها أبداً لو ظللنا نعيش في مستنقع المنزل المرتكز. تعرف

fb/mashro3pdf

شكل يديّ والدتي. بسبب بيل كوسيه، لم يعرف أحدنا أداء هـــذه النوعية من العمل".

"لم تكن بهذا السوء. أحنّ إليها أحياناً".

"تحنّ لماذا؟ مرطبانات مرق؟ ثعابين؟"

"الشجر".

"آه، في داهية". رمت فيدا ملعقتها بكوب الشربات في عنـــف يكفي لإصدار الصلصلة التي تريد.

تجاهلها سندلر "أتذكرين عواصف الصيف؟ الهواء فقط قبـــل ـــ".

طرقت فيدا على كتف الولد "اصح، يا رومن. ســاعدني فـــي الصحون".

"لم أنته، يا جران".

"بلى انتهيت. قف".

يدفع رومن الهواء من شفتيه، يجذب كرسيّه للـــوراء فيفــرد نفسه. حاول أن يتبادل النظرات مع جدّه، لكن عينـــيّ العجــوز انقلبتا إلى الداخل.

انخفض صوت سندلر "لا ترى نور القمر هكذا بمكان آخــر". ثم استجمع نفسه "يجعلك ترغب في ـ لا أقول، أن أعود".

تجمّع فيدا الصحون بصوت عال "لا أتمنى ذلك طبعاً. نحتــاج جِل صحون".

fb/mashro3pdf

"تقول السيدة كوسيه إنها كانت جنة"، توصّل رومن إلى مقشر أناناس بأصابعه.

لطمت فيدا يده. "كانت مزرعة. وطردنا بيل كوسيه منها".

التفت سندلر كأنه يكلّم كتفه "من كان يريدهم؟".

"سمعت ذلك. وماذا يعني؟"

"لا شيء، يا فيدا. كما قلت، كان الرجل قديساً".

"لا نقاش معك".

قطّر رومن الصابون السائل على ماء ساخن. شعرت يداه بصوت الماء الدافق فيهما، رغم أنه يلسع خدوش مفاصل أصابعه. يؤلمه جنبه أكثر حين يقف إلى الحوض، لكنه يستمتع أفضل بالإنصات إلى شجار جدّيه عن الأيام العتيقة. يخاف أقلّ.

لم تتُه الفتاة عن المنزل، ولم يخطئ رجل الثلج الذائب: منزل مجيد يعتدّ بنفسه، ولا يختلف سقف طابقه الثالث المستدقّ أعلاه عن كنيسة. سلالم إلى الشرفة، منحدرة لامعة بالثلج، تستحثّ الحذر، فلا درابزين. لكن الفتاة قرقعت على الممشى وصعدت السلالم دون تردّد. لم تلمح جرساً، فبدأت الطرق، مترددة لدى رؤيتها بصيصاً من النور تحتها، يمين الشرفة. عادت على السلالم الزلقة، تبعت المنحنى المميز بلوح إردواز نصف مدفون، ثم هبطت بسطة سلالم حديدية مضاءة من نافذة. وراء النافذة، باب. لا ريح تلطمها هناك. للمنطقة منظر ما يدعوه البعض شقة حديقة ــ ويدعوه آخرون، بدروماً. سكنت عند لوح الزجاج، فقد

fb/mashro3pdf

رأت امرأة جالسة. على المائدة أمامها مصفاة طهو، جرائد، وزبدية خلاّط. طرقت الفتاة النافذة بخفة وابتسمت حين رفعت المرأة عينيها. نهضت ببطء، لكن تحركت على قدميها مسرعة إلى الباب.

"ما هذا؟" فُتح الباب بشقّ يكفي لكشف عين رمادية واحدة.

قالت الفتاة "أتيت للوظيفة". حامت من الشقّ رائحة بحر.

"إذن أنت مُضيعة"، قالت المرأة وهي تصفق الباب.

دقت الفتاة بعنف على الباب، صارخة "يقول الإعلان واحد شارع مونارش! وهذا رقم واحد!".

لا ردّ، فعادت للنافذة تنقر الزجاج بأظافر يدها اليسرى بينما تضغط باليمنى قصاصة الصحيفة نحو الضوء.

عادت المرأة للنافذة، عيناها مسطّحتان بانزعاج تحدّقان بالفتاة، ثم نقلتاها من وجه الشابة وابتسامتها المناشدة لقصاصة الصحيفة. نظرت شزراً إليها وتطلعت من جديد بالوجه، ثم عادت لقصاصة الصحيفة. تحرّكت نحو الباب واختفت من النافذة، لكن ليس قبل أن تلمع في عينيها قشرة رعب، تلاشت.

حين دخلت الفتاة، لم تعرض المرأة مقعداً ولا قدّمت تحية. أخذت الإعلان تقرأه. هناك دائرة رصاصية فصلت الأسطر القليلة عن طلب شخص عما فوقها وتحتها.

fb/mashro3pdf

مطلوب سيدة محترفة ناضجة للعمل سكرتيرة مرافقة. عمل خفيف لكن بخصوصية عالية. التوظيف لدى السيدة هـ كوسيه.

واحد شارع مونارش، سيلك.

"من أين حصلتها؟" انطوت نبرة المرأة على اتهام.

"من صحيفة".

"أرى. أيها؟ **هاربر جورنال**؟"

"نعم، سيدتي".

"متى؟"

"اليوم".

أعادت تسليمها الإعلان. "آه. أظن الأفضل أن تجلسي". وأرخت حدّة صوتها.

"أنت السيدة هـ كوسيه؟"

حدجت الفتاة بنظرة. "لو كنتها، لعرفت حكاية هذه القصاصة القمامة".

ضحكة الفتاة شبيهة بإثارة أجراس مبتورة "آه، صحيح. آسفة". جلست كلتاهما، ثم عادت المرأة إلى عملها، تفصيص الجمبري. اثنا عشر خاتماً، خاتمان بثلاثة أصابع في كل يد، تخطف النور من دعامة السقف فتسمو مهمتها من الكدح إلى الشعوذة.

fb/mashro3pdf

"أليس لك اسم؟"

"نعم، سيدتي. جينيور".

رفعت المرأة عينيها. "فكرة أبيك؟"

"نعم، سيدتي".

"له الرحمة".

"يمكنك مناداتي جين، لو أحببت".

"لا أحبّ. ألم يمنحك أبوك لقب عائلة؟ بروم، مثلاً؟ أو شوار؟"

قالت جينيور "فيفيان. بحرف ياء".

"ياء؟ أنت من هنا؟"

"أجيء أحيانا. لكني من بعيد".

"لم أسمع عن عائلة هنا اسمها فيفيان بحرف ياء أو بدونه".

"آه، لسنا من هنا. أصلاً".

"من أين إذن؟"

خرخر جلد السترة وجينيور فيفيان تهزّ كتفيها لتصل عبر المائدة لمصفاة الطهو. "أعلى، شمالاً. تحتاجين مساعدة مني، سيدتي؟" سألتها. "أنا طباخة ماهرة نوعاً".

"لا". رفعت المرأة يدها العاطلة عن العمل. "أحتاج لإيقاع معين".

سرّحت باقة بخار بعيداً عن الماء المرفوع من قِدر إلى الموقد. خلف المائدة حائط خزائن، أسطحها شاحبة ومقابضها

fb/mashro3pdf

كعجين خميرة. امتدّ صمت حازم بين المرأتين. تململت جينيــور فيفيان، سترتها تصرّ عبر طقطقة قشور الجمبري.

"أهي هنا، السيدة هــ كوسيه، سيدتي؟"

"هنا".

"هل لي أن أتكلم معها، من فضلك؟"

"دعيني أرى ذلك ثانية". مسحت المرأة يديها بمنشفة صحــون قبل لمس الإعلان. "(بخصوصية عالية)، هوه؟" زمّت شــفتيها. قالت "أظن. أكيد"، ثم أسقطت القصاصة بإبهام وســبابة، كأنــها تودِعُ حِفاضاً بدلو النقع. مسحت يديــها ثانيــة وتخــيرت حبّــة جمبري. هناك، هناك فقط، مسكت اللحم من خلفه بين أصابعــها، منسلاً إلى خيط واهن داكن. رشيقاً كجوهرة، نزعته.

"أيمكنني رؤية السيدة كوسيه، من فضلــك؟" غطســت ذقــن جينيور براحتها، تخدش سؤالها بابتسامة.

"طبعاً. أعلى هذه السلالم، ثم سلالم أخرى. طول الطريق إلــى القمة". تحرّكت تجاه بسطة سلالم فبلغت فجوة جدار قرب الموقد. وقفت جينيور.

"ألا يُفترض أن يعنيك اسمي؟"

دارت جينيور عائدة، ابتسامتها تخطيط مدروس عن الارتبــاك والتشوش. "آه، نعم، سيدتي. آسفة. أنا. أنا فقط متوترة جداً".

"كرستين. لو نلت وظيفة (بخصوصية عالية) فعليــك حفـظ اسمي".

fb/mashro3pdf

"آمل. أسعدني لقاؤك، كرستين. حقاً. قلت الطابق الثاني؟"

كان حذاؤها مكتوم الصوت على السلالم.

دارت كرستين مبتعدة. كان عليها أن تقول "لا. الثالث"، لكن لم تفعل. لمحت النور الدافئ بوعاء طبخ الأرز. جمعت الجمبري، رمته بالماء المغلي وضبطت الشعلة. عادت إلى المائدة، لقطت ثلة ثوم، مستمتعة بيديها المزينتين في خرق كالعادة، نزعت قفازها. ألقته هناك وخلّته على رقعة التقطيع. دمدمت ثلاجة فيلكو العتيقة وارتجفت. منحتها كرستين ضربة خفيفة للطمأنة قبل أن تنثني إلي خزانة واطئة وهي تفكر، ماذا جرى لها الآن؟ ارتعبت أم تورّطت بحركة. ماذا؟ كيف توصلت لإعلان الصحيفة دون معرفتي؟ تخيّرت سلطانية فضية بقِدر زجاج مناسب، تنهدت من تلك اللطخة العنيدة في C‘s المشققة بغطائها. كانت C‘s كالأحرف المحفورة بالمنزل كلها، أبعد من الزخرفة إلى غير المقروء. حتى مقبض الملعقة بجيب مريلتها، حروف استهلالية، لو شُبّكت معاً فلن تخلّف أثراً. كانت ملعقة قهوة صغيرة، لكن كرستين تأكل بها كل وجبة تتمناها لتظل قريبة من الطفلة التي تناولتها يوماً، كما تحمل الصور التي تستدعيها. تغرف بها شرائح الخوخ من الآيس كريم المُصنّع منزلياً، عاجزة أمام حبيبات الرمال المرتجفة لكن غير المنصاعة التي تهبّ على الحلوى ــ أمور غداء النزهة.

fb/mashro3pdf

صبّنت كرستين الوعاء الزجاجيّ ثم شطفته و أفكارها تنساب بخفة من نزهات الشط إلى حدائق سيلفر ديب، من هواء حرّيف مالح إلى أطراف كيو، وإلى اللقاء الذي عُقد عندئذ بغرفة نوم المرأة الأقوى على الساحل. بينما تجلس مضطجعة أمام **آنسة جينيور لكن يمكنك مناداتي جين**، وضعت كرستين جسمها الأربعيني ــ البادي كأنه ثلاثيني ــ جنب جسم الفتاة وفازت. للفتاة ساقان بديعتان (آه، كل ما يمكن أن تراه في ذلك الحذاء الطويل ركبتان وفخذان) وخلفه ثقب ضيق كان منظور الهياج كله في تلك الأيام. لكنها لا تملك ما تنافس به كرستين 1947. حين كان الشطّ لون الكريم لكنه براق وتخرج أمواجه الماصّة من الماء زرقاء صافية حتى لتدور مبتعداً خشية أن تؤذي عينيك. لكن وجه الفتاة قرَعَ أجراس الحسد. وشعرها كثيف. بداية حدقت فيها كرستين، بعدئذ ركّزت في قصاصة الصحيفة، محترزة. عداها، لم تكن تسمح لفتاة غريبة دون كيس نقود بدخول المنزل. أعطاها عمل الجمبري وقتاً فسيحاً ليثب منها إحساس كالكرة عما (لا يعنيها من) تكون. كما منحها سبباً لمؤازرة نظرة مستذلة، فلم تعجبها قفزة القلب التي هلّت عليها وهي تنظر بعيني الفتاة. نظرة تثير الأعصاب كطفل ناقص التغذية. فتاة تودّ عناقها أو صفعها لكونها معوزة.

fb/mashro3pdf

قلّبت كرستين الثوم بالزبد المُطرّي بالمقلاة، وشرعت في طبخ الرو[4]. بعد لحظة رشّت الطحين وراقبته ليصير برونزياً قبل تليين العجين بعصا خشبية وخفقه لينعَم.

قالت الفتاة "أنا طباخة ماهرة نوعاً"، باللحظة التي توصلت فيها بيديها القذرتين إلى قِدر الجمبري المُنظّف. جلست تقول "أجيء أحياناً"، أمام أكثر امرأة معروفة بالمقاطعة، امرأة تعرف كل أسود ولد من نيجر هيد روك إلى سوكر باي، من آب بيتش إلى سيلك، ونصف من في هاربر أيضاً، فقد قضت (أو ضيّعت) هناك قسطاً وفيراً من حياتها. جينيور فيفيان. بحرف ياء. صونياته كاسم من بطاقة بيسبول. إذن لماذا وثب القلب؟ هل خشيت أن تستحي من الاعتراف بأي لحظة، تشحذ صوتها كالموسَى لتجرح أيّ احتمال؟ علامات وشاية شائعة بحياة شارع من طريق سريع: "تصبين" محطة باص، سندوتشات الآخرين، شعر غير مغسول، ملابس نوم، لا محفظة نقود، فم نظيف من مضغ اللبان لا من معجون أسنان. إذن لماذا تريدها هيد؟ كيف وضعت إعلاناً بصحيفة دون هاتف عمل؟ كان على ابن جيبون أن يساعدها ـ إضافة للمهمة الشفهية للآخرين بعد العمل بالفناء. ما حدث مصيدة نصبتها حيّة بكعبٍ عال. طريقة جديدة نوعاً لرجّ مستقبلها وهي تمزّق عنها ماضيها.

همست "سأكون ملعونة".

fb/mashro3pdf

فردت كرستين أصابعها بالرجّة الأليفة التي يمنحها الماس. ثم لتجميع الأرز، الجمبري، الصلصة، تطبيق ذلك كله بوسوسة، ببراعة، في الكسرولة. سيظلّ دافئاً حتى تقلّب سلطة خفيفة. ثم عليها ترتيبه كله بصينية فضية، تأخذها لأعلى ثلاث بسطات سلالم، حيث تأمل به خنق تلك الأقوى على الساحل.

"يا إلهي. ثلج". تحدثت دون أن تدير رأسها، ببساطة فرجت ما بين الستائر قليلاً. "تعالي هنا وانظري. في كل مكان".

تحركت جينيور قرب المرأة صغيرة الحجم عند النافذة وهي تُنعم النظر من الزجاج، تحاول لكنها لم تستطع رؤية كِسف الثلج. بدت المرأة بالستينيات على الأقلّ ـ شَعر بقصّة كتلة سوداء بحاشية من فضة فوق الغُرّة ـ لكنها نالت قليلاً من عطر الفتاة: حلوى الروم الزبدية، عصير أعشاب، وفراء.

"غريب، ألا ترين؟ لم يكن عندنا ثلج. أبداً".

قالت جينيور "رأيت رجلاً ينثر ملح الثلج. وقد فعلها كعادة من استخدمه مراراً".

دارت المرأة، مجفلة. الفتاة التي أطلقوا عليها كاذبة قبل أن تقول أهلاً.

"جئت للوظيفة؟" مسحت عيناها وجه جينيور، ثم أمعنت في ملابسها. عرفت أن المرشحة للوظيفة كانت بالمنزل من وقت طويل قبل سماع وقع أقدام كرستين أو رومن. حدّدت وجهتها بسرعة عند النافذة لتتخذ وضعية صحيحة، تعطي انطباعاً معيناً.

fb/mashro3pdf

لكن لم تتضايق. لم تكن الفتاة ما توقّعته إطلاقاً. ليست بالضبط شعراً أهوج ولا ملابس مبهرجة؛ هناك كسل جريء بسلوكها، طريقة كلامها. مثل "ياه" التي ردّت بها على استفسار هيد.

"تقصدين (نعم)؟"

هذه الغرفة براقة كالمطبخ تحت، كمحلّ بيع مصنوعات. كل لمبة ــ ست؟ عشر؟ ــ مضاءة، تنافس الثريا. كانت جينيور ترتقي السلالم المعتمة وهي تحدق عبر سنكبيها، تخمّن ما تحويه الغرف الأخرى. بدا لها أن كل امرأة تعيش تحت نور كاشف تنفصل ــ أو تتصل ــ عن العتمة بين لمبة وأخرى. حدقت بانفتاح فيما يزدحم على أسطح الموائد والمقاعد، انتظرت المرأة صغيرة الحجم لتفطم الصمت.

"أنا هيد كوسيه. وأنتِ؟"

"جينيور. لكن يمكنك مناداتي جين".

قالت هيد "آه، عزيزتي"، وضربت سياطها كأن شخصاً سكب نبيذاً أحمر على مخمل باهت: آسفة طبعاً، ولا خطأ طبعاً، لكن من الصعب كنس الهُراء. تحركت بعيداً عن النافذة، تخطو بحذر، فالغرفة مكدسة بالأثاث. شيز(5)، خزانتا صحون، طاولتا كتابة، طاولات جانبية، مقاعد عالية الظهر وخفيضة المِقعدة. كله بتأثير فراش في الخلف حيث يلوح بورتريه رجل. جلست هيد بالنهاية على مقعد صغير. وضعت يديها في حجرها، أومأت للفتاة أن تتّخذ الكرسيّ المواجه.

fb/mashro3pdf

"أخبريني أين كنت تشتغلين. فالإعلان لم يحدّد إجمالاً، لكن أودّ معرفة تاريخ عملك".

ابتسمت جينيور. نطقت المرأة "إجمالاً" بمقطعين. "أنا بالثامنة عشرة وسأفعل ما تريدين. أيّ شيء".

"جيد أن أعرف ذلك، لكن من أراجعه؟ لديك أحد؟ شخص أستطيع التواصل معه؟"

"لا".

"آه، وكيف أعرف إن كنتِ أمينة؟ كتومة؟"

"لن يفيدك خطاب حتى لو طمأنك. أقول: أنا. جرّبيني وسترين. إن كنت جيدة ــ"، ثم قلبت جينيور راحتيها لأعلى.

لمست هيد زاويتي فمها بيد صغيرة كأنها لطفلة وانطوت كجناح. فكّرت أن كرهها اللحظيّ لشخص جينيور **لكن يمكنك مناداتي جين** كان أخرق من تفكيرها في كلامها البليد، حيث لم تتّخذ وضعية، نوعاً من التصرف. فكّرت في شيء آخر: إن كان لوضع الفتاة الجسمانيّ سيطرة مقيمة. كانت تحتاج شخصاً يتلطّف أحياناً أو لديه جوع معين. الموقف أصبح متعجلاً. كرستين أقرب إلى قلبها العاهر، ماس عابث في وجه صاحبته، وتسلب مال المنزل لتدفع لمحامية.

"دعيني أخبرك نوع الوظيفة. أقصد، الواجبات".

"تفضلي". دفعت جينيور السترة عن منكبيها، صدر عنه مواء جِلد رخيص. تحته قميص أسود نصف كمّ دون حمّالة، واتّضح

fb/mashro3pdf

لـ هيد فـوراً أن ثدييها لا يحتاجان: فالحُلمتان عاليتان، جسورتان. بعد خلع السترة، بدا شعرها واثباً للعيان. مفروقاً في منتصفه، بطبقات مشدودة، نفاثة وامضة تحت نور اللمبة.

قالت هيد "إنني أسطّر كتاباً"، نوّرت وجهها ابتسامة رضا. وضعية اتخذتها لتنجح بالمقابلة التي تغيّرت بذِكر كتابها. "كتاب عن عائلتي. كوسيه. عائلة زوجي".

تطلعت جينيور في البورتريه. "أهو هذا؟"

"هذا هو. مرسوم من لقطة فوتوغرافيا، لذلك يشبهه بالضبط. ما ترينه رجلاً رائعا". تنهدت هيد. "لدي الآن المادّة كلها، لكن هناك ما يحتاج تمحيصاً، كما تعرفين. تواريخ، تهجيات. حصلت على دفاتر زيارة فندقنا ــ عدا اثنين أو ثلاثة، كما أعتقد ــ وبعضهم، ليس كثيراً، خطّه أردأ ما يكون. أردأ شيء. لكن معظمها بخطوط أنيقة، كما تعرفين، بالطريقة التي تعلمناها. لكن بابا لم يكن يدعهم يكتبون كما يفعلون اليوم، بشكل سليم جنبه توقيع. لم يكن يحتاج عموماً، فهو يعرف الجميع أياً كانوا ويستطيع التعرّف على أيّ توقيع وإن كان لمجهول، لكن لم يأت مجهول طبعاً. فمعظم ضيوفنا خطوطهم نيّرة، بيني وبينك، كان عليكِ أن تكوني أكثر من مجرد متعلّمة، عليك نيل وظيفة مرموقة، فاهمة؟ وإلا فلن تنجزي شيئاً يستحقّ بخطّ وضيع. الآن يكتب الناس بأقدامهم".

fb/mashro3pdf

ضحكت هيد، ثم قالت "اعذريني. فليس عنــدك فكــرة عمــا أتحدث. وأنا أنفعل بكل شيء، فقط تدبّري الأمر". ضبطت طيّات معطفها المنزلي بإبهاميها، أعادت ترتيب نفسها للمقابلــة. "لكــن أريد أن أسمع منك. اسمك جينيور، هه؟"

"آه".

"طيب، الآن يا جينيور. قلت بمقدورك فعل ما أريد، إذن كنت تشتغلين من قبل بمكان آخر. ولو قررت معاونتي فــي كتــابي فسأحتاج معرفة ــ"

"هاهو، يا سيدة كوسيه. أستطيع القراءة؛ أســتطيع الكتابــة، جيداً؟ ذكية قدر الإمكان. لو أردت خطّاً أو طباعة علــى الآلــة، فسأفعل. تريدين هندمة شعرك، أهندمه. تريدين حماماً، أحمّمــك. فأنا أحتاج وظيفة ومكاناً أقيم فيه. أنا ممتازة حقاً، يا سيدة كوسيه. ممتازة فعلاً وقولاً". غمزت بعينها، فأجفلت هيد بذكرى مســتعادة عن شيء صعب المنال، مثل قوقعة قذفَت بها موجة. قد تكــون نقرة الكآبة التي أحسّت بها حادة فجعلتها تميل قرب الفتاة لتهمس، "تحفظين سراً؟" وكفّت عن تنفسها.

"كأيٍّ ممن عرفته يوماً".

زفرت هيد. "العمل خاصّ. لا يعرف أحد عنه شيئاً. لا أحد".

"تقصدين كرستين؟"

"لا أقصد أحداً".

"سأضطلع به".

fb/mashro3pdf

"حتى لو عرفتِ طبيعة الأجر".

"سأنال الوظيفة. وستدفعين. أبدأ الآن أم أنتظر إلى غدٍ؟"

وقع أقدام، بطيئة موقّعة، صوتها بالصالة.

قالت هيد "غداً". همست بالكلمة، لكنها صدرت كصرخة عاجلة.

دخلت كرستين تحمل صينية. لم تسبقها دقة ولا صحبتها كلمة. وضعت الصينية فوق المقعد إزاء كلٍ من هيد وجينيور بعضهما الآخر ومضت دون أن تصادف عينا واحدة.

رفعت هيد غطاء الكسرولة، ثم أعادتها موضعها. قالت "أيّ شيء يُحنقني".

قالت جينيور "يبدو لذيذاً".

قالت هيد "إذن تناوليه".

تناولت جينيور حبّة جمبري بشوكة إلى فمها وهي تموء "مامم، يا إلهي، تعرف جيداً كيف تطبخ".

"ما تعرفه هو أني لا آكل الصدفيات".

لم تكن بالطابق الثاني تلك الراحة المنمقة التي وجدتها جينيور بالثالث. هنا صالة، غرفتا نوم بسيطتان، نوع من مكتب، وحمّام تساوي مساحته بالأقدام المربعة الغرفة التي فوقه بالضبط، حيث قضت جينيور ساعتين تحاول سبر غور المرأة التي أصبحت الآن رئيستها في العمل.

fb/mashro3pdf

لم يكن لازماً تناولها الطعام بهذه الشهية، لكن طعمه المطبوخ بالمنزل ساخناً أذهلها حتى نسيت. كانت تستعد قرب لحظة النهاية حين بدأت تراقب الوجه البادي خلف الوجه؛ وتتصت للكلمات المخبوءة وراء الكلام. صرفت شوكة هيد انتباه جينيور أخيراً عن صحنها. مسكت الشوكة بين إبهامها وراحتها، دفعت أوراق خسّ بوسطن في الزيت والخل، نقبت حبّات زيتون، رفعت حلقات بصل مدببة الطرف وكانت تسقطها مرة بعد أخرى، واصلت هيد ثرثرتها ولم تتناول شيئاً. ركّزت جينيور في اليدين أكثر مما كان يشغلها: يدان صغيرتان، بنعومة طفل عدا بقعةٍ ندبة، تحني كلاً منهما بليونة بعيداً عن شريكتها ــ كزعنفتين. تساءلت، أهو التهاب مفاصل؟ أيكون علّة أنها لا تستطيع تسطير كتابها بيمينها؟ أم هناك علّة أخرى بالسيدة العجوز؟ فقدان ذاكرة، ربما. فقد سمعت تغيراً بنبرة هيد حتى قبل وصول الطعام، كحركة بطيئة من فصل الدراسة إلى خزانة الفتيات؛ من مكتب المدير إلى بار الجيران.

تثاءبت جينيور تحت بطاطين الفراش حيث وجّهتها هيد، جاهدت النوم لتنظّم أو تعيد أسر الانطباعات. عرفت أنها أكلت كثيراً وبسرعة، كأيامها الأولى بالإصلاحية قبل أن تتعلم صنع الطعام أخيراً. وهي هناك، تجهّزت فعلياً للمزيد. شهيتها لم تدهشها ــ فقد ظلّت باقية ــ لكن بضراوة. ظلّ يقمعها مراقبة كرستين رمادية العينين وهي تنظّف الجمبري أولاً، ولم يزعجها

fb/mashro3pdf

تصوّر خادمة تطبخ باثني عشر خاتم ألماس في أصابعها، كان منظراً ممتعاً، وربما احتاج لقليل من التملّق بالإطراء. ورغم أنها لمحت وضعية الأخرى أيضاً وتعرّفت عليها بداية كترس آمرة سجن قويمة، إلا أن جينيور كانت تأمل من جوابها الوقح بصراحة أن تُصدّعه. طعام حقيقي ازدردته بعد أيام من نفاية نظيفة أو سرقة عامة، عليها أن تدع هوائيّها يتدلّى. كما هو الآن، عند النوم ــ وحدها بصمت، في ظلمة تامة أخيراً ــ يغمرها حذر لذيذ. ببساطة، كان عدم وجود مرآة زينة بالغرفة حيث تنامين، يثير الرجفة. الحمّام الذي تتوقين إليه مؤجّل. قالت هيد الطقس بغيض ومحطة الباص بعيدة، فلماذا لا تقضي الليل وتجلب أغراضها غداً؟ فكرت جينيور أن تنقع نفسها منفردة في بانيو حقيقي مع قالب معطّر من صابون ملوّن. لكن الماء الذي سمعته يجري بأنابيب فوقها قلّل ضخّ الصنبور في بانيو الطابق الثاني لدرجة الحسرة. أرغمتها هيد، فقضت جينيور دقائق قليلة تنقّب بالمرحاض، حيث وجدت خوذة، علبة معجون طماطم، كيسي سكّر خشن، مرطبان جيرجنس لكريم اليد، علبة سردين، زجاجة حليب مليئة بمفاتيح، وحقيبتي سفر مغلقتين. تخلت عن محاولة قسر الأقفال على الفتح وخلعت ملابسها. بعد تدليك قدميها، انزلقت تحت الأغطية عليها أوساخ يومين كاملين.

هبط النوم سريعاً عليها حتى أحسّت في الحلم بشيء جديد غريب: أنها محمية. أثر باهت من الراحة، كأيامها الأولى

fb/mashro3pdf

بالإصلاحية والليالي مرعبة؛ ترقد الحيّات منتصبة فوق أقدام دقيقة ترتقب أن تتلمّسها بألسنتها الخضر الرفيعة فتتزل من الشجرة. حدث مرة أن وقف أحدهم هناك تحت الأفرع بعيداً عن الحيّات، ورغم أنها لم تستطع رؤيته، إلا أن وجوده هناك كتب له النجاة. وهكذا تحمّلت الكوابيس، دخلتها بمجرد لمحة وجه غريب. لم تره أبداً، واختفى بالنهاية مع الحيّات المنتصبات. لكن في عمق النوم هنا، بدا الآن أن بحثها عنه اختفى. ربما بفعل الوجه المعلق على فراش رئيستها الجديدة. رجل وسيم بذقن ج. آ. جو وابتسامة أكيدة ضمنت أياماً بلا نهاية من طعام لذيذ ساخن؛ عينان عطوفتان تعدان برفع فتاة على كتفه لتسرق تفاحاً من ذلك الفرع الأعلى.

الهوامش

---

(1) جران: تدليل فيدا، زوجة سندلر جيبون. (م)

(2) الجلبة: دواء مكسيكي مسهّل. (م)

(3) جرامب: تدليل سندلر جيبون. (م)

(4) الرو: مزيج من الطحين والسمن. (م)

(5) شيز: عربة بعجلات لجرّ الطعام. (م)

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

2

صديق

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

جهّزت فيدا رقعة الكيّ. لماذا قلّصت المستشفى خدمة الغسيل للجميع عدا "المسؤولين المباشرين" ـ أطباء، ممرضات، فنيّي المعامل ـ لم تفهم. البوابون، متداولو الأطعمة، بالإضافة إلى الإسعافات الأولية مثلها، تغسل الآن وتكوي ملابسهم الموحدة، تذكّرها بمعمل التعليب قبل أن يستأجرها بيل كوسيه بأول عمل يتطلّب منها ملابس محبوكة. بنطلون ضيق بالمستشفى طبعاً، لكنه كثيف البياض. طراز نسويّ غير شفاف، تفضله من تعمل وراء مكتب استعلامات فندق كوسيه. لكنه فستان جيد حقاً، جيد يصلح لكنيسة. دفع بيل كوسيه حقّ اثنين إضافيين لتغيّر فيهما، فلن يحتار الضيوف من ارتداء زيّ موحد. فكّرت فيدا أنه سيقتطع ثمنه من أجرها، لكنه لم. سعادته بسعادة الآخرين. اعتاد

fb/mashro3pdf

قول "أفضل وقت طيب". شعار المنتجع الذي يَعِد به الضيوف جميعاً. "أفضل وقت طيب، هذا هو العُرف". سرت ذكريات فيدا عن العمل هناك ممزوجة بتذكارات طفولتها في الفندق حيث كان المشاهير يواصلون العودة. حتى اضطرابات الخدمة أو حوادث الغرق لم تثنهم عن تمديد إقامتهم أو العودة تالي الأعوام. كله بسبب إشراقات بيل كوسيه وكرمه الواسع المعهود عنه. ضحكته، ذراعه الحاضنة، معرفته الغريزية باحتياجات ضيوفه، مرونته عند كل خلافٍ أو غلطة، كأن يسمع جدلاً مصادفة بين الهيئة أو من زوجة متغطرسة سخيفة ـ جاهلة كصحن ـ إلى سرقة تافهة أو مروحة سقف مكسورة. كان سحر بيل كوسيه وطعام مطعمه يظفر دائماً. حين تتأرجح لمبات قاعة الرقص من هواء البحر؛ تدفئ الفرقة المكان وتظهر النساء لابسات المموّج والشفّاف على إثرهن عطر ياسمين سهرتهن؛ يزيح الرجال بأحذيتهم الجميلة وبنطلوناتهم الكتانية المنشّاة كاملاً المقاعد للنساء ليجلسوا ركبةً بركبة إلى الموائد الصغيرة، يمدّون أيديهم بخُدعة مملّحة مفقودة أو لتبادل كلمات غير سائغة قريباً من العامة غير مبالين. يتمايل الشركاء تحت النجوم ولا يعنيهم أن تطول فترات الاستراحة أكثر مما ينبغي فنسيم البحر يسعدهم ألطف من أنخابهم. بعد المساء ـ حين يطلق من لا يلعبون الورق أكاذيبهم الكبيرة بالبار؛ ينسلّ أزواج خارجين بجُنح الظلام ـ يؤدي من تبقّى من الراقصين

fb/mashro3pdf

خطوات بأسماء شائنة، أسماء أطلقها العازفون ليسيطروا، يحيروا، ويثيروا مستمعيهم جميعاً في الآن نفسه.

تعتقد فيدا أنها امرأة عمليّة بإحساس عال كالقلب، أكثر حذراً لكونها حالمة. رغم ذلك استخلصت الطلاوة فقط طيلة تلك السنين التسع، بادئة بعد ميلاد دوللي، طفلتها الوحيدة، في 1962. ظلّ التدهور أثناء الرحلة إلى أن حُفظ غير مرئيّ ثم استحال إخفاؤه. مات بيل كوسيه وجاهدت فتيات كوسيه بعد قبره. لكن إل استعادت نظامه من جديد، كما كانت دائماً. هسهست بكلمتين في وجوههن فجمّدتهن. أغلقت كرستين مدينتها اللولبية؛ لقطت هيد قبعتها المضحكة وانتقلت للجانب الآخر من المقبرة. وقفتا هناك، واحدة يمين وأخرى يسار تابوت بيل كوسيه، وجهان متباينان، كالعسل من السِناج، لكن تبدوان متطابقتين. البغض يفعلها. يُدمّر كل شيء عدا نفسه، ومهما تشكُ فسيبدو وجهك خصماً. بعدها لم يرتَب أحدٌ في أن **أفضل وقت طيب** قد مات كصاحبه. لو كانت لدى هيد فكرة عن إعادة المكان لسابق عهده وقت أن كانت فيدا فتاة آب بيتش الصغيرة، لتحرّرت بسرعة من وهمه حين خرجت إل وقتئذ. رفعت زهرة سوسن مما تناثر بالجنازة ولم تضع قدماً بعدها في الفندق ثانية ـ لم تحزم حتى متاعها، لم تأخذ قبعة طبخها وحذاءها الأكسفورد الأبيض. وطيلة أيام الآحاد كان حذاء بكعب ارتفاعه بوصتان يمضي من المقبرة بطول الطريق إلى آب بيتش، تدّعي أنها تقيم بكوخ أمها، ثم انتقلت. فعلت هيد المطلوب

fb/mashro3pdf

وما بمقدورها ليظلّ المكان مفتوحاً، لكن فارس اسطوانات[1] بعمر السادسة عشرة أصبح يتواءم أكثر مع المواطنين. لم يعد مع أحد مال حقيقيّ للسفر مسافة ليسمع أو يحجز غرفة لينصت لألحان الروك دو واب فهي عنده بالبيت؛ قد ينشد صالة رقص في الهواء الطلق بزحام مراهقين يؤدون رقصات لم يسمعوا بها ولا عرفوها على أي حال. خاصة مع الوجبات والخدمة، مثل ملاءة الكتّان بسرير أنيق لا يلحظه أو يقدّره الزحام الجديد.

دسّت فيدا أنف المكواة حول الأزرار، يحبطها من جديد حيّز المعدن الضيق الذي ظنّ أحد المغفلين أنه يفي بالغرض. الأحمق نفسه ظنّ أن مكواة بوزن ثلاث أوقيات أفضل من أخرى ثقيلة. أخفّ، نعم، لكنها لا تكوي أي شيء يحتاج كيّاً، فقط ما تفردينه بيديك الدافئتين: تي شيرت، مناشف، أغطية مخدات رخيصة. وماذا تفعل بزيّ موحّد قطنيّ باثني عشر زراً، طوقَي كُمّين، أربعة جيوب، وياقة لم تكن سوى امتداد بليد لطيّات الصدر. أهذا ما توصلوا إليه؟ عرفت فيدا أنها محظوظة بنوالها وظيفة المستشفى. كان أجرها هزيلاً كالعادة، إلا أنه ساعدها في ملء منزلها بأصوات أجراس معاونة لطيفة: نهاية توقيت فرن ميكرويف، دورة غسيل، مجفّف دوّار؛ لكن عليك الحذر، من دخان بمكان والهاتف مُعلّق. لمعة أنوار بعد تخمّر قهوة، خبز مُحمّص، ومكواة ساخنة. لكن لم يمنعها حظّها الوافر بوظيفتها الحالية من تفضيل ما انقضت منذ وقت طويل، فقد كانت تقبض

fb/mashro3pdf

فيها أقلّ من كلّ شيء عدا الرضا. منتجع كوسيه أكبر من مجرد ملعب؛ كان مدرسة وملاذاً لنقاش الناس عن الموت بالمدن، القتل في مسيسبي، وما خططوا لفعله غير الأسى والتحديق بأطفالهم. ثم شرعت الموسيقى، تقنعهم به إجمالاً وأخيراً.

رفضت التخلّي، وفعلت هيد. سمحت لها بالضمان، لكنه مثل امرأة تمنح المناشف والملاءات الممزّقة لعائلة تغرق، بدلاً من المال. لعدة سنوات قبل موت كوسيه فعلياً، حينما طعن عمراً وفقد اهتمامه بكلّ شيء عدا ملهى نايت كول ومطعم ويلد تركي، كانت هيد تستعرض المكان كنسخة جاهلة من سكارليت أوهارا[2] ـ ترفض النصح، تفصل الموالين، تستأجر العابثين، وتحارب ماي، كانت تهدّد حتى الهواء المسموح لها. لم تستطع فصل بنت زوجها وكوسيه حيّ، حتى لو كان يقضي معظم أيامه بالصيد ومعظم لياليه منسجماً مع رفاق سكارى مترنحين. توصلت لهذا: رجل آمر جميل يستسلم لنساءٍ إقطاعيات، يسمح لهنّ بتدمير كلّ ما بناه. تساءلت فيدا، كيف نجحن. كيف سمحن لأنماط عصابات، عمال يومية، حثالة معمل التعليب، ومهاجرين بسخرة للعمل هناك، لافتين إليهم أنظار الشرطة دائماً كلاحقة ذيل؟ تريد فيدا أن تلوم بشكل متزايد الزبائن المهتاجين المُهوّسين بسرقة ماي ـ يعلم الله ما أخذوه لبيوتهم عمال اليومية ـ لكن ماي كانت تسرق أيضاً حتى قبل استئجار فيدا وطويلاً قبل تغيّر نوعية الضيوف. وقفت يومها الثاني بالعمل خلف المكتب، تراقبها ماي

fb/mashro3pdf

كالعادة. تراجع عائلة بأربعة أفراد من أوهايو حسابها. فتشت فيدا بدفتر التسجيل. التاريخ، اللقب، ورقم الغرفة مطبوع بدقة على اليسار، مسافة على اليمين لتوقيع الضيف. توصلت فيدا إلى حامل القلم المرمريّ لكن لم تجد أقلاماً هناك ولا بمكان قريب. ارتبكت، نقّبت بالدرج. ووصلت هيد وهي تعطي الأب قلم رصاص.

"ما هذا؟ تعطينه قلم رصاص؟"

"القلم ضائع، يا سيدتي".

"لا يمكن. انظري مرة أخرى".

"نظرتُ. ليس هنا".

"نظرتِ بمحفظة يدك؟"

"عفواً؟"

"جيب معطفك، ربما؟" غمزت هيد للضيوف تصطنع ابتسامة إذعان، كأنهم يفهمون حدود معونة غير ملائمة. كانت فيدا بالسابعة عشرة وأماً جديدة. المركز الذي منحها إياه السيد كوسيه عالٍ نسبياً، وهي تأمل دائماً في قفزة خارج حوض السمك حيث اعتادت العمل وزوجها أيضاً. جفّ حلقها وارتجفت أصابعها بموازاة هيد. انتظمت دموعها لتخزيها أكثر حين وصلت النجدة، تلبس قبعة رئيسة الطباخين البيضاء المنتفخة. مسكت القلم الخزّان في يدها؛ ألصقته بالحامل ودارت إلى هيد، قائلة "ماي. كما تعرفين".

fb/mashro3pdf

علمت فيدا أن أمامها الكثير لتعلمه عن تسجيل الضيوف وتسلّم الأموال. وكأي مكان عمل، هناك تحالفات قديمة؛ معارك مبهمة وانتصارات مُشجية. كان السيد كوسيه ملكياً؛ وقبعة رئيسة الطباخين تليق بكهنوت إل. الباقي كلهن ــ هيد، فيدا، ماي، النُدل، المنظّفون ــ كانوا دائرة موظفي البلاط الجاهدين لنيل ابتسامة الأمير.

اندهشت عند مائدة العشاء بتذكّر الإشاعة القديمة عن وفاة كوسيه. إشاعة كريهة نبتت من حسد، ودّت لو تعتقد فيما قاله الطبيب: أزمة قلبية. أو ما قالته إل: غمّ. أو حتى ما قالته ماي: باص المدرسة. طبعاً لا ما قاله أعداؤه: زُهريَ من شذوذ. قال سندلر واحد وثمانون عاماً كافية؛ كان بيل كوسيه متعباً ببسلطة. لكن فيدا رأت سحابة الماء قبل أن يجرعها فلم يستطع تناولها إلى صدره بل حتى معدته فقط. انفجر القلب. رغم أن من أرادوا موته ــ كرستين، زوج أو اثنان، وعدد من رجال الأعمال البيض ــ لم يكونوا قربه. إل فقط، ونادل آخر. إلهي، يا لها من فوضى. جسد ميت يتحرك، تقلبات محموم ضد النوم. ثم هيد تصرخ كمعتوهة. ماي تجري لمنزل شارع مونارش وتغلق على نفسها بمرحاض. لولا إل، لما كان للمقاطعة دور بالجنازة المهيبة التي يستحقها. حتى حين طردتها كرستين وهيد بالنهاية، سارت إل بين الحيّتين السامّتين الصارمتين، أجبرتهما على عضّ النواجذ. بين التقارير كلها، كانتا تساهمان وهما ترقبان الآخر

fb/mashro3pdf

يموت. وعلى الفتاة التي دلّها سندلر لمنزلهما أن تنضمّ إلى هيد. فهي الوحيدة من عائلة حيّة. مع خمسة أخوة وثلاث أخوات يستطعن إنجاب خمسين من بنات أخوة وأخوات. قد لا تكون قريبة لهم إطلاقاً. قررت فيدا أن تطلب من رومن الاستكشاف ـ بتكتم إن استطاع؛ أو مباشرة، رغم الأمل الضعيف بردّ موثوق من جانبه. فالولد غافل هذه الأيام، متطوّح المزاج كثيراً. سيرحّبُ بإجازة من أحد والديه الآن، قبل الدخول بمتاعب لن تستطيع ولا سندلر التكيّف معها. لم تكن يداه على هذا النحو من عمله بالفناء. هل ضرب شخصاً. بشدة؟!.

وراء المنزل تحت نور مصباح وحيد، يضحك سندلر في خفوت. تمضي فيدا بلعبتها. صعقته ساقا الفتاة. في ريح ثلجية، حيث لا يرى أحد إوزة ـ كانت مجرد جلد ناعم صلب يشي بعضل قويّ تحته. ساقا راقصة: طويلتان، تشقيان بالراحة، تشغفان بالرفع، بالبسط، بلفّ نفسيهما حولك. كان لابد أن يخجل، فالضحكة الخافتة تكبر إلى ضحكة مخنوقة: جدّ مخلص فوق الخمسين يكرّس نفسه لزوجته، يقهقه كموقّت غلاية بسرداب، سعيداً بهياجه من منظر غير متوقّع لفخذين شابين. يعرف أن فظاظته معها ردّ فعلٍ للمشاعر التي أثارتها الفتاة وظنّ بها تعرف أيضاً.

حدّق سندلر بالموقّت، متسائلاً إن كانت درجة 80 ستنتج درجة 70 بغرفة نومه، لأن درجة 70 الحالية تعادل درجة 60

fb/mashro3pdf

هناك. تأوّه من هذه المشكلة: فعمل الفرن المطلوب نادراً بهذا الطقس يبدو مشوشاً كحاله. وتأوّه من جديد بتذكره الفتاة قصيرة الملابس فلابد أنها قدمت من أقصى الشمال المماثل لدرجة 30 هنا. لم يتخيل ما تريده الفتاة من أي من نساء كوسيه. سيسأل رومن لتمحيص الأمر. أو لن يسال. فسؤال حفيده للنجستس سيجلب عنصراً خاطئاً من عدم الثقة بعلاقة يُعوز هنا الانسجام فعلياً. يريد رومن مستقيماً — لا متسللاً حول نساء بمهام عابثة. سيُقوّض هذا سلطته الأخلاقية. لو حدث وأبلغ الولد بشيء، فسيسعده سماعه من الجميع. فال كوسيه موضوع ساخن دائماً. تبقّع مجريات الحوادث بهذه المناطق — أوشنسايد، سوكر باي، آب بينش، سيلك — كلّ حوار حولهم منذ خمسين عاماً. صورة طبيعية، فالمنتجع يتأثر بها جميعاً. يمدّهم بالعمل فضلاً عن السمك وأكوام سرطان البحر؛ يجذب الدخلاء المستعدين لسنين من الدغدغة والكلام الهائج. وإلا فلن يروا غير أنفسهم. وكان انسحاب هذه الطبقة من السياح عصيباً على الجميع، كموجة منسحبة تُخلف محاراً ومخطوطاً بعشب البحر، مبعثراً وعويص القراءة، خلفه.

هناك مطارح باردة بمنزل أوشنسايد، أماكن لا تدخلها الحرارة أبداً. ومطارح ساخنة أيضاً. وظلّ عمله التافه بالترموستات وتدفئة القاعدة والمرشّحات هكذا — دون جدوى. بيته كبيوت جيرانه، مبنيّ كإيماءة: مسامير بوصتان بدلاً من أربع، سقف

fb/mashro3pdf

خفيف الوزن مضمون عشر سنوات بدلاً من ثلاثين، ألواح بسُمك واحد سريعة العفن. مع كلّ عام يمرّ يُغرم سندلر أكثر بـــالجيران الذي انتقل وفيدا بعيداً عنهم. كانت على حق في الرحيل عـن آب بيتش حين فعلاها، قبل الجفاف الذي انتهى بفيضان، لم تمنحـــــه فرصة أخرى ليفكر. لكنه يشتاق الآن، كلّ يوم تقريباً، لليلة شديدة البرد بطقطقة النيران في وجاق ناتئ البطن هزيل، لرائحة حريق بخشب طافٍ نظيف. لم يستطع نسيان الصورة التـــي تستحيل عليها أكواخ آب بيتش بايعاز من القمـــر . هنـــا، بـــهذا السكن الحكوميّ المطوّر والمُتّفق عليه مع ضوء كاشـــف مـــن صنـــع إنسان، لم يعد للقمر جدوى. ظنّ المخطّطون أن السود ســيفعلون أشياء أقلّ شراً لو ضاعفوا لهم لمبات الشوارع كأي مكان آخــر. فقط بأحياء الجيران الرائعة والمقاطعة بأسرها يثق النـــاس فـــي الظلّ. وهكذا صار القمر حتى وهو بدر منـــير، بالنســبة إلـــى سندلر، مثل بطارية بعيدة لصباد كريم، لا دثـــاراً مـــن ذهـــب مطروق فُرش يوماً على منزل طفولته المتداعي للسقوط، عارضاً مكر العالم، فيجعلنا نظنّ ملكيته. كان يرغب في قمره من جديـــد ليطلق إصبعه الذهبية الجامحة فيجتاز الأمواج مشيراً إليـــهم. لا يهمّ أين يقف على الشطّ فقد وجدته الإصبع الذهبية بالضبط؛ غير خافقة وموجّهة كلمسة أمّ، عرفته. ورغم فهمه أن ذلك هلّ مـــن حجر بارد غير قادر حتى على التكيّف، إلا أنه عرف أنه يشـــير إليه وحده لا غير. كفتاة تذروها الرياح تميّزه شخصياً، تتفجـــر

fb/mashro3pdf

عن عصف المساء لتقف حائلاً بين ضوء جراج وغروب شمس، كمصباح خلفيّ، كشافة نور، تنتظر إليه فقط.

كان على بيل كوسيه فعل المزيد. دعاها لتدفئ نفسها، عرض أن يوصلها بسيارة أين تريد، بدلاً من النباح عليها متشككاً بانضباطها. نجح كوسيه؛ كما يفعل دائماً على وجه التقريب. تتطلع إليه فيدا، مثل الأخريات، في ريبة بعيون متيّمة، وتكلمه بابتسامات غافرة. كان فخوراً بدهائه، ماله، كمثال أعدّه لينخسهم بالتفكير فيه بصبر وبراعة، جعلهم يظنونه هكذا. لكن سندلر كان يصيد معه، لم يدّع أنه يعرف قلبه أو عقله أو محفظته، لكنه عرف عاداته.

يلوذان بالصيد في خليج صغير، لا داخل بحر عميق كما يُتوقّع.

دهش سندلر من دعوته، فهو يشارك كوسيه عادة بقاربه مع خاصّة الضيوف، عمدة سيلك غالباً ـ فرد من عائلة سمّى بلدة كاملة على اسمه ومنح شوارعها أسماء أفلام ملحميّة. اقترب منه كوسيه بالطريق حيث يركن سندلر منتظراً فيدا. صفّ سيارته الإمبالا الزرقاء الباهتة مع موقف سندلر وقال "عندك شغل غداً، يا سندلر؟"

"لا، سيدي".

"لا تعمل؟"

"لا، سيدي. معمل التعليب مُغلق الأحد".

fb/mashro3pdf

"آه، صحيح".

"تحتاجني لشيء؟".

زمّ كوسيه شفتيه كمن يُعيد تخمين دعوته، ثـــم دار بوجهــه بعيداً.

تأمل سندلر شكله، كان كصورة عملة النيكل لكن دون هندمــة أو إكليل. لا يزال وسيماً، في الرابعة والسبعين عندئذ؛ وســـندلر بالثانية والعشرين. كوسيه متزوج منذ ما يزيد عن عشرين عاماً؛ سندلر متزوج منذ أقلّ من ثلاثة أعوام. كوسيه لديه مال؛ ســـندلر يكسب دولاراً وسبعين سنتاً بالساعة. يراهن إن كان هناك رجلان حظّهما في الكلام أقلّ منهما.

توصّل كوسيه لقرار، أن يواجه سندلر.

"أنوي الصيد قليلاً. مع أول نور. فكّر لو تحبّ الانضمام لي".

كان سندلر يصطاد كلّ يوم، فلم يستطع الربط بيـــن الصيــد والرياضة. فالأخيرة مجرد تصويب أكثر منها صيـــداً، لكـــن لا طريقة أخرى لشغل النهاية. لم يعجب ذلك فيدا، خاصـــة وأنـــها سمعت أن قارب كوسيه سريع.

"لا تُحضر شيئاً. عندي كله".

فكّر سندلر، قُل ذلك مرة أخرى.

قابله الرابعة صباحاً عند رصيف الجسر، انطلقا على الفـــور صامتين. لا حديث عن طقس أو تكهنات بوجهة ريح. بدا كوسيه أقل حماساً من ليلة البارحة. أنزل سندلر البدّال بجدّية التعامل مع

fb/mashro3pdf

طوّافة صغيرة، غيّر وجهته للبحر ثم إلى الشط نحو كهف لم يكن سندلر يعرفه. ربما لغرابة كونهما وحيدين معاً. لم يكن كوسيه يختلط بالأهالي عموماً، غير أننا قد نقول: كان يوظّفهم، يمزح معهم، ينقذهم من مواقف عصيبة، لكن في غير نزهات الكنيسة، لا يرحّب بأحد على موائد الفندق أو بقاعة الرقص. لو عدنا للأربعينيات، لوجدنا أن السعر كان يبعد معظم الأهالي المجاورين، وحتى حين تستطيع عائلة جمع المال الكافي للاحتفال بزفاف هناك، يرفضهم. لطيفاً. متأسياً. قطعيّاً. الفندق محجوز. ويشوب ذلك الرفضَ غير المشمئز بعضُ الضغينة، لكن في تلك الأيام لم يكن معظمهم يهتم، يظنونه مبرّراً. فلا ملابس عندهم ولا تمويل، ولا يتمنون أن يُحرجهم من يُحرجون. كان يكفي سندلر وهو ولدٌ أن يشاهد الزوار، يُعجب بسياراتهم ونوعية متاعهم؛ ينصت للموسيقى الهائمة والرقص معها بالعتمة، العتمة الداكنة ما بين منازلهم، في الظلال وراء عتبات نوافذهم. يكفيه معرفة أن فندق ومنتجع بيل كوسيه هناك. وإلا، فكيف يفسّر الراحة المتاحة بأي مكان آخر في المقاطعة أو الولاية. يثمّن ذلك عمال معمل التعليب وعائلات الصيادين. وهكذا يرتحل خدم البيوت، الغسّالات، قاطفو الفاكهة، معلمو المدارس المتداعية إلى سيلك؛ حتى الوكلاء الزائرون، فلا يُقيمون تجمّعات بخزين كحول أو موسيقى راقصة ــ كله محسوس كلحظة تأهّل، شوق يستحيل إلى

fb/mashro3pdf

انتماء جوار المنتجع الناجح الخرافي الذي يديره أحدهم. حكاية خرافية تعيش حتى بعد اعتماد الفندق على من أقصاهم يوماً.

قال كوسيه "بونيتا، عُد هنا. أظنّ المحطة بعيدة عليهم". كان يشعشع وهو يجذب ترمس القهوة، واكتشف سندلر أنها مخلوطة بخمر جعلت طعم القهوة فاغماً أكثر. هكذا الخدعة. تعمقوا حالياً وسط خليج كاسيوس كلاي، وهو ما لطّف جدلهما عن ميدجر ايفرس.

الحصيلة بائسة، مجرد مرح مازح حتى الغروب، حين راح الكحول واستحال الكلام كئيباً. نظر كوسيه لباقي الديدان الحية في بطن سمكة سلّور، وقال "لو قتلت المفترسة، فسينهشك الضعاف حياً".

ردّ سندلر "كل حيّ له مكانته، يا سيد كوسيه".

"صحيح. كل حيّ. عدا النساء. فكلهن بمكانة ملعونة".

ضحك سندلر.

واصل كوسيه "في السرير، المطبخ، الفناء، على مائدتك، تحت قدميك، فوق ظهرك".

اقترح سندلر "ليس ذلك كله سيئاً".

"لا. لا. عظيم. عظيم".

"إذن لمَ لا تبتسم؟"

fb/mashro3pdf

تحوّل بيل كوسيه للنظر إلى سندلر. فرغم لمعان عينيه من الشراب، إلا أنهما تشعّان بالألم كزجاج مشروخ. سأل "ماذا يقولون عني؟"، وهو يرشف من التُرمُس.

"هم؟"

"كلكم. أنت تعرف. من وراء ظهري".

"سيد كوسيه، أنت رجل عالي الاحترام".

تنهّد كوسيه كأن الإجابة خيّبت أمله. قال "اللعنة لو كنت هكذا، واللعنة لو كنت غير هكذا". ثم تحوّل فجأة لفكرة أن من يستمتع هم الأطفال والسكارى المسرفون، "كان ابني، بيلي، مثل عمرك. أقصد، حين مات".

"صحيح؟"

"كنا نقضي أوقاتاً طيبة. أوقات طيبة. صديقان أكثر من أب وابن.حين فقدته كأن شخصاً مدّ يده من القبر فانتزعه نكاية فيّ".

"شخص؟"

"أقصد شيئاً".

"كيف مات؟"

"بالمرض الملعون الساري. ذات الرئة، كما يقولون. لا أعراض. سعلة أو اثنتان ثم انطفأ النور". قطّب ما بين عينيه ناظراً بالماء كأن اللغز يطفو تحته. "فقدته في لحظة. وأخذ مني وقتاً طويلاً حتى شُفيت".

fb/mashro3pdf

"لكن فعلتها. شُفيت".

ردّ، مبتسماً "شُفيت. جاءت امرأة جميلة وانقشعت السحب".

"انظر هناك. وأنت تشتكي".

"أنت محقّ. كنت ولا أزال متعلقا به، لم أتجشّم أمر معرفته. كنت أتساءل لماذا لقط امرأة مثل ماي ليتزوجها. ربما كان شخصاً آخر وأنا جعلته ظلي. أظنني لم أعد أفهم أحداً الآن، فلماذا يجب على أحد أن يفهمني؟"

قال سندلر، متسائلا "معرفة الناس صعبة. كل ما تستطيع أن ترمي إليه هو ما يفعلونه"، هل يريد قول إنه مستوحش، أساء الفهم؟ يقلق بشأن ولد مات منذ بضعة وعشرين عاماً؟ أيقلق هذا الرجل، مع أصدقاء أكثر من العسل والنحل، على سمعته؟ مع نساء يكافحن بكل ما أوتين من طاقة للفت انتباهه، قد تعتقد أنه كاهن. يئن من التحمّل؟ وصمّم سندلر على القيام بضربة لطيفة دفعت كوسيه إلى مقام البكاء. كان عليه فعل هذا، ما دام بصحبة أحمق. أن يبلع الصخر ساخناً أسهل عليه من تحمّل شكاوى رجل ثري. صرف سندلر انتباهه، مهاناً بغموض، إلى علبة طُعم السمك. لو انتظر طويلاً، فقد يثب كوسيه إلى نقطة أخرى. فعلها عموماً، بعد ترنيم عدد من لوازم أغنية بلاترس.

"تعرف أن كل قوانين هذه البلدة قد سُنّت لتُزيد تخلّفنا؟"

رفع سندلر بصره مفكراً، من أين جاء بذلك؟ ضحك. "ليس صحيحاً؟"

fb/mashro3pdf

"آه، لكنه هكذا".

"ماذا عن..." لكن سندلر لم يتذكر أية قوانين عن شيء عدا القتل، ولن يُجدي ذلك قضيته. فالجميع يعرفون من ذهب إلى السجن ومن لم يذهب. القاتل الأسود قاتل؛ القاتل الأبيض مجرد تعس. أحسّ أن معظم القوانين عن المال لا اللون، هكذا قال.

ردّ كوسيه بغمزة بطيئة. قال "فكّر. الزنجيّ مضمون من الدرجة الأولى، مصاحب عتيد، لا يأمل في جحيم قرض بنكيّ. فكّر في ذلك".

لم يُرد ذلك سندلر. فقد كان زواجه طازجاً، وابنته جديدة. فبدا كل ما عرفه بالدرجة الأولى؛ ودوللي كانت كلّ ما يأمل فيه.

تلك كانت أولى رحلات صيدهما الكثيرة، سراً. أقنع كوسيه أخيراً سندلر بالكفّ عن تنظيف سرطان البحر بمعمل التعليب. سيضع المزيد بجيبه من بقشيش موائد الفندق. حاول سندلر عدة أشهر، لكن في 1966، مع حوادث الشغب في كلّ ما تذكُر اسمه من المدن الكبرى، عرض عليه مدير معمل التعليب وظيفةَ مشرف، وكان يأمل من هذه اللفتة أن تثبط عزم أي قلاقل قد تؤثر على قوّة العمل السوداء. ونجح. أحسّ كوسيه بسهولة الصداقة بينه وبين كبير عمال عن أن تكون مع أحد من مجرد نادليه. لكن كلما زادت معرفة سندلر بالرجل، أحسّ برغبة في المزيد. تغزو العاطفة أحياناً خيبة الأمل؛ ويكره أحياناً أخرى غلبة التعاطف. مثلما أخبره كوسيه مرة قصة، كيف استخدمه أبوه

fb/mashro3pdf

وهو صغير ليلعب بفناء جارٍ فيبلغ عمن يخرج من الباب الخلفيّ. يرسله كلّ فجرٍ ليراقب. انسلّ رجل يوماً فأبلغ عنه كوسيه والده. فرآه كوسيه تلك الظهيرة مسحوباً بالشارع خلف حافلة بأربعة جياد.

سأله سندلر مستفهماً "أساعدت في القبض على لصّ، قاتل؟"

"آه".

"جيد منك".

"جرت حزمة أطفال وراء الحافلة، وهي تصرخ. أحدهم فتاة صغيرة. مشعّثة رثة الملبس مثل لزاروس. عثرت بروث جواد فسقطت. وضحك الناس".

"ماذا فعلتَ؟"

"لا شيء. مطلقاً".

"كنتَ صغيراً".

"آه".

أثناء الكلام، تغيرت بسرعة عاطفة سندلر لحالة ارتباك حين تساءل إن كان كوسيه قد ضحك أيضاً. في أوقات أخرى كان يحسّ بكره فعليّ نحو الرجل، مثلما حدث حين رفض بيع أيّ قطعة أرض لأهالي المنطقة. انقسم الخلق إلى من يلومه أو يلوم زوجته لبيعها إلى صرّاف خزانة بوزارة الإسكان. جمعوا الكافي كوديعة، بمبيعات السمك المحمّر والخبز والنثريات والزكاة. خطّطوا لنوع من التعاونيات: أعمال تجارية صغيرة، هيد ستارت، مراكز ثقافية للفنون والحرف، فصول عن تاريخ السود

fb/mashro3pdf

والدفاعٍ عن النفس. في البداية عزم كوسيه، لكنه أوقف التعامل طويلاً حتى ترك القرار لأرملته. باعته كله قبل وضع شاهدة قبره. حين تحرّك سندلر وآخرون إلى أوشنسايد، كان مزدوج الرأي نحو كوسيه. ولم تثنه معرفته أو مراقبته عن تغيير رأيه؛ كان الأمر أكثر من درس. في البداية ظنّ كوسيه عابد دولار. هذا ما قاله الناس على الأقل، كانوا محقين رغم أنه كان ينفق أمواله بالتأكيد. بعد حوالي سنة من رحلات الصيد، بدأ سندلر يرى ثروة كوسيه لا كقدّوم يسدّده رجلٌ واقعيّ المزاج، بل أشبه بلعبة رجل عاطفيّ. يتصرّف الأثرياء كسمك القرش، لكن تسوقهم أسنان طفل حلوة. فتزدهر أشواق طفل صغير بمرج من أحلامِ البنات: هيام وإذعان ومرح طول الوقت. ظننت فيدا أن صديقاً قوياً كريماً كان يحدّق من بورتريه معلّق خلف نضد الاستعلامات. والسبب أنها لم تعرف من كان يتطلّع فيها.

صعد سندلر السلالم من البدروم. كان التقاعد المبكّر الذي أُجبر على اتخاذه فكرة جيدة حينئذ. وكان السير بالأسواق منتصف الليل يريح عقله دون إبطاء. يتساءلِ الآن إن كان هنالك تلف عقلي لم يعوّلِ عليه، فقد صار أكثر ثباتاً من الماضي ناهيك من اللحظة التي حلّ فيها. بدخوله المطبخ، رأى فيدا تطوِي الملابس وهي تدندن بموسيقى ريفية زنجية مع الراديو. ربما فكر في تينك العينين الزجاجيتين المشروختين الباديتين باللوحة، فمسك كتفيها، أدارها، حضنها ضاغطاً وهما يرقصان.

قد تكون دموعه الأقرب لدموع البنات أسوأ من سبب ذرفها. ربما نتيجة الضعف الذي عهده الآخرون فيه وحددوه حتى قبل

fb/mashro3pdf

غُلمته. قبل أن يغمر الذوبان صدره برؤية يديها، فانحنى على رباط الحذاء الأبيض الثلجيّ ما كان يعوقها. قد تكون القفازات الصغيرة المثبتة بالتواء على حبل الغسيل، علّقتها هناك مومس لا يعنيها ما يقوله الجيران. وراحة اليد لامعة بأظافر مقضومة تمنح اليدين داخل القفاز الصغير سمة نسوية جعلت رومن يظن أنها المومس نفسها ـ تلك التي لا تقيم وزناً لما يفكّر فيه الناس.

كان التالي بالصفّ. ومستعداً أيضاً، رغم اليدين الصغيرتين ومواء حلقها. وقف قرب لوحة الإعلان الرأسية المحروسة بخُوار ثيو ورأسه محنيّ نحو وجه الفتاة الذي دار للجدار مختفياً تحت شعر بضفائر غير مصفّفة. حزامه غير مزرّر، حدس ناضج، فكان على وشك أن يصبح رومن المعروف: مخادعاً خطيراً منحلاً. آخر مجموعة السبعة. ثلاثة غادروا حال انتهوا ـ صفعوا خمسة في طريقهم للخروج من غرفة النوم وعادوا إلى حيث المجموعة الهائجة. جلس فريدي وجمال على الأرض، هالكين لكنهما يراقبان مثل ثيو الذي كان أولهم ولم يستغرق غير ثوانٍ. لكنه أبطأ هذه المرة، وكان صهيله الصوت الوحيد فالفتاة لم تعد تموء. وقت انسحابه، طفحت الغرفة برائحة خضراوات وأعناب عفنة وطين مبلل. الصمت فحسب هو الطازج.

خطا رومن إلى الأمام ليحتلّ مكان ثيو، ثم راقب متسائلاً ويداه تنتقلان إلى اللوحة الرأسية. انحلّت العقدة التي تشبك رسغها الأيمن بمجرد لمسها فسقطت يدها على طرف السرير. لم

fb/mashro3pdf

تستخدمها مطلقاً ـ لا ضربت أو خدشت أو دفعت شعرها للوراء. فكّ رومن يدها الأخرى المعلقة بشرائط البروكيد. لفّها بالملاءة الراقدة عليها ثم رفعها لوضعية جلوس. لقط حذاءها، كان بكعب عالٍ وشريط جلديّ قرنفليّ متقاطع بمقدمه ـ لا يصلح لشيء عدا الرقص والاستعراض. سمع الضحك الزاعق ـ هل بالبداية ـ ثم النكات وأخيراً الغضب، لكنه أخرجها من هناك وسط زحام الرقص إلى الشرفة. تحضن الحذاء الذي سلّمها إياه، مرتجفة. لو كان سُكرهم أبكر، لما فعلوا المزيد. طرحت ريح باردة أنفاسهم لبعيد.

ظنّ اسمها فاي أو فاث ولم يكد ينطق حتى أدرك أنه لا يتحمّل منظرها. لو شكرته لخنقها. لحسن الحظ، لم تتفوه. بعينين مجمدتين على وسعهما، لبست حذاءها وفردت جونلتها. كان بالمنزل معطفاهما، سُترته الجلد الجديدة وأيّ شيء بالٍ ترتديه.

فُتح الباب؛ فخرجت فتاتان، واحدة تحمل معطفاً والأخرى تحضن محفظة.

"فاي الجميلة! ماذا حدث؟"

دار رومن ليذهب.

صاحتا فيها "ماذا حدث لكِ، يا فتاة؟" ثم فيه "ها، يا أنتَ! فعلتَ بها شيئاً؟"

واصل رومن سيره.

fb/mashro3pdf

"عُد هنا! هل ضايقك؟ من؟ من؟ انظري إلى شعرك! البسي معطفك. فاي الجميلة! قولي شيئاً، يا فتاة!".

سمع صراخهما واهتمامهما كضربات صِنَج مجهَدة، لكن دون منافسة مع نفخة البوق بما دعاه ثيو: أسوأ اسم كان هناك؛ كلمة واحدة ترجيعها محمول جواً، قد تنهيه بندقية منطلقة. وإلا فلا نهاية هناك ــ أبداً.

بالأيام الثلاثة الماضية ــ كان أضحوكة. وصداقته المكتسبة بسهولة ــ منذ اربعة أشهر الان ــ ضاعت. تحمّل نظرة أيٍّ من الستة الآخرين عدا فريدي، فقد كانت جسورة، بمثابة دعوة، ورغم أنه لم يحدّق من جديد أو صادف عينيه على الإطلاق، فقد نطق البوق باسمه. دونه اجتمعوا عند سور الحلقة؛ لم يكد يترك محل باتي لسندويتشات البرجر حتى جلس. حتى الفتيات العابثات شعرن بزيف رغبته، كملابسه الزائفة: قميص نصف كمّ أبيض، بنطلون مكوي؛ أربطة خفّه التي هندمها خطأ.

أول يوم بعد الحفل، لم ينكر عليه أحد الدخول، لكن لم يكن معه تصريح، وحين اعترضوا سبيله تسلّل من موضع فلم يكن أحد هناك بمكتب استقبال قاعة الرقص. أُسقط في أيديهم فتطلّعوا إليه. ارتدّ فأعاقوه ثم أرغى البوق قبل رؤية من نفخه. في النهاية أوقفوه وطردوه من القاعة. جلس رومن هناك لاهثاً، شغوفاً بالقتال لكنه عرف بأنه لو ردّ على المعاكسين والراقصين ونفخ البوق، فسيكون الأمر كمن يدافع عن الفتاة من جديد. لم يعرفها

fb/mashro3pdf

ولا يريد معرفتها. لو عاد للقتال، فلن يقاتل لأجله بل لأجلها، فاي الجميلة؛ ليوهم أن بينهما صلة ــ وإن خطأ. ورغم أنه كان معها مربوطين بفراش واحد؛ إلا أن سيقانهما انفتحت قسراً.

كان لوكاس براين أحد الأولاد البيض المحسودين لمهارتهم الواسعة، رفسوه وأطلقوا عليه النار وحده بطرف القاعة البعيد. نهض رومن وبدأ ينضمّ إليه، لكنه أدرك فوراً أن هناك كلمة أخرى بنفخة البوق. حدج لوكاس بنظرة، مغمغماً "أهلا".

اليوم الثاني كان بائساً، مستوحشاً أكثر. أحضر فريدي سترته التي تركها وقال "أهلاً، يا رجل. لا تُصدم"، لكنه لم يعلّق بالمزيد. بعد أن رأى صاحبتَي فاي الجميلة، من جاءتا راكضتين بمعطفها ومحفظتها، تلوحان إليه من نافذة باص المدرسة، بدأ يركب باص الرحلات. لكنه استعدّ لإزعاج السير مسافة ميلين من وإلى المحطة لتفادي احتمال رؤية فاي الجميلة نفسها. لم يجرؤ. ولا جرؤ غيره.

في اليوم الثالث ضربوه. الستة كلهم، ومنهم فريدي. كان ذكياً. ضربوه في كلّ مكان عدا وجهه، لأنه قد يضرّهم في حالة أبلغ عن أنف مكسور أو عين متورّمة؛ ويكفي أن تشير الفتاة بإصبع ضعيفة إليهم لو سُئلت. الستة كلهم. قاتل رومن جيداً؛ طرح بليداً أو اثنين، ركبة عميقة بين فخذين، مزّق قميصاً حتى أحكموا يديه خلف ظهره وحاولوا كسر أضلاعه وتفريغ معدته في الوقت نفسه. آخر ما حصل بدأ حين دارت سيارة ثم فرملت

fb/mashro3pdf

بصوت. تبعثر الجميع، بينهم رومن، فقد عثر بقدميه وابتعد ممسكاً معدته، خائفاً من نجاته أكثر من القيء على بنطلونه الجينز. ارتمى خلف شجرة سنط بالغابة عائداً من محل باتي. تأمل طبيخ جدته بالعشب، متسائلاً إن كان سيستطيع الحياة مع النسيان. لم يستفهم عن استهزاء ثيو أو اشمئزاز فريدي؛ فقد كان مشاركاً معهما، ولم يتفهم ما جعله يذوب تلك اللحظة ـ قلبه ينفجر كمضخة على كائن جريح كان منذ دقائق كالمهرجان يود لو قضمه. لو وجدها بالشارع لكان ردّ فعله هو هو، لكن مع الرفاق وباقي الحشد الذي وضعها هناك ـ اللعنة! ماذا استحثّه ليفكها، يغطيها، يا يسوع! يغطيها! يغطيها كلها! يُنهضها على قدميها للخروج من هناك؟ أكانت اليدان بقفازين صغيرين؟ أم ظهور الذكور العارية وهي تتشنج واحداً بعد آخر بعد آخر بعد آخر؟ رائحة الخضراوات المختلطة بصوت وامض صلب على الجانب الآخر من الباب؟ حين وضع ذراعه حولها ليقودها مبتعداً، انتصب منطوياً وهم يسيرون معاً خارجين في البرد. ماذا استحثّه لذلك؟ أو بالأحرى، من؟

لكنه يعرف قدر نفسه. كان رومن الحقيقي الذي خرّب شيئاً خطيراً، نحتوه حديثاً. بادر رومن المزيّف نحو سرير غريب، مخدوعاً من قبل رومن الحقيقي، الذي كان مسؤولاً هنا بفراشه، يرغمه أن يختبئ تحت مخدة بدموع فتاة مسفوحة. والبوق يزفر في رأسه.

fb/mashro3pdf

الهوامش

[1] فارس اسطوانات: معدّ لبرنامج موسيقيّ لا علاقة له بفن الموسيقى. (م)

[2] سكارليت اوهارا: بطلة رواية "ذهب مع الريح"، الكاتبة مرجريت ميتشل.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

3

غريب

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

السَتلمنت[1] كوكب بعيد عن واحد شارع مونارش. مــــهمل قليلاً، قطعة منبسطة، كمنحدر جبليّ تحتها وادٍ منـــذ الحــرب العالمية الأولى. لا يستخدم أحد اسمها ـــ لا مكتــب الــبريد أو إحصاء السكان. قوات الولاية تعرفه جيداً، وسمع به قليل مـــن العاملين في مكتب الإعانة القديم، لكن المستخدمين الجدد بمكتب المقاطعة للخدمة الاجتماعية لم يسمعوا به. من وقـــت لآخــر، يكون لمعلمي الحيّ العاشر تلاميذ من هناك، لكنهم لا يستعملون كلمة "ستلمنت". ويُطلق على أطفاله الغرباء غير المتعلمين لقـب "الريفيون". رغم أنهم تلاميذ عاديون حـــانقون مــن عــائلات زراعية مقبولة، وكان يلزم مستشاري التوجيه اختيار مصطلـح لطيف من الوجهة الاجتماعية للتعريف بــهؤلاء الأطفــال دون

fb/mashro3pdf

استفزاز عداء آبائهم، فيكتشفون المؤامرة. أثبت المصطلح نوعاً من الرضى، رغم أنه لم يظهر أيّ من آباء ستلمنت بطلب أو سماح أو ملاحظة أو استشارة أو شكوى. ولا تُردّ الكراسات أو الأشكال الموضوعة بأيدي أطفالهم غير المُصبّنة أو يُستجاب لها أبداً. جلس الريفيون في الفصل عدة أشهر، مشاركين بكتب النصوص، استعاروا ورقاً وأقلاماً، لكن صامتين عمداً كأنهم هناك لاختبار لا للتحصيل والتعلّم؛ للشهادة لا للتزوّد بمعلومات. كانوا هادئين في فصل الدراسة منطوين على أنفسهم، لأنهم بعيدون عن الاختيار جزئيا ولأنهم منبوذون بحذر من جانب أقرانهم. يُعرف الريفيون أنهم قساة وأشرار ــ يحاربون فجأة. شاع عنهم ذلك حتى نجح مدير مدرسة أواخر الخمسينيات في تحديد ثم زيارة منزل ريفي يُدعى آتيس ريك. سمل آتيس عين طفل بالملعب ولم يفهم أو يطع بيان الفصل من المدرسة الملصق بجيب قميصه. فكان يعود كلّ صباح ودم ضحيته الجافّ لا يزال على كمّيه. لا يُعرف الكثير عن زيارة هذا المسؤول ليطلب غياب آتيس الدائم ــ عدا تفصيلة واحدة حيوية. حين ترك مدير المدرسة أملاك ريك، كان عليه قطع الوادي كله على قدميه فلم يمهلوه أو يمنحوه فرصة للعودة بسيارته. فقلمت قوات الولاية بقطر سيارة الديسوتو إلى البلدة حيث لا سبب يجعل صاحبها يعود لاستردادها.

fb/mashro3pdf

لو سألت أحد الطاعنين بالسن الذين كانوا شباباً أثناء "البوار الاقتصادي"[(2)] والذين لا زالوا يطلقون على ذلك الجزء من المقاطعة اسم "الستلمنت"، لوصفوا لك تاريخ سكانها. ولأنه لا يؤخذ بآراء أهالي ستلمنت إلا نادراً، فهم يعيشون على هواهم: ملعونين متخلفين، متسامحين أيضاً ومنبوذين، خائفين. الطريقة نفسها التي كانوا عليها في 1912 حين هُجرت طاحونة القنّب ومن استطاع الرحيل رحل ومن لم يستطع (كالسود لأنهم يائسون، أو البيض لأنهم شُذّاذ آفاق) توانى، تزوج بعضهم الآخر، تعاشروا، وصمموا على الحياة يوماً بعد يوم. بنوا منازلهم من نفايات الآخرين، أو رمّموا أكواخ العمال المتخلّفة عن شركة القنّب: سقيفة هنا، غرفة هناك، إلى عنقود أكواخ من غرفتين صغيرتين وموقد، مترنحين على المنحدر أو قابعين بالوادي. استخدموا النهير وماء المطر، شربوا حليب أبقار أو جعة منزلية؛ أكلوا طرائد، بيضاً، نباتات محلية، ولو تم استئجارهم بحقل أو مطبخ، لأنفقوا ما يكسبونه على السكّر، الملح، زيت الطبخ، مياه غازية، القمح المجروش، الدقيق، الحبوب المجفّفة، الأرز. وإن لم يكن لديهم ما يكسبونه، سرقوا.

على النقيض من سكون اسمها، تلهج الستلمنت بالولاء والفجور، والجريمة الوحيدة هي الرحيل. جرت خيانة واحدة من فتاة أصابع قدميها مندمجة تُدعى جينيور. قصدت أمها، فيفيلن، أن تسمّيها باسمها. مرت أيام ثلاثة بعد ولادة صعبة قبل تمكنها من الجلوس يقظة وقتاً طويلاً يكفيها لاتخاذ قرار ـ خلال هذا

fb/mashro3pdf

الوقت أطلق والد الطفلة الجديدة عليها اسم "جينيور"، إما على اسمه ــ إيثان باين الابن ــ أو لشوقه الطويل، فرغم أن فيفيان فعلاً لديها أربعة صبيان، إلا أنه لم يتخذ أحدهم اسم ايثان. اختارت فيفيان مؤخراً اسماً للوليدة لم تستخدمه سوى مرة أو مرتين بعد عودة ايثان لمنزل والده. لكن "جينيور" لصق. ولم تكتسب الطفلة لقباً حتى دخلت الحيّ العاشر فاحتاجت لقباً. دمدمت "جينيور فيفيان"، وحين ابتسم المعلم من خطّها حكّت الفتاة كوعها، أدركت أنها ربما قالت "جين".

لا يشجّع أحد فتيات ستلمنت على الدراسة، لكن كلّ أخوال جينيور وأولاد عمومتها الذكور ونصف أخوتها قضوا وقتاً في الحيّ العاشر. على النقيض منهم، لم تـزُغ من المدرسة إلا نادراً. تحسّ في المنزل، دون مسؤولية من امرئ، أنها كأحد كلاب الستلمنت. نصف كلابها قوي، يهزهز بين سلاسل قصيرة وتجوال محرّر من الأغلال. بين المعارك والوجبات تنام موثقة بأشجار أو ملتفة قرب باب. متروكة بأدواتها، كلاب صيد هوند تلازم الرعاة، كلاب كولي(3) بأطواق ألمنيوم. حين ولدت جينيور 1975، كانت الكلاب من فصيلة بديعة عجيبة أصلية غريبة، تتعرّف فوراً إلى الخلق فيطلقون عليها كلاب ستلمنت ــ ماهرة في إبعاد الدخلاء، لكن أبرع صورها وقت الصيد.

كانت جينيور، بسنوات شوقها لأبيها، تُلحف في الرجاء دون شفقة أن تزوره.

fb/mashro3pdf

"ألا تملين؟" هذا كلّ ما قالته فيفيان، حتى ردّت ذات يوم "بالجيش. ذلك ما سمعته".

"متى يرجع؟"

"أوه، لم يكن ذا قيمة، يا صغيرتي. لا شيء هو. رُحي العبي الآن".

راحت، لكنها ظلت تفتش عن رجل طويل وسيم سماها على اسمه ليؤكد مشاعره نحوها. وعليها أن تنتظر.

ملّت جينيور أخيراً من الكلاب وأمها، كانت أسرع وأبرع من أخوتها، تخشى أخوالها وتكرهها زوجاتهم، رحبت بالحيّ العاشر في البداية لتهرب من الستلمنت، ثم من نفسها. كانت الريفية الأولى التي تتكلم بصراحة وتغرز نفسها في الواجب الدراسي المنزلي. كانت فتيات فصلها يتجنبنها والقليلات اللاتي حاولن نثر بذور الصداقة معها أُجبرن بسرعة على الخيار بين الريفية غير المهندمة بفستان واحد والفتيات الصغيرات الماكرات المنتقمات اللاتي يعرفن كيف يتصرفن. كانت جينيور تخسر كل مرة، لكنها تتصرف كأن النبذ انتصار لها، تبتسم حين ترى صديقتها المرتدّة تنسحب إلى قطيعها الأصلي. نجح ولد في مصاحبتها. ظنّ المعلّمون السبب هو ما كان يطعمها به من يوديل وكرات سنو من كيس غذائه، لأن غداء جينيور مجرد تفاحة أو ساندويتش خردل تدسّه بجيب سترة كبيرة عليها كأنها لامرأة. وظنّ التلاميذ أنه يلعب معها لعبة قذرة بمكان أسفل

fb/mashro3pdf

خندق بعد المدرسة ــ وأخبروه ذلك. لكنه كان ولداً أنوفاً، ابــن مدير مصنع التعبئة، يستطيع أن يستأجر ويفصـــل آبــاءهم ــ وأخبرهم ذلك.

اسمه بيتر بول فورتاس، عاش طيلة أحد شعر عاماً بكنية بي بي، وكبر متغطرساً غير ابهٍ لرأي شعبيّ. لم يهتم بيــتر بــول وجينيور أحدهما بجسم الاخر . أرادت جينيور معرفة كيفية تعبئة زجاجات الكولا وكبسها بأغطية. أراد بيتر بول معرفة مـــا إن كان صحيحاً وجود دببة بنيّة فوق الجبل أو عجول برائحة حليب تجذب الحيّات. كانا يتبادلان المعلومات كباعة مراهنـــات فـــي حلبة سباق، سيرة واثبة لنيل كبد الحقيقة. سألها يوماً إن كـــانت ملونة. فردّت جينيور إنها لا تعرف لكن ستستكشف من أجلـــه. قال لا يهم، فهو لا يستضيف مهذبين في منزلـــه عمومـــاً. لـــم يرغب بإيذاء مشاعرها. أومأت، سعيدة بكلمة جادة بديعة ناداها بها.

سرق من أجلها: قلم حبر جاف، جـــورب، بيريـــه أصفـــر لشعرها الممشط بالأصابع. حين أهدته بالكريسماس وليد صـــلّ الماء(4) في زجاجة وأهداها علبة كبيرة من الشمع، صعب عليـــه تحديد أيهما كان أكثر سعادة.

لكن صلّ الماء كان حيّة، عموماً، وقد تقتلهما.

كان أخوال جينيور مراهقين تافهين عقولهم مهانـــة بفـــراغ حياتهم، محيرين بين الوحشية والسبات. لم يصدقوا أن الثعـــلبين

fb/mashro3pdf

المعلبة في مرطبانات تصلح لدروس فصـــل، كمــا أخبرتـــهم جينيور حين سألوها "لأي شـــيء تحملينـــها، يـــا فتـــاة؟"، وإن صدقوها، فهو فعل عدوانيّ للغاية بالنسبة لهم. شـــيء يخـــص الستلمنت نقلوه إلى موقع فاشل يغمّ، لكن لم يعتبروه فاشلاً أبـــداً ــ بل انتصاراً لنور طبيعيّ فوق ظلمة مؤسسة. أو ربما فـــات الأوان على حيوان البوسوم[5]، أو لم يشارك أحدهم الآخريـــن البيرة. وأياً كان السبب، فقد استيقظ الأخوال صباح مـــا بعـد الكريسماس ينشدون المرح.

كانت جينيور نائمة، رأسها على مخدة "جيسوس ســـيفز"[6]، ملتفة ببطانية تعمل عمل المرتبة. المخدة هدية كريسماس مـــن زوجة خال حصلت عليها من صندوق نفايات أحدهم، وكـــانت تشجّعها على الأحلام. علبة الشمع المحتضنة بصدرها، تزيّـــن أحلامها. كان نومها ملوناً، فأيقظها أحد أخوالها بطرف حذائـــه أكثر من مرة على ظهرها. استفهم منها عـــن الثعبـــان ثانيـــة. انسحبت أحلام الشمع الملونة تدريجياً وتصوّرت جينيور ببـــطء ما يريدون، لم يدهشها أن يطلبوا منها أيّ شيء. لم يعرفوا سبب إيقادهم النار بمقعد سيارة بدلاً من نزعه. أو لماذا تعنيهم الحيّة. أرادوا إعادة صلّ الماء إلى بيته الأصلي.

انهالتْ التهديدات إن لم تمتثل: "سنحطّم مؤخرتك الصغـــيرة البديعة"، "نسلّمك إلى فوش". سمعت عن الأخير مرات من قبل، وقد يحدث هذا، أن يسلموها للعجوز الذي يهوى التجـــوال فـــي

fb/mashro3pdf

الوادي بأدوات خاصة في يده، وهو يرنّم تراتيل المديح، يخلعها من الأرض فلا تلحقها الأيدي ونحو الباب. طاردها الأخـــوال، لكنها أسرع. هرّت الكلاب المسلسلة؛ وانضمت إليها الســـائبة. في طريقها، رأت فيفيان تعود من المرحاض.

نادت "ما!".

صرخت فيفيان "اتركوها لحالها، يـــا فـئران الخيـل![7]". خطوات ركض قليلة قبل أن ينتهي بها التعب إلى رمي الحجارة دون جدوى على ظهور أخوتها الأصغر. "اتركوهـــا لحالـــها! ارجعوا هنا، أيها الظربان! انصاعوا لي، أحسن لكم!".

كانت الكلمات المتعجلة المخلصة، إن لم تكن متفائلة، بمثابـة راحة للفتاة الراكضة. راوغت جينيور حافية القدمين، متشـــبثة بعلبة شمع كبيرة، اختبأت من أخوالها، ونجحت فـــي تضليـل أخوالها العاوين وراءها. وجدت نفسها أمام حطّابين يسيل لعابهم عليها. أشجار جوز بمقاسات لم يرها أحد منـــذ العشـــرينيات. أشجار قيقب تتباهى بجذوع مقاسها ستة أو سبعة أذرع. جـراد، جوز أمريكي أرمد، شجر أرز أبيض، رماد. أشـــجار ســليمة تختلط بأخرى مريضة. قرنبيط أسود ضخم مصـــاب بعـدوى يتورم على بعضه. تبدو أشجار أخرى سليمة لكن تقلـب ريـح خفيفة ولعوب تيجانها. تتشقق فتسقط كضحايا انســـداد القلـب، كوجبة لون الذهب والنحاس تُصبّ عند الفجر.

fb/mashro3pdf

وصلت جينيور منهكة ثم ساكنة إلى حامل إعـــلان تضيئـــه الشمس، معلّق على مرساة فرجينيا. توقف العواء، فانتظرت، ثم صعدت إلى النبع الشمالي كي ترى من جانب الجبل ما تستطيع رؤيته من الوادي. لا أخوال على مرمى البصر . فاصل أشـجار فقط حيث يجرى جدول صغير خلفه طريق.

حين وصلت حافة الطريق كانت الشمس عاليـــة. لـم تكـن تعنيها جروح اللحم أو الغصينات المعشّشة في شعرها، لكنـــها أقامت حداداً على ألوان الشمع السبعة التي انكسرت بانطلاقـــها قبل أن تتمكن من استعمال أحدها. لم تحمها فيفيان من فوش أو الأخوال، فقررت أن تفتش عن منزل بيتر بول، تنتظـــره فـــي مكان قريب، و ـــ ماذا؟ آه، سيساعدها بشكل أو آخر. لكنها لـم ولن تسأله أن يعيد لها وليد صلّ الماء.

سارت على دربها، ولم تكد تذهب خمسين قدماً حتى قعقـــع خلفها ملء شاحنة من الأخوال. وطبعاً قفزت يساراً بـــدلاً مـــن اليمين، فاستبقوها هناك. ارتطم الحاجز الأمامي بجنبها وهرست العجلة الخلفية أصابع قدميها.

رحلة وعرة في قاع الشاحنة، إلى مكان. مهد فيفيـــان، فـــي فمها ويسكي وبأنفها كافور ـــ لم يوقظها شـــيء حتـــى نزلـــت سُقاطة الألم بدرجة لا تُحتمل. فتحت جينيور عينيها على حُمّـــى ووجع مدوخ لم تستطع معه ملء رئتيها بالهواء. جـــاء تنفـــس وراح بملء كُشتبان صغير. رقدت هناك يوماً بعد يوم، عـــاجزة في البداية ثم رفضت البكاء أو الحديث مع فيفيان التي أخبرتـــها

fb/mashro3pdf

بوجوب شكر أخوالها الذين وجدوها ممدّدة جنب الطريق، فتاتها الصغيرة جينيور مصدومة بسيارة، لا شك أنه كان ابـــن زنـــا متبجح من البلدة حيث لم يتوقف بعد دهس الفتاة الصغيرة ليرى إن ماتت أو على الأقلّ يوصلها إلى مكان.

راقبت جينيور بصمت أصابع قدميها تنتفخ، تحمرّ، تستحيل لأزرق ثم أسود ثم مرمري، ثم هذه الألوان مندمجة. راح الشمع واليد التي تقبض عليه تمسك الآن سكيناً تستعدّ لأجل فـــوش أو أي خال أو امرئ آخر يوقفها عن ارتكاب نسخة الستلمنت مـــن الجريمة: الرحيل، الخروج. تبتعد عمن طاردوها، سحقوا قدمها، كذبوا في ذلك، لقّبوها المحظوظة التي فضّلت رفقة ثعبان علـــى فتاة. ضَعُفت في عام واحد. بعد عامين تغذّت، تحمّمت، لبست، تقبّلت التربية، وازدهرت. وراء قضبان.

كانت جينيور في الحادية عشرة حين هربت وهامت أســابيع دون اهتمام بالمادة. ثم لوحظت فجأة حين سرقت دميـــة ج. آ. جو من محل "كل شيء بدولار"، أُخذت إلى الحجز ولم تعد منه، تم تحويلها إلى ملجأ حيث عضّت المرأة التـــي خلعتـــها منـــه، فأعيدت للإصلاحية وهناك رفضت إمدادهم بأية معلومات غـــير اسمها الأول. كتبوا "جينيور سميث"، وظلت "جينيور ســـميث" حتى أُعتقت فاستردّت اسمها الحقيقي مع ياء أُضيفت للّقب.

بعض تعليم الإصلاحية أكاديميّ، ومعظمه غير ذلـــك. كـــل منهما لشحذ البراعة المطلوبة لتأمين مكان بمنزل كبير خيـــاليّ بشارع مونارش حيث لا تذرع أيّ امرأة متّسقة الدهليز بنصـف

fb/mashro3pdf

النور أو تفتح أبواباً من أيّ زمان قديم لفحص المنظر؛ أو تعمد أصوات النوم من أجسام قريبة على تشعيب الهواء. مكان صحيح جعلها تعرف بكلّ وسيلة أنه ينتظرها منذ زمن. مجرد أن رأت بورتريه الغريب عرفت أنها عادت. حلمت به أول ليلة، ركبت على منكبيه في بستان من تفاح "جريني" الأخضر كان مثقلاً وكثيفاً على الأغصان.

كانت كرستين في الصباح التالي عند الإفطار – جريب فروت، بيض مقلي، برغل، خبز محمص، لحم خنزير – أقلّ عداءً لكن لا تزال حذرة. حاولت جينيور إسعادها باللمز الموح على هيد. هكذا قالت، أديم الأرض غير واضح فلا تُميز اتجاهاً. حدث ذلك حين أنهت طعامها وعادت إلى غرفة نوم هيد فأدركت أنها عرفت. لم تخطئها الهدية.

وقفت جينيور محرَجة في رداء هيد الأحمر عند النافذة ونظرت من جديد إلى الولد هناك، بينما تُنقّب هيد عن دواسة السرير. قبلها رأت كرستين تصوّب على الممر، فتخلف الولد بيده دلو مرتجفاً بالفناء. تراقبه الآن يمسح أنفه بظَهر رُسغه، ثم ينفّض الرواسب عن بنطلونه الجينز. ابتسمت جينيور. حين ابتسمت نادت عليها هيد بصوت عال.

"هاهو! وجدته!". أمسكت صورة بإطار فضيّ. "أحتفظ بالأشياء الثمينة بمكان أو آخر مغلقاً عليها ثم أنسى أحياناً أين".

fb/mashro3pdf

تركت جينيور النافذة، ركعت قرب دواسة السرير تحدّق بالصورة. زفاف. خمسة أشخاص. والعريس ينظر يمينه إلى امرأة تمسك وردة، تركّز بابتسامة جامدة في الكاميرا.

قالت جينيور، وهي تشير "تبدو كامرأة الطابق السفلي، يا كرستين".

قالت هيد "آه، ليست هي".

تمسك المرأة ذات الوردة ذراعه، كان ينظر إليها لكن ذراعه الأخرى تلتف حول الكتف العاري لعروسه الصغيرة. هيد مغمورة بفستان الزفاف الأكبر من المعتاد نازلاً عن كتفيها بينما تتدلّى من يدها أزهار برتقالية. يسار هيد رجل وسيم أملس المنظر يبتسم لامرأة على يساره، يداها المشتبكتان تؤكدان غياب الباقة.

سألت هيد "لا أبدو مختلفة كثيراً، صحيح؟"

"لماذا ينظر زوجك إليها لا إليك؟"

"يحاول أن يسعدها، كما أفترض. يبدو هكذا".

سألت جينيور "تلك إشبينتك؟[8]"، تشير للمرأة ذات القبضة المشتبكة. "لا يبدو عليها أنها سعيدة".

"لا. لم يكن زفافاً سعيداً. فـ بيل كوسيه مغرم بالزواج، كما تعرفين. أرادت نسوة كثيرات أن يتّخذن محلّي".

تفحصت جينيور الصورة من جديد. "من ذلك الآخر؟"

fb/mashro3pdf

"صديقنا المفضل. موسيقار مشهور جـــداً بزمانـــه. كنـــتِ صغيرة جداً فلم تعرفيه".

"هؤلاء من ستكتبين عنهم؟"

"نعم. آه، بعضهم. سأكتب معظمه عن بابـــا ـــ زوجـــي ـــ ناسه، والده. لا تتصوَّري مقدار نباهيهم، أنافتهم. حتى بـــالعودة إلى أيام العبودية "

هناك أكثر من سبب يجعل جينيور تكفّ عـــن الإنصـــات. أحدها تخمينها أن هيد لم تكن تودّ تسطير كتاب؛ تـــودّ الكـــلام فقط، لكن لماذا تُضطرّ لاستئجار من تتكلم معه، لم يرُق ذلـــك لبال جينيور بعد. الولد يرتجف بالخارج. أصاخت لتسمع صرير جرافته الواهن وهي تُحرّك الثلج نصف الذائب، تطرق الثلج.

"هل يعيش هنا؟"

"من؟"

"الصغير بالخارج".

"آه، ذلك ابن سندلر. يؤدي مَهمات، يرعـــى الفنـــاء. ولـــد لطيف".

"ما اسمه؟"

"رومن. جدّه صديق زوجي. كانا يصيدان معاً. بابـــا عنـــده مركبان، كما تعرفين. أطلق على أحدهما اسم زوجته الأولـــى، وعلى الآخر اسمي أنا "

كان في السادسة عشرة، أو أكبر. عنقه بديع.

fb/mashro3pdf

"   كان يأخذ ناساً مهمين للصيد أعالي البحار. عمدة سيلك، كما ينادونه. أفضل أصدقاء بابا. ومطربين بأسماء كبيرة، قـادة فرق. لكنه يأخذ سندلر أيضاً، رغم أنه من العوام يعمل بمعمـل التعليب كمعظم الناس هنا. بابا يختلط بكلّ الأنواع "

لم يكن يعجبه رداء السيدة العجوز الذي ألبسه.

"كان الناس مفتونين به وهو طيب مع الجميع. طبعاً، وصيته رفعتني أعلى منزلة، رغم أنك قد تسمعين بعضـهم يقولـون: زوجة لا تستحق أن يعيلها "

مثل أولاد عنبر ٨ بضربات منطلقة، ننظر إليهم من السور السلكيّ، نشجعهم. يردّون نظرتهم إلينا، بشكل من الوعد.

"أعرف أني محظوظة. فقد عاندتُ أمي بدايةً. إنه في عمـر أبي وإلخ. لكن أبي عرف أنها حكاية رومانسية حقيقيـة حيـن رآه. وانظري كيف أصبحت. ثلاثون عاماً تقريباً مـن النعمـة الكاملة "

كان الحرس غيورين. نستفزهم لأننا نظل ننظـر جشـعين كالهواة، لنرى هؤلاء الكادحين الموهنين حين ينهضون.

"لم يكن أحدنا ينظر إلى الآخرين. ولم تكن تلك إدارة مريحة للفندق. عليّ كلّ شيء. فلا أحد يُعتمد عليه. لا أحد "

كان في السادسة عشرة علـى الأقـل، أو أكـثر. أقـول، بضربات منطلقة، أيضاً.

fb/mashro3pdf

"ألا تنصتين لي؟ أعطيك معلومات مهمة. عليك تسجيل هـذا كله".

"سأتذكر".

بعد نصف ساعة، عادت جينيور لارتداء سترتها الجلد. حين رآها رومن تسير إلى المدخل، فكر فيما فكر فيه جدّه، فابتسم غصباً.

أعجب ذلك جينيور. وفجأة، كأولاد عنبر A، يمضي متمهلاً ـ مميزاً، مستعداً لأن ينطوي، مستعداً لأن ينقضّ. لم تُمهله جينيور وقتاً ليحسم أمره.

"لا تقل لي إنك أيضاً تتكح هاته النسوة العجائز".

أيضاً.

كابد رومن حرجه بفوران كبرياء. افترضت أنه يفعلها قادراً. ينكح مرات كثيرة قدر المستطاع حين يختار أي امرأة ـ وأحياناً اثنتين، مع ثيو.

"هكذا أخبرتاك؟"

"لا. لكن أراهن أنهما تفكران فيه".

"أقمت معهما علاقة؟"

"البتة. أنا أعمل هنا فقط".

"تعمل ماذا؟"

"هذا وذاك".

"ما نوع هذا؟ ما نوع ذاك؟"

fb/mashro3pdf

طوّقت جينيور هديتها. تنظر إلى الجاروف بيديه. ثم إلى متاعه بحِجر بنطلونه، ثم تصعد إلى وجهه. "لقد بنين غُرفاً لن يدخلنها. فيها كتب وكل شيء".

"ياه؟"

شبان، يا إلهي. أيطلقون على ذلك فتنة؟ تلك الفأس السحرية التي تشقّ العالم بضربة واحدة، تخلف الزوجين واقفين هناك مرتجفين؟ مهما أطلقوا على ذلك، فهو يبذّ أي شيء، يأخذ الكرسيَ الأكبر، الشريحة الأضخم، يحكمون الأرض حيث تدور، من قصر إلى مستنقع، وأنانيتهم من جمالهم. قبل أن أنخفض إلى نغم رتيب، رأيت أنواع الزمالة. معظمها يتحمّل ليلتين ساعياً ليدوم موسماً. بعضها رجع أمواج، يدّعون حقاً حصرياً باسمه الحقيقيّ، رغم أن الجميع يغرقون بسهرتهم. ومن لا خيال له يُغذّي ذلك بالجنس ـ كمهرّج غرام. لا يعرفون ما هو حقيقيّ، أفضل، فالخسارات مقطوعة وكل امرئ يستفيد. لابد من ذكاء معين للغرام على هذه الشاكلة ـ بنعومة، دون أسانيد. لكن العالم مكان استعراض، منه علّة محاولة الخلق أن تهزمه، حيث يضعون كلّ شيء يحسون به على المسرح ليثبتوا حدسهم بأشياء أيضاً: أشياء مرعبة بديعة كمعارك حدّ الموت، الزنا، إشعال النار بالملاءات. يفشلون، طبعاً. العالم يهزمهم كل مرة. بينما ينشغلون بالاستعراض، يحفرون مقابر لآخرين، يعلّقون

fb/mashro3pdf

أنفسهم على صليب، يركضون بوحشية في الشوارع. يستحيل الكرز بهدوء من أخضر إلى أحمر، محار يعاني من لؤلؤ، وأطفال يلاحقون المطر بأفواههم متوقعين برودة قطراته لكنها لا تكون؛ فهي دافئة برائحة أناناس قبل أن تصبح أثقل وأثقل، ثقيلة وسريعة فلا يستطيعون اللحاق بإحداها. يتّجه السبّاحون البائسون إلى الشطّ بينما يرقب الأقوياء منهم أوردة البرق الفضية. سحب كزجاجات خضراء تنجرف بخفة، تدفع المطر داخل البلاد حيث تدّعي أشجار النخيل أن الريح تصدمها. نساء تنتثر لوقاية شعرهن ورجال يميلون بانخفاض حاضنين أكتاف النساء إلى صدورهم. أركض أيضاً، في النهاية. أقول في النهاية لأنني أفعلها كعاصفة جيدة. أصير ضمن من ينحنون أمام قناة الطقس نحو الرياح حين يزعق رجال الشرطة بميكروفونات ضخمة: "تحركوا!".

ربما ولدتُ بطقس عاصف. عرف الصيادون صباحاً والببغاوات البرية أن هناك أخباراً سيئة. تعرج أمي وهي تنتظر أسمال الوليد الذي فات موعده، قالت إنها ستنهض فجأة بعد وهن لتعليق الغسيل. أدركت فيما بعد أن الأكسجين النقي الذي اكتسح داخلاً قبل العاصفة، أسكرها. في نصف الطريق الذي سلكته شاهدت النهار يستحيل إلى أسود، فبدأت أتقلب. نادت على أبي وسلّماني للمطر الغزير. قد تقول إن المشوار من ماء الرحم مباشرة إلى المطر منحني ميزة. وجدير

fb/mashro3pdf

بالملاحظة كما أفترض، أن أول مرة رأيت فيها السيد كوسيه كان واقفاً في البحر يحضن جوليا، زوجته الأولى، بين ذراعيه. كنت في الخامسة؛ وكان في الرابعة والعشرين ولم أكن رأيت شيئاً كهذا. عيناها مغلقتان، رأسها محنيّ؛ لباس استحمامها أزرق خفيف منتفخ مطفأ اللمعة بالقياس مع الأمواج وقوتها. رفعت ذراعاً، لمست كتفه. أدارها لصدره فحملها إلى الشطّ. ظننتُ عندئذ أن ضوء الشمس هو ما جلب الدموع إلى عينيّ ـ لا المنظر القادم من البحر بكل عاطفته. بعد تسع سنين، حين سمعت أنه يفتش عن مساعدة منزلية، ركضت طول الطريق إلى بابه.

اليافطة في الخارج تقول "مقهى ماكيو ـ ريا" لكن المطعم يخصني. في الواقع لم يكن ملكي. كنت أطبخ لـ بيل كوسيه طيلة خمسين عاماً حتى مات، لكني أدرت ظهري لنسائه وأزهار جنازته طازجة. فعلت لهن ما بوسعي؛ وحان وقت الخروج. بسبب الجوع، افتتحت مغسلة فلم أمدّ يدي لأحد. لكن غدوَ الزبائن ورواحهم من منزلي كان مزعجاً، فعهدت إلى مناشدة ماكيو. فهو مشهور بالسمك المقليّ (أسود كالح بشرائح بطاطس حوله؛ ورقائق ناعمة داخله)، لكن نظمه الجانبية تحببك في المجيء كلّ مرة. ماذا أفعل بالبامية، مع بطاطا حلوة، جون الحاجل بين الموائد، وأي شيء تقريباً تستطيع أن تسميه يجلب العار لجيل العرائس المنطلقين. كلّ

fb/mashro3pdf

منزل بطباخة حقيقية؛ شخص يحمّص الخبز تحت شعلة فرن لا بعلبة ألمنيوم؛ شخص يضرب الهواء أثناء المخيض بملعقة بدلاً من ماكينة، يعرف سر خبز القرفة. الان، آه، انتهى ذلك كله. ينتظر الناس الكريسماس أو عيد الشكر ليمنحوا مطابخهم الاحترام الواجب. أو يذهبون إلى مقهى ماكيو ريا راجين العفو ألا أسقط ميتة عند الموقد. اعتدت السير طريقي كله إلى العمل حتى تورمت قدماي ووجب أن أتخلّى. أسابيع قليلة مع التليفزيون في نور النهار وصحتي العليلة، حتى طرق ماكيو عليّ الباب قائلاً: لم أعد أتحمّل الموائد الشاغرة. عزم على أن يوصلني ذهاباً وإياباً بين آب بيتش وسيلك يومياً لو أنقذته مرة أخرى. أخبرته أن المسألة ليست مجرد السير؛ بل الوقوف أيضاً. فدبّر خطة. أحضر لي كرسيّاً عالياً بعجلات يساعدني في التنقل ما بين الموقد إلى الحوض إلى طاولة التقطيع. شُفيت قدماي لكني اعتدت التنقل بالعجلات فلم أستطع التخلّي عنها.

مات كلّ من يذكر اسمي الحقيقيّ أو راح ولم يعد أحد يستفسر الآن. حتى الأطفال، الذين يملكون عالماً من الوقت لينفقوه، عاملوني كأني متّ ولم يعد أحد يسأل عني. ظنّوا اسمي لويز أو لوسيل فقد اعتادوا رؤيتي آخذ قلم المرشد الرصاص فأوقّع مظاريف زكاتي باسم إل. ويقول آخرون، حين يسمعون من يذكرني أو يناديني، إل من إليانور أو إلفيرا. وجميعهم مخطئون. عموماً، تخلوا عنه. كما تخلوا عن نداء

fb/mashro3pdf

ماكيو بـ ماكيو أو التزود برسائل مفقودة. يُعرف مقهى ريا بذلك، وكزبون مفضّل أفسده التنقّل السهل، لا أزال أتزلّج هناك.

تعشق الفتيات المكان. مع الشاي المثلّج بحبّة قرنفل فيه، ينضممن إلى أصحابهنّ لتكرار ما قاله، وصف ما فعله، وتخمين ما كان يقصده. مثل

لم ينادني ثلاثة أيام وحين ناديته أراد التوصّل عندئذ إلى تفاهم مباشر. انظري؟ فهو لن يفعل ذلك إن لم يرغب التواصل معك. اه، رجاء. حين وصلت كان لنا كلام طويل، وقد أنصت لي لأول مرة. طبعا. لِمَ لا؟ كلّ ما فعله هو الانتظار حتى أغلقت فمك، ثم شغّل لسانه. ظننتُ أنه سيسأل عن اسمها؟ لا، بل المشاركة في حصص المحل. وقّعي الورقة أولاً، يا حبّي. لم أكن أريد غيره. اصطفينا، هه؟ لا حسابات مشتركة، سامعة؟ تريدين سمك بجروس أم لا؟

حمقاء. لكنهما قاما بإحماء ساعة الغداء رافعين أرواح محطمي القلوب الذين يسترقون السمع من موائد قريبة.

لم يكن عندنا نادلات في الطعام. فالطعام معروض في صوانٍ مغلّفة بالبخار، وبعد تكويم صحنك تأخذه إلى الخزينة ليسجّل لك النقدية بالتفصيل ماكيو أو زوجته أو أحد أولاده الكثر. تأكل هنا أو تأخذه إلى المنزل.

fb/mashro3pdf

تأتي كثيراً فتاة دون ملابس تحتية ـ اسمها جينيور. بدت أول مرة رأيتها كفرد من عصابة على دراجة بخارية. حذاء. سترة جلد. شعر وحشيّ. لم يستطع ماكيو صرف عينيه عنها ـ فقدّم لها قهوتها مرتين. كانت المرة الثانية يوم أحد قبل الخروج من الكنيسة. سارت مع طاولة البخار لفحص الصواني بنمط عينين تراهما في إعلانات من قبيل "أنقذوا هذا الطفل". كنت أرتاح جنب الحوض وأنفخ بفنجان مرق اللحم قبل غمس خبزي فيه. رأيتها تذرع المكان كنمرة أو نحو ذلك. راح الشعر الكبير. أصبح ملفوفاً بمليون ضفيرة طويلة مع شيء لامع بطرف كلّ منها. أظافر أصابعها مطلية أزرق وأحمر شفتيها داكن كتوت أسود. لا تزال تلبس السترة الجلد، وجونلتها طويلة هذه المرة، لكن تستطيع رؤية ما تحتها ـ شيء زهريّ يتمايل فوق حذائها. أجزاؤها الحميمة بادية للعيان مع أزهار داليا حمراء وأنفاس وليد.

مال أحد أولاد ماكيو العابثين نحو الحائط حتى اتخذت الآنسة جينيور قرارها. لم يفتح شفتيه أبداً ليقول مساء الخير، أي خدمة؟ تودّين شيئاً معيناً؟ أو أياً من الأشياء المرحبة التي يُفترض تحية الزبائن بها. أنا فقط بردّت سائلي وراقبت لأرى أيهم قد يتصرف بشكل عاديّ أولاً.

هي فعلت.

كان طلبها لنفسها مع صديقة، فقد عادت كريستين طباخة رائعة لكن هيد لا تأكل. عموماً، اختارت الفتاة ثلاثة طلبات،

fb/mashro3pdf

وجبتان وبودنج أرز وكعكة شوكولاته. يتكلّف ابن ماكيو الذي يطلقون عليه ثيو الابتسام أكثر من المعتاد، مال عن الحائط لحمل صحون الستيروفوم البلاستيكية. ترك الطماطم المسبكة تنداح على الأجزاء لتغير لون سلطة البطاطس، ثم رشق المشويات فوق الدجاج المحفور. انفعلت بمراقبة ثيو، لم يكن يحترم الطعام، وأنا أسقط الخبز في فنجاني، فيتناثر بعيداً كالبرغل.

لم تبعد عينيها عن الصواني. ولا صادفت نظرة ثيو المليئة بالحقد حتى أعطاها الباقي عند الخزينة. ثم نظرت إليه وقالت "أرى لماذا نحتاج جماعة النظام. فقضيبك لا يعمل عشرة على عشرة؟"

صرخ ثيو بكلمة بذيئة في ظهرها، لكنها سقطت هامدة دون جمهور عداي. ظلّ يردّدها، بعد صفق الباب بفترة. نمطيّ. لا يضيع الشبان الكلمات فهم لا يملكون منها الكثير.

حين سار ماكيو إلى الداخل، مستعداً لتولّي الأمر قبل بدء تشكّل الصفوف بعد الكنيسة، كان ثيو ينثر كرات الهواء في قاعة أحلامه وراء الخزينة. كأنه يوقّع باسم أورلاندو وأهالي ويتس أيضاً. ليست طريقة سيئة للخلاص من العار. سريعاً، على أي حال. يأخذ من بعضهم عمراً بحاله.

شيء في هذه الفتاة، جينيور، يجعلني أذكر امرأة أعرفها من الأهالي. باسم سلشيال. شابة، رغم أني أشك إن كانت

fb/mashro3pdf

جينيور أو أيّ من المتسكعات العصريات تتفق مع نمطها. تعرّف إليها السيد كوسيه أيضاً، رغم أنك لو سألته لأنكر. لكن ليس معي. لم يكذب عليّ السيد كوسيه أبداً. لا شكّ في ذلك. عرفت زوجته الأولى أكثر منه. عرفتُ أنه كان متيماً بها وعرفتُ ما بدأت تفكر فيه بعد أن كشفت من أين يأتي بماله. على النقيض من الحكاية التي مهّد لها كأب متباه، كان ينال عيشه بالعمل مخبراً للمحكمة. تعتمد عليه الشرطة في معرفة مكان تخفّي ولد ملوّن، من باع خمراً؟ ومن وضع نصب عينيه أيّ ممتلكات؟ ماذا قيل في اجتماعات الكنيسة، من يحرّض على الانتخابات؟ يجمع أموالاً لمدرسة ــ كل ما كان يهمّ الناشطة ديكسي لو. كان أجر دانييل روبرت كوسيه عالياً مع الزيادات، وامتُدح طيلة خمسة وخمسين عاماً، بينما ظلّ يراقب بعينه الرمادية الشريرة الجميع. كما افترض الناس، لفرض سيطرة مطلقة، فلم تكن لديه أفراح، ولم يجلب عليه المال الذي يكسبه الراحة، ولا على عائلته، فقد كان رهن إشارة ونداء البيض عموماً والشرطة خصوصاً. كان البيض يطلقون عليه ابن داني. لكن اختصارات حروفه، دي آر سي، بالنسبة للزنوج، منحته رفعة للاسم المعهود عنه: أسود. كان يعبد الورق والعملات النقدية، يحجب الأحذية اللطيفة عن ابنه والفساتين حتى المقبولة عن زوجته وبناته، إلى أن مات مخلفاً وراءه 114.000 دولار مُغضّنة. قرّر الابن التمتّع بنصيبه. لم يلقه

fb/mashro3pdf

على عواهنه، بل استخدمه بأشياء يلعنـــها الســود: أوقــات سعيدة، ملابس أنيقة، طعام شهيّ، موسيقى صاخبــة، رقــص حتى مطلع الفجر في فندق خُلق لهذا كله. كان الأب مرعبـــاً؛ والابن شعاع نور. كانت الشرطة تدفع لأبيــه؛ والابــن يدفــع للشرطة. ما قاومه الأب، احتفل به الابن. الأب مغلــول اليــد؟ الابن بلمسة سهلة. لم يقطع المبذّر الثلج مع جوليا[9]. عائلتها مزارعون يشتغلون دوماً لصـــالح مــلاك الأراضــي البيــض والزنوج الحانقين. كادت تتجمّد حين علمت أن مـــال زوجــها منقوع بالدم. لكن لم تشعر بالعار طويلاً. فقد أنجبت وانتظــرت اثنتي عشرة سنة لترى إن كان التــاريخ ســيتخطّى جيــلاً أو يزدهر مع ابنها. لا أعرف إن رضيـــت أو لــم تبــالِ فقــط، فهمستها الأخيرة كانت "هل كان ذلك أبي؟"

fb/mashro3pdf

الهوامش

---

(1) الستلمنت: تعني مستعمرة. (م)

(2) البوار الاقتصادي: عمّ العالم كله في ثلاثينات القرن العشرين. (م)

(3) كلاب الكولي: كلاب اسكتلندية ضخمة، تستخدم للرعي. (م)

(4) صلّ الماء: أفعى أمريكية ضخمة سامة. (م)

(5) البوسوم: حيوان أمريكي ذو جراب، يدّعي الموت وقت الخطر. (م)

(6) كتابة على المخدة تعني "المسيح المبرأ". (م)

(7) فأر الخيل: فصيل من ابن عرس، نتن الرائحة. (م)

(8) الأشبينة: وصيفة العروس، في طقوس الزواج المسيحية. (م)

(9) جوليا: زوجة كوسيه الأولى، التي أنجبت له بيلي بوي، الذي تزوج ماي وأنجب منها كرستين. (م)

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf
4
محسن

fb/mashro3pdf

لطّفت هيد من رغوة البانيو، وكانت معلّقة عملياً بحرفه من إبهاميها. ضمّت ركبتيها جالسة، ثم دارت لتراقب رغوة الزنبق وهي ترتفع إلى منكبيها.

فكرت أن هذا لن يدوم. سأغطس أو أنزلق ولن أملك قوة الرسغ لإنقاذ نفسي من الغرق.

تأمل أن تشمل قائمة جينيور ما تنوي فعله ـ "تريدين هندمة شعرك، أهندمه. تريدين حماماً، أحمّمك" ـ بأمانة، لا مجرد كذب شغوف لاصطياد عمل. قررت هيد أن تختبرها بقصّ الشعر قبل طلب معونتها في حمامها. كان يوليو آخر مرة استطاعت فيها تناول زجاجة الكليرول وغمر ندوب فروة رأسها الفضية بزيت الجوز القاتم. تساءلت كيف، وهي التي لم تلقط أبداً سرطان بحر

fb/mashro3pdf

أو ناولت جراد بحر أو محاراً، انتهى الحال بيديها إلى تشوّه أكثر مما لدى عمال المعمل. بن جاي والصبّار وآسبركرم عاونها قليلاً، وكانت تحتاج إلى حمّام دائم وقفاً لحياةٍ بحريّة لم تلمسها، خشية أن تلمسها. لذلك فأول مهمتين أمام جينيور أن تلوّن شعرها وتساعدها بالحمام ـ بافتراض أنها تستطيع لفت انتباهها عن رومن وقتاً طويلاً كافيا.

لا تريد أن تعرف ما تحكيه جينيور للولد. تراقب هيد وجهه من نافذة غرفة نومها، وتفكّر أن الفتاة قد تصرخ أيضاً. ابتسامته وعيناه مائعتان. سيلفلف كلاهما الآخر تحت أنفها مباشرة. بالجراج تحت لحاف. لا. جينيور جسورة. ستتسلّ به إلى غرفة نومها، أو أيِ غرفة أخرى. قد لا تحبّ ذلك كرستين. أو لن تهتم. لو أحسّت بكره أو غيرة، ستمزّقهما. لو أعاد تاريخها الفاسق نفسه للوراء، فقد تستمتع. لا يعرف أحد طريقة قفز قطة رمادية العينين. يقرّر الرب، في حياتها التاسعة. ظنته هيد شيئاً رائعاً، رومانسية أطفال، شكلاً للاحتفاظ بالفتاة شرط أن تكتشف ألاّ وسيلة أمامها لتسرق. يكفي سرقة كرستين من مال المنزل لتدفع أجر المحامية. قد يُريح رومن تحسّس المقعد الخلفيَ الصغير. يخلعه من قبضة فيدا. كان حازماً فيما ينطقه بفمه "نعم، سيدتي. لا، سيدتي. لا شكراً، يجب أن أعود في ظلّ أنوار الشارع". ماذا أخبره سندلر وفيدا عنها؟ عن كرستين؟ مهما قالا، فلن يكون فظيعاً حتى ليمنعاه من العمل هناك. قد تقول فيدا، لا

fb/mashro3pdf

تكن ألوفاً. لكن لو كان لدى رومن أسبابه للتسكع، فسيظلّ مفيداً أكثر مما هو فعلياً. وقد اتّبع تعليماتها بدقة حين أملت عليه إعلان هاربر جورنال. وستُحيطه سرقات جينيور الذكية بالسند الذي يحتاجه لمعالجة فيدا وإيقاف تعاملها مع أيّ عجوز كمن يؤدي ضرائب إلى خصمٍ والنسوة العجائز حمقاوات.

اعتادت عليه هيد. اعتمدت عليه. وثقت أن أياً من يردّ على إعلانها سيحتاج مالاً، وهي محظوظة أن المتقدمة لشغل الوظيفة الأولى والوحيدة كانت ماهرة قدر ما هي جشعة. اتخذت كلٌّ منهما وضعية تجاه الأخرى الليلة الماضية، فبينما انشغلت الآنسة فيفيان بفحص الغرفة، انشغلت هيد بفحصها هي؛ وبينما انشغلت بمحاولة السيطرة، سمحت لها هيد بأن تظنّ أنها ملكتها فعلاً. انجلت بصيرتها عن حياة بخسة القيمة. كان بابا[1] فقط يعرف أفضل، التقطها بين كلّ من يستطيع اختياره. عرف أنها لم تتلق تعليماً في مدرسة، دون قدرات، بلا تربية صحيحة، فاختارها بينما ظنّ الجميع أنها يمكن القضاء عليها. لكن هنا كانت وأين كن؟ ربما هِمن على وجه البسيطة، كرستين مفلسة في المطبخ، إل تلازم آب بينش. حيث أصلهن. حاربتهن جميعاً، فازت ولا تزال تفوز. حسابها البنكيّ أكبر من قبل. وقضت فيدا حياتها جيداً بسبب سندلر، فلم يكن يستهزئ أو يُهن زوجة بيل كوسيه. كان يحترمها حتى حين لا تحترمها زوجته. هو من جاءها بطلب توظيف حفيده. كانت مهذبة. مكث لاحتساء قهوة مثلجة في غرفة

fb/mashro3pdf

نومها. لم تفعل ذلك فيدا. لا بسبب بغضها هيد، بل لخوفها من كرستين ـ كما ينبغي لها. فقد كانت المدية الوامضة في جنازة كوسيه حقيقية، وضمت الإشاعات عن حياة كرستين القذرة شجاراً وتوقيفات وإحراق سيارات ودعارة. لا كلام إذن عن كيفية تفكير عقل مدرّب على حياة سفلية.

كان صعباً ألا يعلم أحد عن المعارك بينهما حين عادت كرستين لتشغل مسكناً مستديماً. معظمها شفهية: مشاجرات عما إن كانت "S's" المزدوجة المحفورة بالفضة حرفاً واحداً مضاعفاً أم زوجاً من أحرف كرستين الاستهلالية. قد تكون كلتيهما، فقد أمر كوسيه مساعديه بذلك بعد زواجه الأول وقبل وقت طويل من الثاني. كانا يتناقشان عن الخواتم المسروقة مرتين والهدف المحوري من لصقها بأصابع يد رجل ميت. وهناك أيضاً معارك كدمات بأيدٍ وأقدام وأسنان وأشياء تحوّم جواً. من ناحية الحجم والإرادة كان ينبغي أن تفوز كرستين بحيلة يديها الطارحتين أرضاً. وبيدين ضعيفتين وحجم أقلّ، كانت هيد تخسر كلّ مباراة. لكن النتائج خانقة عموماً. فكانت سرعة هيد تمكّنها أكثر من قوة كرستين التعويضية، أما براعتها الخاطفة ـ المستبقة، الحامية، دافعة الأذى ـ فكانت أكثر ما يُنهك خصمها. تتلاكمان مرة ـ أو مرتين ـ سنوياً، تنزعان الشعر وتتصارعان، تعضّان، يتصفعان. لا تُجريان دماً، لا تعتذران، لا تقلّبان الأمر على عواهنه، رغم لهاثهما السنويّ بحادثة تراجيدية كانت طقس المعركة. تتوقفان

fb/mashro3pdf

أخيراً، تنتقلان إلى صمت حِمضيّ، وتخترعان وسـائل أخـرى لتوكيد المرارة. مع تقدم العمر، يبين دائماً اعتراف أنه لا سـبيل أمام أحد ليلعب دوراً بوقف إطلاق النار بينهما غير متّفق عليـه. هناك إدراك غير منطوق بأكثر من علامة أن المعارك لا تجـدي غير السماح لهما باحتضان بعضهما الاخر . وشكاواهما جادة من ذلك. تحتاج الصداقة إلى الكره أكثر من الحميمية الجسدية؛ تريـد إبداعاً وعملاً شاقاً لمؤازرة نفسها. قوطعت المعركة الأولى عـام 1971، أومأت لعزم كل منهماٍ على إنشاب المخالب بـالأخرى. بدأت حين سرقت كرستين جوهرة من درج هيد كان بابا فاز بها في لعبة ورق ــ كيس ورقيّ بخواتم الخطبة التـي وافقـت أن تجرّب التملص منها لأجل عازف طبل لـه سـجلّ بالشـرطة. تظاهرت كرستين أنها تريد وضع هذه الخواتم بيـن يـدي بابـا بكفنه. بعد أربع سنوات اندفعت في طريقها لمـنزل هيـد فـي حضنها كيسُ تسوّقٍ بأصابع محمّلة بحشد آمال لنسوة أخريـلت؛ تطلب حقوقاً ومساحة للعناية بأمها المريضة، ماي ــ الأمّ نفسـها التي سخرت منها سنوات حين تجشّمت متـاعب رعايتـها. ثـم استؤنفت المعركة المؤجلة وظلت متقطّعة عقداً كاملاً. حين فتشتا عن وسائل أكثر إثارة من إحداث الألـم كانتـا تعتمـدان علـى معلومات شخصية، أشياء تذكرانها من الطفولة. ظنت كلٌّ منهما أنها المسؤولة. فـ كرستين خفية بدرجة قصوى، تستطيع القيـادة والتنقل على هواها وإدارة المنزل. وعرفت هيد أنـها لا تـزال

fb/mashro3pdf

المسؤولة عموماً، الفائزة، لا لوجود المال معها بل لأنها لم تكن كما أكّد الجميع عدا بابا: ذكية. أذكى من المدلّلة الفاسدة التي لم تتعلّم بمدارس خاصة، غبية مع الرجال، غير مجهزة لعمل حقيقيّ وكسولة جداً لفعل أي شيء؛ طفيلية في اعتماد مؤونتها على الرجال حتى يصرفوها فتعضّ اليد التي كان عليها لعقها.

كان لدى هيد يقين أنها تعرف كرستين أفضل مما تعرف كرستين نفسها. أما جينيور، فرغم أن معرفتها بها لم تزد عن اثنتي عشرة ساعة إلا أنها تحفظها جيداً، تعرف الآن ما يدور برأس هذه الشهوانية: كيف تخدع العجوز ملتهبة المفاصل، كيف تستخدمها لتُرضي وتُخفي رغباتها المُلحّة. عرفت هيد ذلك كله، وكانت الرغبات المُلحّة الحادة كافية لجلب دموع الغضب إلى عيون الناضجات، كعينَي ماي حين علمت مَن سيتزوج حموها. والعيون الشابة، كعينَي كرستين حين علمت أن صديقتها المفضّلة هي المختارة. جُنّ جنون كلٍ من الأم والابنة بمجرد التفكير في اختياره فتاة آب بيتش عروساً. فتاة لا تملك قميص نومٍ أو لباس استحمام. لم تستخدم أدوات مائدة فضية حين الطعام. لا تعرف طعاماً منفصلاً بصحون خاصة. تنام على البلاط وتستحمّ يوم السبت في بانيو مليء بماء داكن خلّفته أخواتها. لم تتخلص من رائحة السمك المعلّب. تستخلص عائلتها ورق الصحف للمرحاض لا القراءة. لا تعرف تكوين جملة صحيحة؛ مجرد أحرف صمّاء ودون كتابة. في ظلّ هذه الظروف، عليها أن

fb/mashro3pdf

تستعدّ كل دقيقة من النهار. بابا يحميها، لكنه ليس حولها طـــول الوقت أو في كل مكان حيث يخشوشن معها الناس، فلم تكن ماي وكرستين الوحيدتين، كما تبين ذات ظهيرة. بالبراعة الضروريـــة لأشباه المتعلّمات، كانت هيد صاحبة ذاكرة متصدّعة، وكمعظـــم الجاهلات بالقراءة كانت حكّاءة بدرجة عالية. لا تتذكر فقط عـــدد النوارس التي جاءت لتتغذى على قنديل البحر بل أشكال طيرانها حين توزّعت. وتبخل بالمال كلياً. كما كان سمعها حاداً وقويـــاً كالعميان.

يئزّ حرّ الظهيرة. جلست في شرفة البحر تتناول غداء خفيفـاً. سلطة خضراء، ماء مثلج. على بعد ثلاثين ياردة، حشـــد نســـاء يتراخين تحت ظلّ الشرفة يشربن روم البنش[2]. اثنتان ممتلئتـــان، إحداهما خضعت لتجربة أداء آنا لوكاستا؛ واثنتـــان مطربتـــان؛ الأخرى درست مع كاترين دنهام. لم يكن حوارهن صاخباً، لكـــن استطاعت هيد التقاط كلّ كلمة منه.

كيف تزوجها؟ حماية. ممن؟ الأخريات. لا أظن. هـــل كـــان يلعب بذيله؟ ربما. مجنونة، كان هكذا قطعاً. منظرها غير قبيـــح. جسمها جذاب. أكثر من جذاب؛ نادي القطن أولَى بها. عدا لونها. عليها أن تبتسم قليلاً. تحتاج شيئاً بشعرها. أخبريني مـــاذا. إذن لماذا، لماذا التقطها؟ ليغيظني؟ يصعب تواجدها هنا. يصعـــب، كيف؟ لا أعرف؛ شيء ملموس. (ضحكة طويلة). ماذا تقصدين؟ تعرفين، متشرّدة. (ضحكة مخنوقة).

fb/mashro3pdf

وهما تتكلمان، رسمت أربعة غدران بجانب كوب هيد قطرات نازلة، شقّت طرقاً عبر الرطوبة. بـــانت عيـــون فلفليـــة حلـــوة بمحاجرها الزيتونية. فوق حلقة بصل، كشفت شريحة طماطم عن نواجذها البذريّة، شيء تذكره إلى اليوم.

أصرّ بابا أنها تعرف كيف تدير الفندق وقد عرفـــت، رغـم ضحكات الأهالي وتخريب ماي وكرستين. كانتا تدخّنـــان مـن الحسد بهياج ظلّ مكبوتاً بإشعاع الزوجين المجلوب معهما إلـــى الإفطار وبريقهما المتوقع عند العشاء. أفكار بابا وأفكارها معـــاً بالفراش دفعت الاثنين إلى المزيد والجديد من الدنـــاءة. أُعلنـت الحرب فعليا على فستان الزفاف حين طلبه بابا من تكساس. كان غالياً جميلاً وكبيراً للغاية. مدبّس عليه حرف إل على التوالـــي، لكن لم يأت الفستان إلا ظهيرة المراسم، حين تأخر الوقت جـداً. طوت إل ثنية الفستان، دبّست الحافة بأمـــان، وتجشـمت هيـد طريقها عبر السلالم إلى ردهة الفندق وعبر المراسم. لم تلحـــظ المراسم عائلة هيد، عدا سولتيد وريتس مورننج، لم يُســمح لأيّ من عائلتها بالمثول. وكان عذرهم المعلن أنهم لا يزالون بحالـــة حداد على وفاة جوي وولكم. والسبب الحقيقي كان مـــاي التـي ودّت توبيخ أهل جونسون جميعاً. اعترضت على دفع بابا تكاليف الجنازة ــ متعللة بأنه ليس للأولاد دخل بالسباحة في "منطقتـــهم" الخاصة من البحر. كان يُسمح فقط لأخوات هيد الأصغر باقتحـام الغرفة والإنصات إلى "آهٍ عِديني". بتلك الضغينة تحرّكت مـــاي

fb/mashro3pdf

وابنتها لانتقاد العروس الشابة دون رحمة: كلامـــها، صحتـــها، سلوكياتها على المائدة، وآلاف الأشياء التي لم تعرفها هيد. مـــاذا يعني "يُظهّر شيكاً"؛ كيف تُلبس سريراً؛ كيـــف تُرتّـب الفـوط الصحية؛ كيف تُجهّز مائدة؛ كيف تُقدّر المؤن. تعلمـــت قـراءة الخطوط إن لم يسبب العجز نكتة سارية. علّمتها إل فقـد كـانت تحبّها وأنقذت حياتها التي منحها بابا وحدها. لم تكن تبحر بالمياه الغادرة إن لم تكن إل هي التيار. لم تفكّر هيد في ذلك كثيراً تلـك الفترة، لكنها ضمنت أن زوجها سيكون كريماً معها. فقد دفع فعلاً تكاليف جنازتَي أخويها؛ ومنح أمها هدية ومنح وجه أبيها ابتسامة عرفان. لم تفكّر أن كثيراً من الآخريـن ـ خاصـة عائلتـها ـ سترقب التمتّع بميزاته. فأقاربها ماكرون، لذلك جبروا الخلل الذي لن يصلِحه الدهر. زحفوا إليها بعد انتهاء الزفـاف. يلمحـون ـ "سمعتُ أنهم يوظفون ونحتاج إلى عمل..." "أرأيت الفستان الـذي وهبته (لولا) لأمها؟..." رجـاء ـ "اسـأليه إن كـان يسـتطيع إقراضي القليل حتى..." "تعرفين أنني محتاج منذ..." "سأردّه كله لك بمجرد..." طلب ـ "هاتي لي بعض..." "هذا كل ما عنـدك؟" "لا تحتاجين هذا، صحيح؟" وتخجل هيد مـن المعارضـة لكـن تخبرهم أن يبتعدوا عن ممتلكات الفندق. حتى ريتـس وسـولتيد امتحنا مدى ولائها. اتهامات واتهامات مضادة تقلقل زياراتها إلى آب بينش، وحين أخبرت بابا لماذا تطقّ عيناها شراراً، ارتـاحت

fb/mashro3pdf

بردّه الحازم. كان هو كل ما تحتاجه، ومن حظه أنه كان كلّ ما تملكه.

أراحت هيد رأسها عالياً حتى رقبتها على حَنية البانيو الصينيّ، وسط خرير ماء عطر. وهي ممدّدة، كانت تلاعب السلسلة بإصبع قدمها لتُخرِج السدادة، ثم انتظرت صَرفَ الماء. حتى تتسلّ فلا ترتطم، ويكون لديها على الأقلّ فرصة النهوض دون غرق.

ظننت أن نهوضها من البانيو أمر غبيّ وخطر. لن أفعل هذا من بعد.

ترتاح بالكرسيّ الأحمر لحلاقة بابا، ملفوفة بمنشفة، تقرّر سؤال جينيور ــ بل تأمرها ــ أن تعينها بدخول البانيو والخروج منه. تضحية ضرورية لم تتطلّع إليها. حرج واعتماد عليها وهي تكشف عريها الناعم البائس أمام لمحة متفحّصة لفتاة شابة حازمة غير مبالية. ماذا أزعج هيد؟ جعلها تتردد؟ أكان خسران ذكريات الجسد؟ استعادات لذّة الجسد؟ عن ليلة زفافها مثلاً، وانغمارها بالماء بين ذراعيه. دبيبهما بعيداً عن ناحية الاستقبال غير المرحّب بها، من الباب الخلفي نحو الظلام، مندفعين بملابس سهرة وفستان زفاف واسع جداً عبر عشب البحر إلى رمل حُبيبيّ؟ تجرّدهما؟ لا خَرْق. لا دم. لا تتميل ألم أو مشقّة. فقط رجلٌ يدلّك، يرضع، يحمّمها. تقوّست. وقف خلفها، تحسّس بيديه ما وراء ركبتيها ثم فتح ساقيها على آخرهما. قد ينسى جلدها ذلك

fb/mashro3pdf

بصحبة فتاة وقحة يراكم لحمها ذكرياته الجنسية كالأوشام. كان آخرها على ما يبدو، دمغة رومن. أين تذهب؟ على أيّ شكل تكون؟ تفعل جينيور الكثير حتى تجد مكاناً. فيندمجان أخيراً داخل شبكة مُخرّمة تغطّي جسمها بالكامل، يكونان صورة يعسُر تمييزها عنه؛ تمييز الولد عن البنت.

حكاية هيد تصبغها ألوان يمكن ردّها إلى وضوحها الأصلي في ماء فوّار. عليها تصوّر طريقة حتى لا يمحو وجود جينيور ما عرفه جلدها بداية في رغوة البحر.

لو هامت فتاة صغيرة بعيداً ـ أسفل ماء عميق تنزلق الأمواج عبر حافته فيستحيل الطمي إلى رملٍ صافٍ. رشاش البحر يرطّب فانلة الرجل التحتية التي تلبسها. وهناك على بطانية حمراء تجلس فتاة أخرى صغيرة بشرائط بيضاء في شعرها تلعق آيس كريم. ماء أزرق جداً. وراءها حشد يضحكون. سألتهم الفتاة "هلا، تريدون لعقة؟"، وهي تمدّ ملعقة.

كانوا يلعقون آيس كريم بالخوخ حتى هلّت امرأة باسمة، قالت "اغربوا. هذا مكان خاص".

آثار أقدام بالطمي فيما بعد، سمعت فتاة الآيس كريم تصيح "انتظروا! انتظروا!"

المطبخ كبير مضاء، مليء بكبار يشغلهم الطبخ، يتكلمون، يقرقعون الأواني. إحداهم قالت "اغربوا" وهي تبتسم أكثر لفتاة الآيس كريم صديقتها.

fb/mashro3pdf

لبست هيد قميص نوم جديداً وروباً حريرياً من طراز قديـــم. وعند نضد الزينة تمعّنت في وجهها بالمرآة.

صاحت بصورتها "اغربي؟". "انتظري؟" كيف تفعل ذلك معاً؟ حاولوا مطاردتها من الرمل الأبيض وهي تعود إلــى الطمـي، ليوقفوها بفستان زفافها الخفيّ، لكن من صرخت "انتظروا" راحت بالوقت نفسه الذي نأت فيه من قالت "اغربوا". كانتـــا فاسـدتين مدللتين بثروة رجل سخيّ اليدين، لم تدخلا مضمـــار تعليـم، أو حتى تعلّمتا القليل. علمت اليوم أن أيّ مهتمين يظنون حياتها حياة عجوز تافهة اختُصرت في التحديق بالصحف، الإنصات للمذياع، والاستحمام ثلاث مرات يومياً. لن يفهموا أن الفوز كان يشـــغل حيّزاً أكبر من الصبر؛ يشغل عقلها. العقل الذي لم يعرف امــرأة تستدعي زوجك أيّ وقت تريد. يظلّ اسمها سرياً حتى بمنامه. يا فتاة. يا فتاة. دعيه يئنّ؛ دعيه "يذهب للصيد" دون عدّة أو طُعـم. هناك علاج. لكن الوقت محدود الآن.

عرفت كرستين ذلك، فمضـــت مســرعة فجـأة لاستشـــارة محاميتها. إحدى تلك النسوة السود الدعيّات المحترفـــات الجـدد بخبرة عشرين عاماً من التعلّم، أملت منها كرستين خداع امــرأة تستطيع هزيمة بلد بحاله: هزيمة كَنّتها التي ســرقت كرســتين، ورفعت نفسها فوق كل المتواطئين المترجين خدمات، ومهما كان ما فعلته فلا تزال تبرز خلف ظهرها. تذكر منذ زمان طويل قدر المستطاع، أن هيد تظن رغباتها انعطفـــت بصحبتـــها. وقيلـــت

fb/mashro3pdf

الحقيقة، كان بابا الوحيد الذي لا تحسّ معه هكذا. كانت آمنة معه مهما كان ما يغمغم به في منامه. وما من سؤال هناك عما كان يقصده منها حين مات. لم يعتقد أحد، سواء رغب أم لا، أنه كان يفضل كرستين التي لم يرها منذ 1947، على زوجته هو. حتى إن لم تكن من تلك الفتيات السود بنمط المحامية، المشبعات بأنفسهن، محتقرات جيل هيد الذي كان لديه حسّ تجاري أكثر مضاء مما تعرفه المتعلمات أنصاف الموهوبات.

ما من شيء قانونيّ غير الوصية التي وجدتها إل مخطّطة بقائمة طعام، ولم يُكتشف غيرها بعد، رغم الطبيعة الخلافية للكتابة الموجودة فيها. بشرط. بشرط. عموماً، بافتراض العثور على كتابة لاحقة، فهذا يدعم ويوضّح تلك الأولى المكتشَفة. لم تكن وصية موثّقة حقيقية ـ لا وصية مثلها، وإن وجدت أخرى يوماً لأخفتها ماي المجنونة، فلديها مقاصد ـ غير قائمة طعام أخرى بعد عام من قائمة 1958، حدّدت فعلياً الفقيد "طفل كوسيه اللذيذ" بالاسم: هيد كوسيه. لو سجّل بابا أمنياته في 1958 وبقائمة لاحقة وجدتها هيد، فليس لقاض أن يقف بصفّ كرستين.

لم تكن فكرة جديدة. تأمّلت هيد هذه المعجزة منذ زمان طويل؛ منذ 1975، حين دفعتها كرستين إلى منزل وامض بماس ادّعت ملكيته. الجديد، عندئذ، تلك الرجّة بذاكرة هيد الصيف الماضي. مسّدت هيد يديها، حاولت طرقعة أصابعها، فرّقت ما بينها، فحصت جلدة الندبة المألوفة بظهر يدها، ثم زارت من جديد

fb/mashro3pdf

مشهد الحادثة. مطبخ رطب، طاولة مكدسة بـــالكراتين. ســكين كهربيّ، خلاّط ماركة صنبيم، فرن جنرال إلكــتريك لتحميــص الخبز ـ كلها ماركات جديدة. ترفض إل صامتة فتحها، تُنحــي جانباً استخدام ما فيها من معدات. كانت هيـــد تنــاقش إل فــي 1964؟ 1965؟ دخلت ماي المطبخ بصندوقها الكرتونيّ، عليــها تلك القبعة العسكرية الغبية. تحمل كرتوناً بمقاس مؤسسة الإعانة الذي ضمّ يوماً علب رينسو. كانت قلقة مسعورة من أن الفنــدق وكلّ من فيه بخطر عاجل. فقد غزا سود المدينة آب بيتش فعلياً، حاملين سوائل طيارة، كبريتا، خليط مولوتوف[3]؛ صرخات تحفز الأهالي على إحراق فندق ومنتجع كوسيه كاملاً وإرغــام خــائن العهد العم تومس، صديق العمدة، على التخلّي عن تجارته. قــال بابا إنه ليس لدى المحتجّين أدنى فكرة عن كُنه الخائن الحقيقــي؛ فكان يجب على ماي أن تتزوج والده، لا ابنه. دون نقطة برهان، لمحة هجوم، تهديد أو حتى ازدراء عدا عفن ينمو بعقلها، ساندت ماي النقاش، افترضت نفسها حامي المنتجع الوحيد.

كانت تنافح صاخبة ذات يوم عن التجارة المملوكة للملونيــن، الفوائد من المدارس المنفصلة، مستشفيات بعنابر وأطباء زنــوج، بنوك مملوكة لملونين، وحرف متباهية مصمّمة لخدمة السباق. ثم تبين لها أن قناعاتها لم تعد نهضة عنصرية من الطراز القديم، بل انفصالية "قومية". لا بوكر تي[4] الرائع، لكن مـــالكوم اكــس[5] المتطرف. في حيرة بدأت تتمتم، مناقضة نفسها. خرقت الاتفــاق

fb/mashro3pdf

مع أصحاب التفكير الأحاديّ وتشاجرت بلا نهاية مع من بدؤوا يستغربون الرقص جنب البحر بينما هبّ الأطفال منفصلين بمدرسة الأحد؛ لإعاقة قوانين الملكية وقت أن دبّت النيران في الأحياء المجاورة. حين كبرت الحركة وأصبحت الأخبار كلها عن الجنائز والمسيرات والشغب، تنبأت ماي بالإعدام الجماعي، وفصلت نفسها عن الناس العاديين. حتى الضيوف المتفقين معها بدؤوا تجنّبها وتحذيراتها عن المصير. رأت عصيان النّدل؛ والأسلحة بأيدي معاوني الأفنية. كان عازف الطبلة أول من أخزاها علناً. "آو، يا امرأة. أمسكي عليك لسانك!" لم يقلها أحد بوجهها، بل في ظهرها وبصوت عال سمعته. تواقَحَ الضيوف الآخرون بدرجة مساوية، أو نهضوا راحلين بدخولها صحبتهم.

هدأت ماي أخيراً، لكنها لم تغير رأيها. شرعت ببساطة في إزالة أشياء، أخفت عنهم حرائق الكيروسين التي علمت بوشيك اشتعالها في يوم قريب. أخفت عنهم القنابل اليدوية المقذوفة وألغام الأرض المدفونة بالرمال. كان إدراكها واسعاً ودقيقاً. فقامت بحراسة الشط ووضعت الشراك المفخّخة خلف باب غرفة نومها. أخفت المستندات القانونية والدبابيس الكبيرة. أول 1955، حين فجّر مراهق جسمه أثبت ردّ البيض جدياً بوقاحة، وأحسّوا بالفوضى مع تفشّي كلمة "مقاطعة" في ألاباما، فراحت ماي إلى إحدى القلاع ــ بالفندق ــ لتدفن صكّ ملكيتها بالرمال. بعد عشر سنوات، كان زبائن الفندق الصاخبون سريعو الغضب يعاملونها

fb/mashro3pdf

باللطف الممنوح لمجذوم. وحين حطّمت أمواج السود الأحياء المجاورة الهادئة بالإضافة إلى مناطق التجارة، أضافت منزل شارع مونارش لعنايتها. لم تهيمن على شيء بأي مكان، فذهبت تحت الأرض، حبست نفسها وتزودت. عشّشت المال وأدوات المائدة الفضية بجوالات أرز انكل بن؛ أخفت في بياضات المائدة الناعمة ورق تواليت ومعجون أسنان؛ تكدست حفر الشجر بملابس تحتية للطوارئ؛ بصور وتذكارات وذكريات وعلب وسقط متاع كوّمته، خزنتها جميعاً.

تدخل مطبخ الفندق لاهثة تحمل غنيمتها بينما تجادل هيد عن الخسارة التي سبّبتها إل برفضها فتح الكراتين واستخدام المعدّات، فكان يمكنها إنتاج وجبات أسرع. لم ترفع إل بصرها، رشّت قطع الدجاج فحسب بالبيض المخفوق ثم بالدقيق. دفقَ سمنٌ ساخن عن المقلاة متناثراً على يد هيد.

هذا آخر ما تتذكره من المشهد ـ الحرق. بعد ثلاثين عاماً، تمسّد يديها، فتتذكّر أفضل. قبل دفق السمن الساخن، توقّفت ماي لفحص علبة رينسو، ترى علب فوط المائدة عديمة الجدوى للعلم الجديد الذي مضى، عِصيّ تقليب سوائل الخمور، قبعات ورقية وأكداساً من قوائم الطعام. تسمعها تقول "يجب التخلّص من هذا كله". فاختفت تلك الظهيرة المعدات الجديدة، لتوجد فيما بعد بالعليّة ـ تعليق صامت نهائيّ، من إل. اقتنعت هيد الآن أن علبة ماي الخاصة بسقط المتاع هناك ـ في العليّة. بها خمسون قائمة

fb/mashro3pdf

طعام. كانت تُجهّز أسبوعياً، يومياً أو شهرياً، اعتماداً على نزوات إل، كل قائمةٍ بتاريخ يشير إلى جدّة الطعام ودقّة صُنعه منزلياً. لو دفق السمن على يدها في 64 أو 1965، وقت أن انصرفت ماي فزعة إلى مسيسبي أو واتس، لكان عليها تتبّع إنقاذ الأشياء المطلوبة، ثم قوائم الطعام التي خزنتها مجهّزة لسبع سنين بعد 1958 ولكانت المقبولة وحدها كعهد ووصية من بيل كوسيه. هناك قوائم كثيرة متلاعَب بها في تلك العلبة. إحداها فقط المطلوبة. تلك التي سطّرت المخطوط، بقلب ميّال للسرقة ويد شابة ثابتة.

ماي عجوز طيبة. سنوات براعة وعقود جنون ــ كلاهما كان يعادل السذاجة التي تميّز بها النهار. لو كانت حيّة لقتلتها. قبل موتها الحقيقيّ كانت شبحاً مُستنزجاً[6]، يطوف بين الغرف مرفرفاً فوق الأرض مختبئاً وراء الأبواب حتى تصبح الدنيا أماناً فيطمر الدليل على حياة الثورة التي أرادت حرمانها منها. ارتاحت الآن، فبعد وفاتها في 1976، عاد جزاء موتها الأثير بطرازه ليُعمّر الثورة. رغم ذلك، كان شبحها المقنّع بخوذة والحامل غدّارة، لا يزل حياً يكسب قوّته.

توقّعت كرستين الطريق إلى هاربر برائحة البرتقال، فقد صحب شذاه مرات هروبها الثلاثة. الأولى على قدمين والثانية في باص، وكل مرة يحدّ شجر البرتقال الطريق مميزاً فرارها بعطرٍ حامضٍ خفيف. أكثر من المعتاد، كان الطريق يشكّل بنية

fb/mashro3pdf

حياة أحلامها. كلّ حلم، من سخيف إلى مرعب، جدير بذكرى صادفتها في أو قرب الجادّة 12، وإن لم يكن الدرب مرئياً، لكنه كامن وراء حياة حلمه، مستعد لمعاينة آخر مرعب أو التزوّد بسعادة مشوّشة من حلم لذيذ. تضغط الآن دوّاسة البنزين، تعجّلها بملمس كابوس ـ تلهث مستعجلة بوقت قياسيّ ـ لكن الطقس المتجمّد يفني الثمرة اليانعة بشذاها فتعي كرستين عنف الغياب. كرّت النافذة لأسفل ثم لأعلى، ثم لأسفل من جديد.

لا تشتمل طريقة رومن لغسل السيارة فتح أبوابها، لذلك تلمع أولدسموبيل من خارجها بينما تطقَ رائحتها من الداخل كزنزانة مقفلة. قاومت لتنال نوعية سيارات أفضل بسبب الرائحة. حاولت إتلافها بكلّ ما تمثّله، لكنها غالباً كمحاولة إتلافها عطر "هوايت شولدرس" التي كانت تلدغ جوفها وتُجلّط لسانها. لم ير صاحبها، د. ريو، التلف فصديقته الجديدة قطَرَت السيارة بعيداً قبل أن يفطر منظرها قلبه. حيث مال قدّوم كرستين على حاجزها الزجاجيّ وقطع الموسَى جلدها الغاطس؛ جعّدت شريط المسجّل (بما فيه من أغنية آل جرين "الأوقات السعيدة" خصوصاً) فوق لوحة أجهزة القياس وعجلة القيادة التي سمع عنها فقط ولم يرها. كان إيلام ذلك مثل طرده. لم يكن إتلاف كاديلاك أمراً سهلاً، لكن فعل ذلك في وضح النهار وتحت غمامة عطر امرأة أخرى كان مأثرة تستحق شهادة جادّة ممن يعنيه الأمر. واستُبدل د. ريو، وفقاً لمالكة منزل كرستين، بامرأته الجديدة. قالت مانيلا، خطأ.

fb/mashro3pdf

فالمرأة الجديدة ستعلّمه درساً ـ لاحظوا التحذير مما تفعله امرأة مستبدلة. لو رأى بنفسه ناتج التخلص من امرأة، لساعد ذلك الجديدة على أن تقلب أُجرتها بين ذراعيه إلى عَقد مُطوّل.

شحبت اللوعة على حياتها البائسة بومضة ذكرى د. ريو، كارتباك معركتها مع سيارته الأثيرة، الكاديلاك. رغم نهاية علاقتهما الخجولة، إلا أن ثلاثة أعوام معه ـ اه، قربه؛ حيث عجز عن الطلاق تماماً ـ كانت رائعة. شاهدت أفلاماً عن بؤس النسوة الوفيات، كيف متن أخيراً أو عانين مع مواليد غير شرعيين ماتوا أيضاً. كن يحزنّ أحياناً من الإثم ويبكين على حِجر الزوجة المُغرّر بها. وبعد عشرين عاماً من استبدالها بالجديدة مع هوايت شولدرس، ظلت كرستين مصرّة على أن سنواتها كامرأة وفيّة أفضل. حين قابلت د. ريو، كانت سنواتها الواحدة بعد الأربعين مقابل سنواته الستين تجعله "أكبر عمراً". الآن، بمنتصف ستينياتها، لا تعني الكلمة شيئاً. كان متأكداً أنه سيموت قريباً أو يتخشّب بفراشه فيدفع حينئذٍ مائة دولار لأمّ مراهقة خيّرة لتدلّك أصابع قدميه برفق بينما تضبط له ممرضة النهار دَفق الأكسجين. كان آخر ما رأته عليه مشهداً مؤثراً، مُغوياً كالبداية. نضد زينة أنيق، صاحب مهنة ناجح لعوب عاطفيّ. تحطّمت فرصتها الأخيرة لسعادة طيبة مع ثاني أقدم خصمٍ في العالم: امرأة أخرى. قالت فتيات مانيلا إن د. ريو كان يمنح كل خليلة جديدة هدية العطر نفسه. ظنّت كرستين ذلك

fb/mashro3pdf

غريباً ـ لمحة خاصة من طالب يد امرأة عميق التقدير. كان يفضّل ذلك؛ وتعلّمت منه. لو بقيت أطول بمنزل مانيلا أو زارت عاهراتها يوماً، لاكتشفت على الفور هيئة د. ريو التافهة: فقد سقط رأساً على عقب، مغرَراً به، وهبها شقته الثمينة بشارع تريلين، وأرسل شجرة تنين وهوايت شولدرس يوم نقل الاستبدال. على النقيض من الورد أو الأزهار الأخرى المقطوفة، تعني شجرة التنين حديثا عن الشرعية، الدوام. لكن هوايت شولدرس ـ من يدري؟ ربما قرأ عنه في مجلة رجال ابتُكرت لتُظهر للرجال الفرق بين البلسم والشامبو. زجاجة لامعة بقوام ثخين يُحدث ملمسها صريفاً، للمراهقين المتنكرين بزيّ رجال بتقنيات إغواء مفصلة، كأن التقنيات مطلوبة حين تصمّم امرأة على رجل. ربما أرسل زجاجة كلوركس وشجرة عيد ميلاد ذابلة ـ كانت تفعل ما يريد بالمناخ لديها. حرية كاملة، رعاية تامة، جنس يُعوّل عليه، هدايا طائشة. رحلات قصيرة، سرية خشية أن تكشفها زوجته، حفلات، انفعالات ومكان مُشبع كهيئة متذمرة بمجتمع الطبقة الوسطى السوداء التي أدركت تأرجحها، لو كان مالها واعتمادها صحيحاً.

الجادّة 12 فارغة، تذهَل كرستين عن استعجال مَهمّتها مع تذكارات مبعثرة من الماضي. ظلّت الانفجارات بعيدة عن بيوت الطبقة العالية أو الرحلات الرومانسية حتى أقحموا رأسها بسيارة دوريّة؛ ظلّت الانفجارات بعيدة عن الموائد المشتهاة بالمآدب حتى

fb/mashro3pdf

ارتجّ أحدهم ما بين كوعيها على مرتبة مومس يتم تهويتها يومياً للتخلّص من نتن الزوار السابقين. حين عادت إلى منزل مانيلا، اعتماداً على كرمها العاجل قصير الأمد، صبّت كرستين في التواليت بقايا عطرها الهوايت شولدرس ثم حزمت حذاءها وكبرياءها وبلوزتها القصيرة وحمالة ثدييها وسروالها الطويل بكيس تسوّقها. كل شيء عدا الماس وملعقتها الفضيّة. أقفلت عليها زمام محفظتها مع خمسين دولاراً قرض مانيلا. فتيات مانيلا متجانسات معظم الوقت؛ وبأوقات أخرى لا. لكن متعة قلوبهن في الذهب ـ الذهب الذي يدسسنه خلسة من المَحافظ، أو يغوين من أجله بطرق ابتزاز معتدلة ـ متفائلات دائماً بإخلاص. هدهدن كرستين ألا تقلق، فقد حاولت امرأة خلع قضيبه يوماً، كانت ماكرة، واستدعى الأمر الكثير من الصلوات ولم يُجدِ الوداع. قدّرت كرستين تفاؤلهن لكنها لم تبتهج. رموها من الشقة بعد أن رفضت الرحيل بهدوء عدة أسابيع؛ ومُنعت من أخذ فرائها ومعطفها الوبر وبنطلونها الجلد وبدلتها الكتان وحذاءها السان لورين ـ حتى رِقّها: وكان وداعهن نهائياً. كانت الحقائب السمسونايت الأربع اللاتي غادرت المنزل بهن في 1947 تضمّ كلّ ما ظنت أنها تحتاجه يوماً. وكان كيس تسوّق وول مارت الذي عادت به في 1975 يحوي ما تملكه. فكّرت في التدريب الذي نالته، فلم تصبح مرات خروجها من سيلك مؤسية بعد. أول مرة في الثالثة عشرة، ناتج نوبة غضب، وفشلت في غضون

fb/mashro3pdf

ثماني ساعات؛ المرة الثانية في السابعة عشرة، طوفان مرّ بحياتها، وكانت كارثة بدرجة مساوية. كلا الهروبين غذّاه الحقد، لكن المحاولة الثالثة والأخيرة في 1971، كانت هادئة لتفادي مذبحة في بالها. تركت أماكن أخرى: هاربر، جاكسون، جريفنور، تامبا، ويكروس، بوسطن، شتانوجا ــ أو أي بلدة أغرتها يوماً ــ بسهولة حتى طردَها قسراً د. ريو دون سبب معقول فكّرت فيه، عدا تمنيه شجرة تنين جديدة أو نموذجاً أحدث من فراء كان يمرّره من خليلة لأخرى. اكتشفت كرستين، أيام تردّدها التالية على منزل مانيلا (سُمّيت بمأثرة أبيها البطولية)، طريقة لتقلب عودتها المخزية إلى سيلك فاقترضت مالاً بفعل مسؤولية بنويّة: رعاية أمّ متوعّكة ومعركة عدل نبيلة ــ حقّها القانوني من ضيعة كوسيه.

تذكّرت الباص يمضي عائداً، تناوبت عليها نوبات نوم برائحة ملح بحريّ. باستثناء واحد انفجر (بنوبة غضب أعمتها)، كان لمحتها الأولى إلى سيلك منذ ثمانية وعشرين عاماً. منازل منظّمة تنتصب في شوارع بأسماء أبطال وأشجار حُطّمت لبنائها. لا يزال مقهى ماكيو بمطلع جلاديتر من ناحية شارع حَمَل الربّ، محتفظاً بهيئته أمام محل هامبرجر جديد بشارع برنس آرثر يُدعى باتي. ثم البيت: المكان الأليف الذي يظلّ يتغير وراء ظهرك، حين تتركه. لون الزيت الكريميّ المحمول برأسك يستحيل دهان منزل. أصبح الجيران الساحرون بنبض الحيوية

fb/mashro3pdf

خطوطاً غائمة لأنفسهم. والمنزل المسمّر بـــأحلامك وكوابيســك أصبح خَرِباً، غير متأنّق بل رث، لكنه أكثر جاذبية الآن فحالــه كحالك. لم ينكمش المنزل؛ أنت انكمشت. لم تتخلّع النوافذ ــ أنت تخلعتِ. باختصار أصبح أكثر شبهاً بك الان عما قبل.

نظرة هيد باردة طويلة، أيّ شيء غير المرحّبة، لذلك صفقت كرستين وراءها الباب. توصّلنا لاتفاق بكلمات ضمنية لأن مــاي يائسة، المكان قذر، ويعيق التهاب المفاصل يدي هيد، ولم يعــد أحد بالبلدة يسندهن. من يرعى المدرسة الخاصة احتفظ بــالمنزل بينما يديرها من يكاد يقرأ. من باعه إنسان قاتل من اشتراه آخر. وكان منسوب اليأس الذي أرغمها على الدخول عالياً، حين عادت إلى منزل يودّ صاحبه لو يحرقه لطردها خارجه. ومــرة أوقــد النيران فعلاً بفراش كرستين ليفي بالغرض على وجـــه الدقّــة. فاستقرّت عندئذ، طلباً للأمان، بشقة صغيرة جنب المطبخ. اعتلتها الراحة برؤيتها يدَي هيد الخائرتين، لكنها عرفت أن ما تستطيعه المرأة يجعل قلبها يدقّ مرهقاً بحضرة هيد. فلا يوجد أكثر مكــراً أو أشدّ انتقاماً منها. فأغلقت الباب بين المطبخ وغرف كرســتين بمفتاح مخفيّ وقفل متين.

فرملت كرستين أمام سلحفاة تعبر الطريـــق، ثـم انحرفــت لتفاديها، فمضت فوق ثانية كانت بذيل الأولـــى. وقفــت تنظــر بالمرايا الخلفية ــ شمالاً، يميناً، وفوق رأسها ــ إلى علامة حياة أو موت: سيقان تنزف مقلوبة نحو السماء لنجدة أو درقة جــامدة

fb/mashro3pdf

محطّمة. ترتجف يداها. تبحث عن لا شيء، تركت مقعد السائق وجرَت عائدة إلى الطريق. الرصيف فارغ، أشجار البرتقال ساكنة. لا سلاحف بأي مكان. هل تخيّلتها، السلحفاة الثانية؟ تلك التي خلّفتها وراءها، الانسة الفُضلى الثانية، التي سحلها إطار مسرع على الطريق، حين انحرفت لإنقاذ أختها المفضّلة؟ مسحت بناظريها الطريق، لم تستفسر؛ لم تسأل نفسها لماذا تسهّد قلبها على سلحفاة تزحف بالجادّة 12. رأت حركة بجانب الطريق الجنوبي حيث تتّجه السلحفاة الأولى. اقتربت ببطء وارتاحت لرؤية درقتين خضراوين لامعتين تحفّان طريقهما باتجاه الشجر. أخطأت العجلات الانسة الفُضلى الثانية، فبينما كانت السائقة ترجف بالسيارة، لمحت تلك الأسرع. راقبت كرستين متحجّرة زوج السلاحف يختفيان، فعادت لسيارتها حين أبطأت أخرى خلفها. غادرت السائقة محور الدوران، فابتسمت "ألا يوجد حمّام في بيتك؟"

"امضي لحال سبيلك، يا عاهرة!"

أشار لها بإصبعه الوسطى ودار مبتعداً.

قد تندهش المحامية ـ فلم تأخذ كرستين موعداً ـ لكنها ستراها على أي حال. كانت كرستين تغصب نفسها كلّ مرة على دخول المكتب، وتكيّفت مع ذلك. فتحوّلها من فتاة مدلّلة إلى مشرّدة ملوّثة لم يكن بطيئاً ولا مخفياً. يعرفه الجميع. ولم يكن لها عودة إلى المنزل بسيارة أنيقة مع زوج ناجح. ولا رجعة بشهادة

fb/mashro3pdf

في يدها مع عائلة سعيدة بعُهدتها. لم تعد بقصص فاتنة عن صعوبة عمل إدارية أو حدود مؤقتة لطلب موظفين، زبائن، مرضى، وكلاء أو مدربين. باختصار، لم تمنحها بلدتها الأم لمحات إشباع شخصي أو تنازل مستور. كانت متخبطة. زريّة السمعة. لكنها أيضاً من عائلة كوسيه، وفي هاربر لا يزال الاسم يرفع الجفون. وليم كوسيه، المالك السابق لعدد من المنازل ومنتجع فندق وقاربين وملء بنك مما تدور به النميمة، أموال خرافية تفتن الناس دائماً، لكنه قاد المقاطعة إلى حمّى حين علموا أنه لم يُخلف وصية. مجرد رسوم عابثة بقائمة طعام 1958 تحدّد رغباته التي فجّرها الويسكي. ما ظهر كان: 1) جوليا الثانية إلى د. رالف، 2) مونتينجرو كورناس إلى عمدة سيلك، 3) الفندق إلى زوجة بيلي بوي، 4) منزل شارع مونارش و"أي مليم متبقٍ" إلى "طفلي اللذيذ كوسيه"، 5) سيارته موديل 55 بغطاء قابل للطيّ إلى إل، 6) دبابيس عنقه إلى ميل دادي، وغيره ومثله حتى مجموعة تسجيلاته إلى ديم تومي "أفضل عازف جيتار زنجي بأرض الله". شعور طيب دون شكّ من ويلد تركي، فقد جلس ذات ليلة مع ثلة أصدقاء سكارى متخبطين بين أوامر جانبية وأمور يومية خاصة، مقبلات وطعام أساسيّ وحلوى لتوزيع ثروته على من أسعدوه أكثر. بعد ثلاث سنوات من وفاته استقرّت ثلة الأصدقاء السكارى للتحقّق من الحدث، من خطّ اليد ووضوح العقل الذي بدا أنه لا يمضي بأفكاره أبعد من

fb/mashro3pdf

الموضوع. توهّجت أسئلة كقلنسوة ثعبان: لماذا وهب د. رالــف أحدث قواربه؟ ومن هو كورناس؟ العمدة مات منذ سنين، فــهل سيناله ابنه؟ عمدة سيلك لا يدخّن ومَن ميل دادي؟ قــالت هيـد، المطرب الأصلي بفرقة بيربل تــون. وردّت مــاي، لا، مديـر ستراتر الشارع الخامس، لكنه في السجن، فهل يتلقــى الــنزلاء إرث الوصايا؟ مجرد سجلات حمقاء، فلم يحـدّدك بالاسـم، إذن ماذا؟ لم يذكرك مطلقا! ولم وهب سيارته بغطاء قابل للطيّ لمــن لا يستطيع القيادة؟ لست بحاجة لقيادة سيارة لبيعها، هذه ليســت وصية بل سجلَ مضحك! ركّزوا على دبابيس العنق والســيجار وقيمة سيارة 78s الآن ــ لم يطرحوا السؤال المركز، مَن هــو "طفلي اللذيذ كوسيه"؟ ادّعاء هيد كان قوياً ــ خاصةً وأنها تنـادي زوجها بابا؟ ولو تكلّمنا بيولوجياً، لكانت كرستين هــي "الطفـل" الوحيد الباقي، ادعاؤها بنسب الدم يساوي ادعاء هيد كأرملــة. أو هكذا فكرت هي وماي. لكن سنين الغيــاب دون تــاريخ عمـل بالفندق عدا صيف واحد، تضعف وضعية كرســتين الهامشــية. فحصت المحكمة قائمة الطعام المشحّمة كأنها تتســلّى، تمـهلت بتوانٍ لدى آثار سلَطة كرنب برائحة أناناس ولحم مطهو بســمن، وأنصتت لثلاثة محامين، ثم حكمت مؤقتاً (حتى يتم التثبّت مــن دليل آخر) أن هيد هي "طفلي اللذيذ كوسيه" وفقاً لمفردات سكّير.

فكرت المحامية جندلين ايست بشيء آخر عموماً، فــأخبرت كرستين مؤخراً أن أساس النقض باستئناف الدعوى واعد. قالت،

fb/mashro3pdf

هناك وقت للمراجعة، حتى دون دليل مطمئن. وظلت كرستين تفتش سنوات عن دليل ــ بالفندق، المنزل ــ فلم تعثر على شيء (عدا آثار قمامة من جنون ماي). لو كان هناك شيء آخر ــ وصية حقيقية، مصنّفة مفهومة ــ فستكون بأحد أدراج هيد الكثيرة المغلقة وراء باب غرفة نومها، المغلقة حتى ليلاً خشية "الدخلاء". لكن الموضوع عاجل الآن. لا مزيد من انتظار حتى تموت الأخرى، أو تقاسي على أقل تقدير من أزمة قلبية توهنها. هناك الآن عنصر ثالث هجين. وظّفت هيد فتاة. تعينها على تدوين ذكرياتها، قالت ذلك جينيور فيفيان عند الإفطار صباحاً. رشرشت كرستين قهوتها من فمها حين فكّرت بكلمة "تدوين" المتعلّقة بمن ترك مدرسة منذ أقل من خمس سنوات. ابتسمت جينيور وهي تغرف شرائح الجريب فروت بنطقها "ذكريات" كما تنطقها هيد الأمية. قالت جينيور "عن عائلتها". أيّ عائلة، استفهمت كرستين. عشّ فئران الشطّ التي تستحم في برميل وتنام بملابسها؟ أم تدّعي نسب دمٍ مع كوسيه وفقاً لأرض كوسيه؟

بعد أن ازدردت كرستين ما صرّحت به لها الفتاة، انسحبت إلى شقتها ــ غرفتان وحمّام ملحق بمطبخ، مأوى خادمة كانت تقيم فيه إل. ونقيضاً لباقي المنزل المحتشد بالذكريات وسقط المتاع، كان المكان هادئاً منظّماً يستدعي السكينة. بدت الشقة، عدا قدور النباتات المُستنقَذَة من الطقس العنيف، كما كانت منذ نحو خمسين عاماً حين اختبأت تحت سرير إل. تخفّت بأوراق

fb/mashro3pdf

البيجونيا الاستوائية، عاجزة عن أيّ تصـرّف جديـد، فقـررت استشارة محاميتها. انتظرت حتى أوشك حضور رومن وكـانت جينيور أبعد من مرمى البصر بالطابق الثـالث. لبسـت علـى الإفطار مبكراً، ملابس أقرضتها إياها هيد (بذلة حمراء لم يرهـا أحد علناً منذ حرب كوريا)، بدت جينيور كمهاجري الأحد. عـدا الحذاء، فقد غاض جلده من البارحة، كأنه من شميم حياة الشوارع التي جلبتها معها للمنزل. كرستين شاهدت رومن يتسـكع عنـد الشروق، يفتش عن التلف الذي أحدثه الثلج بجنبات الشجر، نادته ليعينها في رفع باب الجراج الملتصق بالثلج، ثم دعتـه ليغسـل السيارة. حين انتهى مما يفعل، قادت سيارتها متعجلة قـدر مـا تستطيع لتصل إلى جندلين ايست قبل أن يُغلَق مكتب المحامية.

كان تورّط كرستين مع القانون منوّعاً حتى اقتنعت أن جندلين ليست على قدر الثقة. فالمحامية تعرف المحاكم لكن لا تعـرف شيئاً عن الشرطة ـ النجدة أو الضرّ الذي يستطيعون إحداثه قبل وقت طويل من استشارة محامية. الشرطة التي جرّتها بعيداً عـن الكاديلاك المشوهة، كانت مثل عمدة سيلك، مهذبة محترمة، أمـا عنفها فلم يكن غير قابل للفهم فقط بل مبرراً. تعاملوا معها كامرأة أهانت طفلاً مزعجاً أكثر من سيارة. غلّوا يديها من الأمـام، لا خلف ظهرها ـ بشكل رَخو. حين جلسـت بسـيارة الدوريـة، عرض عليها الرقيب سيجارة مشتعلة ونزع نثرة زجـاج النـور الأماميّ من شعرها. لم يقرص الضابط حُلمتيها أو اقترح مـاذا

fb/mashro3pdf

تُجـــدي مَهمَـــة هجومية لعدالة عنصرية. المرّة التي حاولت فيها إتـــلاف إطـــار بقدّوم بدلاً من مطواة في يدها، عاملوها كامرأة بيضـــاء. لم يكن معها بالتوقيفات الأربع السابقة ــ أفعال إحراق عمـــديّ، التحريض على تشويه مستديم، إعاقة مرور، ومقاومة توقيف ــ شيء مميت بيدها لكنها عوملت كقذر بالوعات.

توصلت بتفكيرها إلى أن كل علاقة جادة كانت تفضي بها إلى الســجن. بدايـــةً، ايرني هولدر الذي تزوجته في السابعة عشرة، قُـــبض عليهما بنادٍ اجتماعيّ غير قانوني. ثم فروتْ الذي قامت بتوزيع كتيباته وعاشت معه أطول فترة، قُبض عليها ثلاثين يوماً دون اشـــتباه، للـــتحريض علـــى تشويه مستديم. وطفت علاقات أخـــرى ثـــم خلدت إلى دراما يطلق عليها القانون أسماء دقيقة: الســبّ يعنـــي إهانـــة ضابط؛ خلع ذراعيك من غلّ القيود يعني مقاومـــة توقيف؛ إلقاء سيجارة قرب سيارة شرطة يعني التجسس لحرق ممتلكات عمداً؛ الركض بالشارع بعيداً عن شرطة الفرسان يعني إعاقة مرور. أخيراً د. ريو. كاديلاك. قدّوم. توقيف لطيف، مقـــاوم تقريـــباً. بعد انتظار ساعة، دون اتهامات ضاغطة، دون تسجيل محضر أو اجتماع، سلّموها كيس تسوّقها وخلّوها تروح.

تروح إلى أين؟ تساءلت وهي تنسلّ إلى الشارع. طُردت من شـــقتها (شـــقته) بعد دقيقتي إرجاء مراقَب لتنال محفظتها. قالوا، ممـــنوع اســـترداد الملابـــس من التوقيف، لكن تركوا لها بعض ملابســـها الداخلـــية وكيس أدوات تجميلها، فيه ملعقة واثنا عشر خاتمـــاً ماسياً، فلم تُسجّل كسفاحة لها محامٍ. بعيداً عن الخواتم قد

fb/mashro3pdf

تموت أو تُرتهن عند آخر، فألغت مؤخراً الماستر كارد وسبعة دولارات غير نقدية. وحيدة كما كانت في الثانية عشرة ترقب الأمواج وهي تطوي قلعتها الرملية. لم تخاطر إحدى صديقاتها المقربات بإغضاب د. ريو؛ أما غير المقربات فضحكن سراً على سقوطها. سارت إلى منزل مانيلا فأقنعتها باستقبالها نزيلاً. عدة أيام فقط. مجاناً. كان الطلب صفيقاً مغامراً، فلا تدير مانيلا منزل عاهرات، كما يصفه بعض المرائين. بل تؤجر ببساطة غرفاً ه هو. حتى إن لم تكن من تلك الفتيات الس، المرتحلات. نسوة لديهن زوار مترددون أو مستديمون لسنوات فليس هذا من شأن مانيلا.

كانت هذه المستلزمات عند كرستين في 1947. وجّهها سائق باص إلى 187 بالشارع الثاني "قرب مصنع الزجاج، ابحثي عن باب قرنفليّ"، سيان تفهّمها أو أساء فهمها. سألته إن كان يعرف منزلاً يؤجّر غرفاً فأعطاها عنوان منزل مانيلا. رغم الفارق بين قفازيها الأبيضين وقبّعتها الصغيرة عديمة الحواف ولؤلؤها الهادئ وياقة بيتر بان المشقّقة وأزياء فتيات مانيلا، إلا أن يأسها كان معادلاً لهن. حين نزلت من التاكسي صباحاً كانت في التاسعة والثلاثين. بدا المنزل نموذجياً. هادئاً. مرتباً. ابتسمت مانيلا لحقائب سفرها الأربعة وقالت "تفضّلي ادخلي". شرحت الفئات ونظام المنزل والسياسة الخاصة بالزوار. كان وقت غداء قبل أن يتّضح أمام كرستين أن الزوار زبائن.

أدهشها أن صدمتها كانت ضعيفة. وخطّطت لتجد عملاً بالسكرتارية أو أحسن، عملاً مرفوع الأجر بعد الحرب في

fb/mashro3pdf

مصنع. كان ذلك مباشرة بعد حفل عيد ميلادها السادس عشر الذي فات موعده وتخرّجها في ميبل فالي، حطّت بمكان تدعوه أمها "ماخور نتن" (كما في "هل سيحيل هذا المكان إلى...").

ضحكت كرستين. بعصبية. فكرت، هذه مقاطعة سلشيال، وهي تتذكر امرأة بوجه مُقرّح على الشط. كانت الفتيات يسرن بتؤدة من غرفة الطعام إلى غرفة المعيشة حيث تجلس كرستين، يمعنّ بملابسها، يتكلمن فيما بينهن لا معها. يذكّرها هذا باستقبال ميبل فالي: امتحان صعب وشامل؛ أسئلة متعبة، عدائية نوعاً. حين أغرتها بعض فتيات مانيلا بالحديث ــ "من أين أنت؟ هذه قبّعة جذّابة. حذاؤك رشيق أيضاً، من أين أتيت به؟ شعرك بديع" ــ زادت التشابهات. تحدثت الصغريات عن مظهرهن ورفاقهن؛ وأدلت الكبيرات بنصائح مريرة عن كلّ منهن. في ميبل فالي، لكلّ واحدة دور، وتهيمن عقيلة المكان على المسرح. لم تهرب من شيء. كانت الأماكن الثلاثة: ميبل فالي، فندق كوسيه، بيت عاهرات مانيلا ــ تطفو بتوتّر جنسي وامتعاض؛ الثلاثة موسومة بالحجز؛ ومعضلة الثلاثة المال. كلها مرتّبة لراحة حاجات الرجال الضاغطة. وكان هروب كرستين الثاني استهلالاً لحياة منزلية انقلبت نحو شيء خطير، تغذّت بحلم عزلة، حلم استقلال. أرادت تنظيم قواعد، تخيّر صاحباتها، الكسب والسيطرة على مالها الخاص. ظنت لهذه الأسباب وحدها أنها لن تمكث بمنزل مانيلا، لكن لم تعرف، فكونها ملوّنة خلال عَقد 1940 بتعليم لم

fb/mashro3pdf

يكن يؤهلها لشيء غير أن تصبح زوجة، ظلت سهلة مثل كعكة نالها ايرني هولدر ثم انقلب ضدّها بعد نحو ليلة. استقلال طويل؛ عزلة طويلة؛ أخذها لتخرج من هناك إلى تنظيم بأدنى خصوصية وأكثر قواعد وأقلّ اختيارات: أضخم كينونة ذكرية في العالم.

جاء ارنست هولدر إلى منزل مانيلا متوقعاً شراء بعض المرح فوجد فتاة جميلة في بذلة بحريّة مزينة بلؤلؤ تقرأ مجلة لايف على كنبة. قبلت كرستين دعوته للعشاء. ومع الحلوى خطّطا. رغبة مُلحّة كالقدر. راحا كزوجين، واستمتعا بوقتهما. ومضى الوقت سخيفاً، كالزواج.

ركنت كرستين فشدّت المرآة الأمامية إلى الأسفل لترى إن كانت طلّتها حسنة. حركة لم تعتد عليها، لكن فعلتها بسبب زيارتها الأولى لمكتب جندلين ايست. قرب دخول المبنى، شعرت بطَرق على كتفها. امرأة بكاب كرة سلّة وبذلة رياضة فضفاضة عليها.

"أنت كرستين كوسيه؟"

"أنا".

"عرفتُكِ. كنت أعمل عند كوسيه. من زمن بعيد، بعيد".

"هكذا؟"

"أذكرك. صاحبة أجمل ساقين بالشطّ. عزيزتي، كنت دائماً رشيقة. جلدك، شعرك البديع. أراك لا زلت تحتفظين بهاتين

fb/mashro3pdf

العينين، رغم كلّ شيء. يا إلهي، كنت رائعة ماكرة. ألا تذكرينني أقولها لك؟"

قالت كرستين "طبعاً لا. فالقبيحات يعرفن كلّ شيء عن الجمال. ضروري لهن".

لم تنظر خلفها لترى إن بصقت المرآة أم ضحكت. في زياراتها اللاحقة لمكتب المحامية، لم تكبح نفسها عن تفحّص المرآة. "شعرك البديع" يحتاج قصّة على الموضة ـ أي موضة. لم يتخدّد جلدها بعد، لكن "هاتين العينين"، أصبحتا جاحظتين باطنيتين، كأنهما تنتميان لشخص آخر.

لم ترحّب بها جندلين ايست. فالمكتب منظّم المواعيد. ودخول كرستين كالاستراحة.

قالت كرستين "تحرّكي"، وهي تجذب كرسياً لتقرُب من المكتب. "هناك شيء يدور".

سألت جندلين "عفواً؟"

"الوصيّة. يجب أن نوقفها".

قرّرت جندلين أن تشجيع الزبونة الهائجة أمر تافه فلم تنل أجرتها حتى الآن. "اسمعي، يا كرستين. تعرفين أنني أساندك، وربما القاضي أيضاً. لكنك تعيشين هناك، مجاناً بدون تكاليف. والحقيقة التي تُقال إن السيدة كوسيه ترعاك مع أنها خلو من أيّ التزام نحو ذلك. وحصيلة مكافأتك بالأملاك تخصّك فعلياً على أيّ شكلٍ كان الكلام. ربما الأفضل...".

fb/mashro3pdf

"ماذا تقولين؟ قد تُلقي بي للشارع أيَّ يوم تريد".

ردّت جندلين "أعرف، لكن بعد عشرين عاماً لن تستطيع. ماذا تتصورين؟"

"أتصوّر العبودية".

احتدّت جندلين "تعالي، يا كرستين. أنت لا تعيشين في مصحة أو إنعاش..."

"إنعاش؟ إنعاش!" همست كرستين بالكلمة أولاً، ثم صرخت. "انظري. لو ماتت فمن سينال المنزل؟"

"أيا من تعيّنه".

"أخ أو ابن أخ أو ابن عم أو مستشفىً، صحيح؟"

"أيا كان".

"ليس حتماً لي، صحيح؟"

"فقط لو أوصت به".

"لا ضرورة من قتلها إذن؟"

"كرستين. أنت تمزحين كثيراً".

"اسمعيني. لقد وظفت واحدة الآن. فتاة. شابة. لم تعد تحتاجني".

قدّرت جندلين مشاعرها "طيب. تظنينها ستوافق على نوعٍ من عقد إيجار؟ شيء يضمن مكاناً للعيش هناك وإعالة بمستوىً معين مقابل خدمات؟"

fb/mashro3pdf

ألقت كرستين رأسها خلفاً فمسحت السقف كمن يفتش عن لغة جديدة يفهمها الآخرون. عليها ألاّ تُصعّب على نفسها ما تقوله للمحامية. عموماً، الآنسة ايست تعرف تاريخ اب بيتش، فهي حفيدة فتاة معمل التعليب التي عانت أزمة قلبية. طرقَت بإصبعها الوسطى بطيئاً مكتب المحامية لتشدد على كلمات معينة. "أنا آخر من بقي من نسب وليم كوسيه. وقد اعتنيت بمنزله وأرملته مجاناً مدة عشرين عاماً. كنت أطبخ، أنظّف، أغسل ملابسها الداخلية وملاءاتها، أتسوّق "

"أعرف".

"لا تعرفين شيئاً! لا تعرفين! فهي تستبدلني الآن".

"تريّثي".

"تستبدلني! ألا تعرفين أنها هكذا طول حياتها؟ تسعى للتخلّص مني. أنا الأخيرة دائماً؛ يقال لها روحي اخرجي كل مرة".

"كرستين، من فضلك".

"هو مكاني. أقمت فيه حفل عيد ميلادي السادس عشر. وحين طُردت من المدرسة كان عنواني. أنتمي إليه ولا يقدر أحد أن يزيح ما عندي من قائمة طعام ملطّخة بخمر، ليُخرجني منه!".

"لكنك هجرت هذه الأملاك سنوات "

"خسئتِ! فأنت لا تعرفين الفرق بين بيت أملاك وبيت توديـن لو صفعوك على وجهك فيه، أنت غبية مغفلة، من قمامة معمل التعليب! سأفصلك!"

fb/mashro3pdf

هناك فتاة صغيرة تربط عُقداً بيضاء في ضفائرها الأربعة. لها غرفة نوم تحت عليّة فندق كبير. لتتغاضوا عن ورق الحائط المتهالك. كانت تترك صديقها الجديد أحياناً يقيم فوق ويضحكان حتى ينتابهما الفُواق تحت الملاءات.

جاءت أمّ الفتاة ذات يوم لتُخبرها بضرورة أن تغادر غرفة نومها لتنام في غرفة أصغر في طابق آخر. حين استفسرت من أمها عن السبب، قالت لتحميها. فهناك حاجات لا يجب أن تراها أو تسمعها أو تعرف عنها شيئاً.

ركضت الفتاة هاربة. سارت ساعات على درب برائحة البرتقال حتى عثر عليها رجل ذو شارة وقُبّعة مدوّرة كبيرة فأخذها إلى بيته. من هناك قاومت لتستردّ غرفة نومها. رقّت أمّها، فأدارت المفتاح بقفله لتنام في غرفة نومها ليلاً. بعدها طُردَت فوراً، بعيداً عن حاجات لا يجب أن تراها أو تسمعها أو تعرف عنها شيئاً.

لم يرِ أحد بكاءها غير ذي الشارة والقبّعة المدوّرة. لم يره أحد بتاتاً. جفّت عيناها اللتان "لا زلت تحتفظين بـ". وكانتا تريان لأول مرة، العالم الغادر الذي عرفته أمّها. بغضت أمّها بعد طردها من غرفة نومها، وحين أعادها العمدة صفعت وجه كرستين بعنف حتى ارتطم ذقنها بكِتفها. أرسلتها الصفعة لتتخفّى تحت سرير إل يومين، فطُردت إلى مدرسة ميبل فالي، حيث وَهَنت هناك سنوات بينما أمّ مثل ماي هي العائق. ينزعج معلمو

fb/mashro3pdf

ميبل فالي من طرد الزنوج، لكنهم أجفلوا منفتحين بعد قراءة رسائل ماي المشوّشة في أتلانتا ديلي ورلد عن "الشرف" الأبيض و"طرق الحرية" المضلّلة. وسعدت كرستين أن تقتصر علاقتهم على رسائل تستطيع إخفاءها أو إتلافها. لم يكن يثير اهتمام فتاة في الثالثة عشرة ترغب أن تكون أليفة، غير إشاعة صغيرة عن ضيوف مشهورين، وبمرور السنين لم تفهم مغزى هذه الرسائل. تسخر كرستين الآن من جهلها، وانظروا لما كتبت ماي بالشفرة: تقيم كور في شيكاغو (من هذه الكور؟)، موسوليني استقال (استقال ثم ماذا؟)، ديترويت تشتعل. هل هتلر قتل روزفلت أم روزفلت قتل هتلر ــ وعموماً مات كلاهما بالشهر نفسه. معظم الرسائل عن تصرفات هيد. مؤامرات، مكائد. فهمت أمّها أخيراً. كان العالم الذي عرفته ماي متقوّضاً دائماً؛ مكانها فيه غير آمن. ماي ابنة كاهن جائعة بائسة، رأت حياتها تعتمد على ملونين يؤرجحون قواربهم في البحر. بدأت الأحداث في 1942 حين تزوج حموها للمرة الثانية، تراكمت بسرعة إبان الحرب وبعد بوقت طويل، ارتكبت بمقاومتها عنصراً محدداً بمنزلها وما وراءه، صارت شيئاً كوميدياً. ظنت كرستين أن لو لم تكن غرائزها على هواها لعاشت سليمة. فقد غزوا عالمها واحتلّوه فاستحالت إلى غثاء السيل. كانت تنسلّ دون احتراز أو حماية منظّمة بعيداً عنك، خلّت قلبك يرتجف كمعبد نابض، فتسرعين على الدرب الذي خسر حِمضياته.

fb/mashro3pdf

قرّر الجميع أن أمها مجنونة وخمّنوا السبب: الترمّل، فـــرط العمل، لا جنس، لجنة التنسيق ضدّ العنف. لم تعش شيئاً كـــهذا. الوضوح معضلة ماي. مع 1971، عادت كرســـتين لحضـــور جنازة كوسيه، وكان وضوح أمها قد تراكم عبر السنين. فـــانقلب من قسوة معتدلة تستعرض هوس السرقة إلى ألمعية صريحـــة. تُغطّي نوافذَ غرفة نومها رقائقُ خشبية بطلاء أحمر لدرء الخطر. أشعلت حرائق حذرة بالشعل. خرّبت كلّ شيء مع عمـــدة ســـيلك حين رفض شراءها بندقية. كان والد عمدة سيلك يسمح لها، لكـــن ابنه ينظر نظرة مختلفة للزنوج إن كانت معهم بنادق، رغـــم أن كليهما يودّ إطلاق النار على الناس عينهم. أدركت كرســـتين الآن أن فهم ماي للوضع عميق. كانت محقة في 1971 وهي تهزأ من سترة كرستين العسكرية الزائفة، بيريه من نوعية شي(7)، قميص بهلوان أسود، جونلة قصيرة جداً. ماي حادة كأسنان النمر، تنظّـم فوراً الصفقات الحقيقية، كمن يتخلّص من ملابسه. ضحك الناس. ثم ماذا؟ اتّخذت ماي خوذة عسكرية بوضعية جديرة بالثقة كأنـــها بيان فعال. حتى في الجنازة، حين حفزتها إل لاستبدالها بوشـــاح أسود، ظلّت تحملها تحت ذراعها، عكس ما كانت تظن كرستين، كانت شيئاً حقيقياً يمثّل نوعاً من حماية مطلوبة فـــي أيّ وقـــت بمنطقة يحتلّها الأعداء حيث تعيش مـــع كرســـتين الآن. هنـــا، الاستعداد على أشُدّه. ثم أحسّت كرستين ثانية بمرارة كاملة طيلـــة عقدين سالفين وهي تتسكّع صعوداً ونزولاً على السلالم حاملـــة

fb/mashro3pdf

وجبات تفخر بإتلافها، تخوض عبر طبقات عطـــور متباريـــة، تحاول ألا ترتجف أمام عيون "مغوية" بلوحة فوق فراش غريـب الزخرفة، تجمع ملابس متّسخة، تغسل البانيو، تجذب الشَعر مـن المصرف ــ إن لم يكن هذا هو الجحيم، فهو مدخل إليه.

تريد هيد منذ وقت طويل إبعاد ماي، لكنه حُكم إل، وكان أكثر قمعاً من حُكم كوسيه، فيحجزها. بعد قراءة قائمة طعام "الوصيـة" تكيّفت مع الوضع، وكوفئت "زوجة بيلي بـــوي" بـالفندق، ثـم طُرحَت هيد مباشرة عن الكرسيّ.

"قشرة بندق؟ عهدَ بتجارتنا إلى قشرة بندق؟"

بدا أمراً قبيحاً وظلّ هكذا حتى ضربت المحاميـــة الطاولـــة، مؤكدة إلى هيد أنه ليس لأحد (بمقدوره؟) أن يكفّ يدها عن إدارة الفندق. كانت محتاجة، كما أن زوجها أورثها المنزل والنقديّـــة. ومتى قالت ماي، وهي تضبط خوذتها "أستميح عفوك اللعين؟"

تلا الاتفاق نسخة مصفّاة من تلك التي تسلقها النساء عادة فـي البداية: فقد استُبدلت كلّ واحدة بأخرى؛ كلّ لديها ادّعاء فريد بنَيل عاطفة كوسيه؛ كلّ "أنقذته" من كارثة أو أراحته من وعيد. الفارق الوحيد بمشاجرة قبل الدفن كان لصالح إل، فقد بدا صمتها المعتاد فاتراً حيث لم يُظهر وجهها أيّ تعبير، دون إنصات، دون تقمّص عاطفيّ ــ لا شيء. كانت إل تتمتّع بميزة لامبالاة ظاهرية، حتى حين صرخت هيد بأنه لن يُسمَح للضعفاء لحاجتهم إلـى رعايـة "متكاملة". ثم كان وصول الحانوتي الذي أعلن ضرورة الرحيـل

fb/mashro3pdf

العاجل للكنيسة، فلم تعد قبضة هيد مهيمنة. مؤقتاً، ففـــي موقـــع المقبرة رأت دموع هيد الزائفة ومنكبيها يرجفان بصورة مبـــالغ فيها؛ راقبت أهل البلدة وهم يعاملونها كمُعـــزٍّ وحيـــد، بينمـــا لا يرحبون بامرأتي كوسيه الحقيقيتين كزوار غير مرغوب فيـــهما؛ فغضبت من إعاقة محاولتها وضع الماس بأصـــابع كوســيه ــ وانفجرت كرستين. توصلت إلى نطاق هيد، نطّت نحوها بـــذراع مرفوعة، لكن إل عادت فجـــأة إلـــى الحيـــاة، ومـــالت خلفـــها. "سأحكي"، همست لأحد أو اخر أو لشخص غير محدد. مدّت هيد وجهها قرب وجه كرستين حين أحسّت بالأمان، ثم تراجعت. لـــم تقل إل شيئاً ذا جدوى. لم تودّ كرستين كشف تفاصيل كثيرة عـــن حياتها الحزينة. كانت تعاملها بضغينة وســـخرية. دون شـــفقة. أغلقت المُدية مذعورةً، ثم قرّت في سطوع بـــارد. لكـــن ــ لـــمَ أذعنت هيد بسرعة؟ ممّ تخاف؟ فهمت ماي المطلـــوب فســـاندت فوراً ابنتها. سارت إلى الأمام بحرارة ماكرة، نزعت عن هيـــد قبّعة "ذهب مع الريح" ورمت بها في الـــهواء. ضربـــة ســـديدة. فتحت قهقهة أحدهم فضاءً طاردت فيه هيـــد قبّعتـــها وكرســـتين باردة.

كانْ عرضاً مبتذلاً، استخفاف أنانيّ بطقـــوس الفقيـــد الـــذي يتوجّب تكريمه من الجميع، غضب الناس، وصرّحوا بغضبهم. ما لم يصرّحوا به كان مقدار بهجتهم من هذه التسلية جنب المقـــابر بتصوير بيريه وقلنسوة وخوذة. رغم أن رمي قبّعة هيد الســـخيفة

fb/mashro3pdf

بعيداً بدا في ذلك الحين كنزع تاج عن ملكة زائفة أمام العالم، إلا أن ماي امتلكت وضوحها بأبهى تجلّيه. حدث هذا من قبل حين سعت إلى الفصل ما بين الاثنتين وهما فتاتان صغيرتان. عرفت تحديداً أن الدخيل ثعبان: مارق، مُقوّض، مُلطخ، مُفترس.

طبقاً لرسائل ماي، لو عدنا بعيداً إلى الوراء إلى ١٩٦٠، بدأت هيد بحثها عن وسائل لإيداعها مصحة أو ملجأ. لكن هيد لم تفعل ــ لم تنشر أكاذيب، تخترع إهانات، تلجأ لاستشارة مؤسسات نفسية ــ مما يُجبر ماي على الخروج. وبمراقبة إل وحدها، فشلت هيد. أُجبرَت على الإقامة مع وضوح المرأة المذهل، وكانت تكرهها تقريباً مثل كرستين. لم تنته حرب ماي بوفاة كوسيه. فقضت عامها الأخير تراقب نشوانة يدَي هيد القادرتين تستحيلان إلى جناحين بطيئين. لا يزال حلّ مشاكل هيد مع ماي أفضل شيء، فكرة جيدة موجّهة لشخص خطأ لكن لا تزال جيدة. كما أن إل راحت. المستشفيات مضيافة. وبقليل من التملّق الآن، يصبح هناك شريك.

ماما البائسة. ماي العجوز البائسة. تواصل حماية ما يخصّها، كلّ ما تفكّر فيه أنها مجنونة مثل ثعلب. زوجها ميت؛ فندقها مفتّت تديره فأرة شطّ ضارية، تجاهَلها الرجل الذي استعبدته، هجرتها ابنتها إلى أفكار غريبة، أصبحت نكتة سارية لدى الجيران ــ لا مكان عندها ولا تعوّل على شيء. علمت بالحرب المعلنة عليها وقاومتها وحدها. بخزين مثابرتها. بخنادق حفرتها

fb/mashro3pdf

قرب نيران الحراسة على حافة البحر. عزلة أساءت فهم الذكاء الذي شكّلته وتحكّمت فيه بيئتها. تفكّر الآن في ذلك، فقد كان ماضي كرستين الفوضوي ناتج الكسل ـ الكسل العاطفيّ. تظنّ نفسها دائماً ملتهبة نشطة، لكنها على النقيض من ماي، كانت محركاً ينضبط ببساطة مع ناقل الحركة الذي يختاره السائق.

. لا أكثر.

رَجُلي الآن هو البحر. يعرف متى يتراجع مقوّساً ظهره، متى يكون هادئاً فيراقب امرأة ببساطة. قد يراوغ، لكنه ليس زائف القلب. روحه عميقة هناك في القاع ويقاسي. أنتبه فأعرف عنه كلّ شيء. نوعية تفاهم تأتي فحسب من الممارسة، وكان عندي المزيد منها مع السيد كوسيه. قد تقول إنني سبَرتُ عقله. لكن طبعاً ليس إلى بعيد. كنت مجرد فتاة تذهب إلى العمل من أجله ـ متزوج لديه ابن وزوجة مريضة تحتاج للرعاية كل دقيقة من النهار والليل. جوليا، نطق اسمها بنعومة تحسّ معها برقّته كاعتذار. كان ابنهما، بيلي بوي، في الثانية عشرة حين توفيت جوليا كوسيه، وكنت حينئذ في الرابعة عشرة فقط، والأكثر طبيعية في العالم بالنسبة لي أن أقيم معه وأرعاهما الاثنين. قلب واسع مثله يستطيع رعاية زوجة ويتبقّى لديه مساحة فراغ كبيرة. حين ماتت جوليا كوسيه، حوّل السيد كوسيه مشاعره التي يحسّ بها نحو ابنه. ولحسن الحظ، كان الولد يمتلك بصيرة يستخدمها الأطفال الأذكياء مع الكبار ليظلوا محطّ اهتمامهم. لا

fb/mashro3pdf

بفعل ما يقولون، بل بتصوّر ما يريدون. يقول بابا "صُن نفسك يا ولد" ويعني "لا تفضحني؛ لا تعجل فتفشل". أو يقول "سأعرّفك بالعالم" قاصداً "أنا خائف منك لدرجة الموت". لا أعرف ما قاله السيد كوسيه لابنه عبر هذين الخطّين، ومهما كان فقد فهم بيلي بوي ما يعنيه "كُن ما أودّ أن أصحو لأجله صباحاً؛ هَبني العزيمة وأنا أجذّف". لم يكن مهماً إن كان الولد طيباً أو شريراً. فقط يفهم. اختار النزعة الخيرية، وأشكّ أنها بالمصادفة. كان السيد كوسيه سعيداً بكل ما يفعله أو يقوله بيلي بوي. يبذّر عليه المال ويأخذه إلى كلّ مكان. بشعر مفروق من الوسط وكاب مثل كاب أبيه ـ يا لهما من اثنين. يتزيّن أحدهما في كرسيّ الحلاق، بينما ينتظر الآخر مع الزبائن بالمقعد؛ يجلس في المدرجات المكشوفة بملعب ايجل جيمس، على مقاعد مطويّة خفيفة بمسابقات الغناء في الخلاء، إلى موائد ضيقة بالملاهي الريفيّة حيث يعزف عازفون مهرة. ينامان في بيوت مؤجرة أو يطرقان على الباب فقط. قال السيد كوسيه إنه يريد من بيلي بوي أن يرى الرجال لحظة تمتّعهم بانقضاء عملهم، فذهبا إلى شارع بيرديدو لرؤية كنج اوليفر، وإلى ممفيس لرؤية النمور، وإلى برمنجهام لرؤية البارونات. شاهدا كيف يفحص الطباخون محاصيل السوق، النوتيّة وهم يخزنون المحار، سقاة الحانة، الأوغاد بصالات المراهنات، النشالين، قادة الجوقة. كل شيء درس معمليّ من رجل فخور بمهارته. قال السيد كوسيه إنها

fb/mashro3pdf

ثقافة الحياة الحقة، لكن بدا لي كالتهرّب من مدرسة أبيه. طريقة أخفق بها من دروس علّمها له السود.

لم تفسد الولدَ الرعايةُ المخبولة. عرف واجبه وانهمر فيه، وكان يبتسم حين يتباهى والده به أمام أصدقاء متثائبين. يفتخر بذراعه مع الكرة، وعقله بارد عندُ الطوارئ. كان يقتلع ظفراً محنياً من خدّ فتاة صغيرة أفضل مما يفعل طبيب. رأيت ذلك بنفسي. جلبت لهما غداء يريدانه يوماً وهما يضيّعان الوقت على الشط ــ يضربان الحصى في البحر بمضارب البيسبول. تحتهما إلى بعيد فتاة، ربما في التاسعة أو العاشرة، تلقي نفسها بالأمواج. لماذا، من يعرف. فلا شيء بحراشف كان يعوم قرب الشطّ. بعدها انقلبت الريح واصطادها شصّ صناعة منزلية. كانت أصابعها تنقّط أحمر عند وصول بيلي بوي. وصل رشيقاً وهي ممتنّة، وقف هناك يحفن وجهها دون دمعة أو أنين. لكننا أخذناها إلى الفندق على أي حال. أجلستُها بالشرفة، نظّفت خدّها وفرشت صمغ صبّار وعسلاً على الجرح، آملة أن تتحمّل الكزاز(8). كالعادة، أسقط السيد كوسيه القصة عبر الزمن. قد تظنّ معتمداً على مزاجه وشهوده إياها، أن سمكة "أبو سيف" كانت على وشك أن تسحب الطفلة إلى الماء لو لم ينقذها بيلي بوي. وقد نزع شصاً من مِحجر عين الفتاة. ابتسم بيلي لهذه الأكاذيب المُضخّمة، العالقة بالأذهان، واتّبع نصيحة أبيه في كل شيء، حتى الزواج: ليُزفّ إلى فتاة مخلصة، لا أنانية. فاختار

fb/mashro3pdf

بيلي بوي الزواج من ماي، لم يتصوّر أحد أنها قــد تمــزّق أو تنافس تلك الرابطة بين الأب وابنه. انزعج السيد كوسيه بداية، لا من اطلاعه على خيار ابنه، بل لكون العروس بسيطة لا تُلقي بالاً للفندق فقط بل تبين عن فهم ما يتطلبــه الرجــال رفيعــو المقام. لو كنت خادمة هناك، لكانت ماي عبدة. حياتــها كلــها توكيد على نيل رجال كوسيه ما يريدون. الأب أكثر من الابــن؛ الأب أكثر من ابنتها. وما أراده السيد كوسيه وهو أرمــل فــي 1930 كان مستحيلاً. كان ذلك في العام الذي بدأت فيه البــلاد تعيش مرتاحة على نمط معيشة أهالي آب بيتش ــ لــو كــانوا محظوظين، وتلك المعضلة. وإن لم يكونوا، لقتلوا أنفســهم أو تكيّفوا مع الحياة. اغتنم السيد كوسيه الفرصة، عموماً. فاشترى ملهىً "للبيض فقط" كان متقوّضاً في سوكر باي من رجل أميــن قال إنه رغم القسم بالله ورأس أبيه ألا يبيعه لزنــوج، أسـعده كالرخويات أن يحنث بقسمه فيبتعد بعائلته عن رصيف تغــزوه الطيور كالأعاصير.

من يظن أنه خلال طحن الأزمة الاقتصادية سيرغب الملونون في العزف، وإن عزفوا فكم سيدفعون؟ كــان الســيد كوســيه السبب. فقد عرف ما يعرفه عازف الهرمونيكا بزاوية الشــارع: حيث توجد موسيقى توجد فلوس. راجع الكنائس إن شككت فــي ذلك. كما ظنّ شيئاً آخر. فلو عومل العازفون الملونون جيــداً، لدُفعت لهم أجور جيدة، ولدُللوا، وسيُخبر بعضهم البعض عندئــذٍ

fb/mashro3pdf

عن مكان دخولهم، الباب الأمامي لا مدخل الخدم؛ يأكلون في غرف الطعام لا المطابخ؛ يجلسون مع الضيوف، ينامون بأسرّة لا بسياراتهم أو باصاتهم أو بمنزل عاهرات في البلدة. مكان فيه آلاتهم آمنة، مشروباتهم غير مسفوحة، مواهبهم مكرمة فلا يذهبون إلى كوبنهاجن أو باريس لنيل المديح. وستندفع أسراب الملونين لتتهيأ في ذلك الجوّ. من عندهم مال يدفعون؛ من لا يملكون سيبحثون. سيهدئ الجميع الظنّ أن الزنوج كلهم بؤساء، وينظرون بعين الاعتبار لمن ليسوا هكذا، من يكنزون مالاً كثيرا كمعجزة مخجلة. تعجب هذه الفكرة البيض فالزنوج أصحاب المال والشعور يثيرون أعصابهم. كما تعجب الملونين أيضاً، ففي تلك الأيام كانوا يثقون بالفقر، يظنونه فضيلة وعلامة أكيدة على النزاهة. للمال الكثير نفحة الشرّ ودم الآخر. لم يهتم بذلك السيد كوسيه. أراد ملعباً للناس يحسون فيه بما يفعل، يكشفون طرقاً لتكذيب التاريخ.

لكن الأمر كان خصوصياً: فستان سهرة بالمساء؛ ملابس خفيفة للرياضة. لكن لا ردنجوت[9]. أزهار بغرف النوم، كريستال على المائدة. موسيقى، رقص، ولو أردت فعليك الانضمام للعبة البطاقات حيث يتم تبادل المال بين حفنة أصدقاء ـ موسيقيين أو أطباء يستمتعون بخسران ما لا يستطيع معظم الناس كسبه. كان السيد كوسيه في نعيم، عندئذ. تعجبه ملابس جورج رافت وسيارات العصابات، لكن قلبه مثل بابا نويل. إن لم

fb/mashro3pdf

تستطعِ عائلة دفع ثمن جنازة، كان يكلّم الحانوتي بهدوء. وأبعدت صداقته مع العمدة صفد يدي أكثر من ولد بالأغلال. وتعهّد صامتاً لسنوات بدفع فواتير طبيب لامرأة أُصيبت بأزمة قلبية مع مصاريف كليّة حفيدتها. في تلك الأيام، كان صاحب مقام مخلصاً غيوراً وغلّة الفندق تُنعم على الآخرين.

تربّت ماي كابنة كاهن ذات طبع حلو، على العمل الشاقّ وأداء الواجب، واعتادت العمل كنحلة تجمع اللقاح. بداية كان كلانا يتولى المطبخ، مع أعباء بار بيلي بوي. حين اتّضح أني ملكة الطبخ، استدارت هي لإدارة الممتلكات ومسك الدفاتر وتدبير المؤن وحجز الموسيقيين لزوجها. أظنني أستحق نصف الضمان المالي لما نما عليه الفندق. طعام جيد مع شراكة تدوم طول العمر مع فاتس وولر. ستُعجبك ماي. فهي التي ترتّب كل شيء، تتخلّص من البياضات، تسدّد الفواتير، تسيطر على المستخدمين. أنا وهي نحبّ تأخير الساعة. لتفادي أن يبلغك وجه السيد كوسيه أن الوقت حان.

ونحن عائلتان فقط، كانت الأمور على ما يرام. بعد وصول الفتاتين للمشهد ـ كرستين وهيد ـ بدأت الأمور تهترئ. أعرف "الأسباب" المعلنة: رائحة معمل التعليب، الحقوق المدنية، الدمج العنصري. وكان سلوك ماي غريباً في 1955 حين حاول ذلك الولد من شيكاغو التصرّف كرجل فضربوه حتى الموت تفادياً لمتاعبه. ووضع ردّ مسيسبي حداً للتمييز العنصري وأيّ شيء

fb/mashro3pdf

كان يُهين جنسهم. ارتجفنا جميعاً مما فعلوه بالولد. كانت عيناه خفيفتين. لكنها بخصوص ماي مجرد علامة. أرسلتها للشط حيث لم تدفن فقط صكّ الملكية العقارية بل بطارية النور ويعلم الله ماذا أيضاً. أي زنجيّ اليوم يعكّر صفو البيض المراقبين، يمنحهم المبرر لشنقه وإغلاق الفندق كلياً. كان السيد كوسيه يزدري خوفها. أخمّن أنه كان قرب المنزل. نضج الابن كأضحوكة، وكان يرقص طيلة الوقت بعنف. سواء ازدهر المكان أم لا، إلا أنه بدأ التدهور قبل 1955. تنبأت بذلك في 1942 حين جمع السيد كوسيه ثروة وأحكم قبضته على الفندق كمكان استعراض. أترين النافذة العالية هناك؟ تطلّ على فردوس صنعناه أنا وماي، وحين مات بيلي بوي اشترى السيد كوسيه كرسيّ الحلاق الذي كانا كلاهما يتبادلان دورهما عليه، وبعد عام أو نحوه جلس وحده فيه. أدار محركه فجأة، فطلب آنية مائدة فضية، وانضم لنا بإدارة الفندق الذي كانت تستمتع به الطبقة العليا. كلب جميل. في تلك الأيام، حيث كان يلبس الرجال قبعات ـ ورجل بقبعة يبدو وسيماً ـ كان شيئاً يستأهل الرؤية. تتبعه النساء حيث يروح وتنفتح عيناي على من يختار. تقلقني على أدوات المائدة الفضية فقد كان ينتقي نسوة طارئات مصادفة. لكن لو كانت المزدوجة تعني سلشيال كوسيه لفقد أعصابه. خرجت عن نطاقي في 1942 حين رأيت اختياره. الحق يقال كان يحتاج أولاداً، أولاداً كثراً، لملء الصورة بما كان

fb/mashro3pdf

يفعله بيلي بوي. كانت فتاة جديدة تفعل فعلها، لوجه الأمومـــة. بعد أن لعب بذيله فترة، انتهى الحال بالسيد كوسيه إلى مكـــان أكثر احتمالاً بولادة أطفال وأقل احتمالا بوجود عذراء. فـــي آب بيتش، نعي تقرأه النساء "وفاة مع أطفال". وضع زواجه من هيد لبنة الخراب. انظروا، اختار فتاة تكلم معها فعلا. لم يعهد بـــها أبواها لأحد. قمامة تخلوا عنها كما يفعلون بكلب مدلل. لا. لكني رأيتها متعلّقة بـــ كرستين وكرستين متعلّقة بها. لو كان أملـــه تغيير النسب الذي حاول تقويمه، فقد فشل. لم تمنحه هيد فـــرخ ضِفدع، وكمعظم الرجال ظن الخطأ خطأها. انتظر سنوات علـــى الزواج قبل أن يعود إلى حبيبته الأثيرة، عاد إلى سلشيال التـــي هجرها. قد تظنّ السبب أن إحدى نسائه ضربتها أزمة قلبية بعد أن غرست نفسها في الرمل معه، وهكذا كـــان يتجنّـــب الشـــطّ كمحيط متعة. لكن ليس هكذا. فقد قضى ليلة زفافه هناك، ممـــا يثبت أنه يحبّ المكان. سواء كان الطقس جيداً أو عفنـــاً. أنـــا أيضاً.

لم يكن البعوض يعشق دمي. وأنا صغيرة ضـــايقني الأمـــر، لكن لم أفهم أن الرفض نعمة. فترى السبب أني أحبّ السير على الشطّ بطريقي للعودة مهما كان الجوّ رطبـــاً وحـــاراً. الســـماء فارغة الآن، ممحوّة، وبعدها درب اللبّانة شائعٌ كالقَذَر. ضـــوءه يجعل كلّ شيء شاشة أبيض وأسود فاتنة. لا يهم موقعك بالحياة أو حالتك العقلية، فأن تكون لديك سماء محزّمة بالجنون يجعـــل

fb/mashro3pdf

ليلتك وافرة الثراء. وهناك بحر. يقول الصيادون، الحياة أسفله شبيهة بأوشحة الزفاف وعقود الذهب بأعين ياقوتية. يقولون، حياة البحر تجعلك تفكر بياقات معلّمي المدارس أو مظلات النساء المزهرة. ذلك ما فكرتُ فيه بليلة حارة بعد احتفال عيد ميلاد مؤجّل. كنت أحب ذلك ذهاباً وعودة، وهكذا ظللتُ بمنزل أمي في آب بيتش. كنت في طريق عودتي تلك الليلة متعبة ككلبة، حين رأيت السيد كوسيبه بحذائه في يده يسير شمالاً عائداً للفندق. كنت، أصعد خطّ العشب، على أمل أن أستنشق النسيم فعّالا فيقضي على روائح الدخان والسكّر الصادرة عن زيّي الموحّد. كان يتقدم إلى أسفل، خائضا بالأمواج. رفعت يدي وبدأت أنادي عليه، لكن شيئا أوقفني ـ طريقة لفت رأسه ربما، أو عزلته التي تلفه. أردت تحذيره، لكن نظراً لتعبي من كلّ شيء لم أراوح سيري. تحت بقعة رأيتُ شيئاً آخر. امرأة تجلس على بطانية تمسّد رأسها بيديها. وقفتَ هناك فنهضَت عارية كالحقيقة، ثم راحت في الأمواج. المدّ بعيد، فسارت زمناً حتى وصل الماء لخصرها. سحب طويلة مشعّثة جرفت عبرها القمر، وأذكر خفقان قلبي. كانت الشرطة على وشك التحرّك. أغرقوا أولاد جونسون، قتلوا فتاة معمل التعليب، ومن يدري ماذا كان يدور ببالهم. لكن المرأة ظلت تخوّض في ماء أسود وأستطيع القول إنها لم تخف منهم ـ أو من أيّ شيء ـ فقد كانت تتمدّد، ترفع ذراعيها ثم تغوص. أذكر ذلك القوس أفضل مما أذكر عن

fb/mashro3pdf

أمس. ابتعدَت فترة عن مرمى البصر فحبست أنفاسي طيلة فترة اختفائها. في النهاية، بانت على السطح فتنفستُ من جديد وأنا أرقبها تعود للسباحة بالماء الضحل. وقفت تمسّد رأسها من جديد. كان شعرها مفرودا حين غابت ثم تهدلت ببطء كأنها تتخذ شكل السحب حين تجرّ القمر. هي إذن من أصدرت صوتاً. لا أعرف حتى اليوم إن كان كلمة أو نغمة أو صرخة. كل ما أعرفه أنه صوت أردت جوابه. رغم ذلك، فأنا بالعادة هادئة كالحجر، سلشيال.

لا أنكر نظراتها الرائعة الزائغة ـ تخلب اللب ـ وبينما تحزنني حياتها، كانت متحفظة بهدوء كممرضة صليب أحمر. جاءت من عائلة كلها نسوة رياضيات، لكن على النقيض منهن لم تفهم الجاذبية المميتة لأسنان الذهب. فأسنانها ناصعة كالثلج. حين قام السيد كوسيه بتغيير حمولتها ـ بشكل محدود ـ لم يستطع كلاهما فكّ الرُّقية. ولم يغيّر القبر شيئاً.

أرى رجْلي من الشرفة. في المساء غالبا وعند الشروق أحياناً، أرى كتفيه مطوّقين بزبد البحر. هناك مقاعد مجدولة بيضاء كالعادة حيث تشرب النسوة الجميلات شايا مثلّجاً فيه قطرة من خمر جاك دانييل أو كوتي سارك. لم يبق شيء الآن، فأجلس على السلالم أو أثني كوعيّ على الدرابزين. لو كنت حقيقية وأنصتّ بحذر لسمعتُ صوتها. قد تعتقد بقوة أنه صوت خفيض. لكن، لا. فرَجْلي صادح.

fb/mashro3pdf

الهوامش

[1] بابا: كانت هيد تنادي زوجها كوسيه، بابا. (م)

[2] روم البنش: خمرة من الكحول و الليمون و التوابل والشاي والماء. (م)

[3] كوكتيل مولوتوف: قنبلة يدوية، عبارة عن زجاجة بسائل متفجر. (م)

[4] بوكر تي. واشنطن: (1856/ 1915)، ولد من أب أبيض وأم سوداء طباخة، دعا لمواجهة التمييز العنصري بقوة التعليم ودعم الاقتصاد الأسود. (م)

[5] مالكوم اكس: (1925/ 1965)، دعا لمواجهة التمييز العنصري بكلّ وسيلة، حتى العنف. أسلم. قُتل على يد منظمة متطرفة. (م)

[6] المستنزج: ممثل أبيض بفرقة كوميدية يستهزئ بدور زنجيّ. (م)

[7] شي: تقصد شي جيفارا. (م)

[8] الكزاز: تشنج عضلات الفكّ. (م)

[9] أو زوت: بذلة رجالي بقميص قصير وسترة طويلة للركبتين مع بنطلون ضيق. (م)

fb/mashro3pdf

5

عاشق

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ظنّ سندلر أنه تصوّر النظرة لا لمعتها. أمرٌ محدّد. لكن فيدا لم تضمن أيهما. البرهان الذي شعرت به كان بمشية حفيدها. مهما تكن العلامة، فقد اتفق كلاهما أن رومن رأى شخصاً، أو ذهب مع شخص. كانا يعشقان هذه المصطلحات ـ "رأى"، "ذهب مع" ـ ويعنيان نظر، اصطحب. لم ينظر الزوجان الهائجان بشكل خطأ، ظنّ سندلر أنه يفتّش عنه وبإشعاع حارّ تعرّف عليه فوراً. لكن فيدا كانت مُحقّة بشأن المشية. فقد طوّر رومن نوعاً من الاختيال محلّ تواريه السابق. أما مشاعر سندلر ـ استسلام، كبرياء، ذعر، حسد ـ فقد اختار التركيز على الأخير، بمحاولة استدعاء ذكرى حرارة المراهق، درع كائن كامل ابتدعه كائن مُستنفَد. تذكّر رحلته البحرية البكر (دون حرج، الآن) كشيء ضارٍ لم يلن نحو لذة روتينية. دخول رومن عالق بالذهن وكان محسوداً عليه، ومع أنه قد ينتهي بحماقة أو بؤس، إلا أن قصقصة زهو الولد وهو طازج أمر غير منصف. ظنّ أنه

fb/mashro3pdf

سيُطيح به الآن ــ حين يبين عاراً بصوت نصيحة ــ والأكثر احتمالاً أن يضللّ تحديات المستقبل دون إيقافها. قام بمراقبة الحركات الجديدة، العناية بالصحة، البسمة العارفة محل قهقهات وضحكات نصف مكبوتة، التعطّف بنبرته حين يكلّم فيدا. يستمتع معظم الوقت بجمال الجلد بينما تراقب مشيته فيدا الرائقة. شملته أيضاً حقيقة أن رومن قد أوقف ميلان ساقه وكان يحكّ عانته كل دقيقة بطريقة ذميمة تشير إلى أنه "يملك" أكثر من "يريد". فكّر سندلر، فليتأنّق قليلاً. وإلا سينتهي به الحال لمطاردة النساء ككلب طول حياته. في طوافه الأبدي خلسة لتكرار أول مرة، قد ينتهي به الحال مثل بيل كوسيه، فيضيّع ساعات بين كعوب نساء لا يعود يذكر أسماءهن ولا أيّ عيون تفاداها. عدا واحدة. غيرها، يقول كوسيه، إنه لم يحسّ بوصال امرأة. ظنت زوجته الأولى المعبودة أن اهتماماته متعبة، وشهوته بذيئة. فاختار رؤية ما يراه بعيون نسوة الأهالي، المتمتّعات بعطلة، المطربات المهزوزات حين لا يشاركهن عشاقهن بالجولة. كان يطفو عالياً ويجيش نحو الأسفل، فسرّح زوجته من المدرسة، وسجّل ملكيتها صالة الرقص كما أرادت. أو بنصّ كلمات كوسيه "حين تنام القطط، تتسحّب الأسود".

ردّ سندلر "أنت مخطئ، فالأسود تصاحب أمد الحياة".

ردّ كوسيه "أنا أيضاً"، ضاحكاً بنعومة. "أنا أيضاً".

فكّر سندلر، لكن المصاحبة لم تُغيّر سلوكيات عزوبية كوسيه، فبعد سنين ترمّل بغيض، رغب أن ينتهي بالزواج من فتاة يُعلّمها

fb/mashro3pdf

على ذوقه. ولو نفعه ذلك كما خطّط، لحدّد كوسيه نشاط قاربه للصيد بشصٍّ لا محفظة. اهتدى سندلر إلى التمتع برحلات الصيد. في عشرينياته، لم يكن يحبّ مخادنة الرجال العجائز، لكن لأن والده مضى للرفيق الأعلى... مضى الحوار بينهما أسهل، رغم أن الحال ليس طبعاً كأنه مع والده. غمس كرة قطنية بدهن خنزير، فابتسم سندلر قائلاً "أبي علّمني هذا".

نظر كوسيه في الطُعم. "أنت مقرّب منه؟"

"مقرب بدرجة معقولة".

"لا يزال حياً؟"

"آه، نعم. يعيش أعلى الشمال مع أختي بعد وفاة ماما. يحسّ العجائز بالحياة أفضل مع بناتهم. فالتعامل مع الفتيات أسهل". كبح نفسه خشية أن يضايقه كوسيه. "أردته أن يمكث معنا. أقصد بمنزله الذي نعيش فيه. لكنه أكثر من عنيد، له أسبابه".

"الآباء أشدّاء" ردّ كوسيه دون تأثّر، يبدو أن أسباب العجوز ـ الفتاة الصغيرة.

"والدك ليس كذلك. سمعتُ أحدهم يقول إنه خلّف لك ملء صندوق فلوس. صحيح؟"

"آه، كان سيتركه إلى أحد عموماً".

قال سندلر "فعل العجوز معي المضبوط أيضاً. ليس بالفلوس. فلم يكن يملك شيئاً، لكني أعتمد عليه دائماً، ويعرف أنه يعتمد عليّ في كلّ شيء".

"كرهتُ أبي".

fb/mashro3pdf

"كثيراً؟" اندهش سندلر بالصراحة أكثر من الحقيقة.

"كثيراً. مات ليلة الكريسماس. كانت جنازته كهديّة للعالم".

هكذا يدور حديثهما حين يجتمعان. المرة الوحيدة التي دُعي فيها سندلر على حفلات قارب كوسيه المشهورة، وعد نفسه بعدها ألا يذهب ثانية. لا بسبب الصحبة، بل لأن المرح مع بيض بمنتصف العمر ليس مريحاً، يتقلّد أحدهم جراب مسدس؛ بينما يشعره السود المتأنقون أنه خارج المكان. ضحك بسيط. والنسوة الثلاث أو الأربع اللاتي يثرنه كن مبتهجات. كان ذلك الكلام، نبرته وكذبته التي لم يستطع لفت النظر إليها. كلام كوقود لتغذية الوهم الأساس: عالم مزيّف مُخترَع بالقارب؛ عالم مُهمَل لساعات تهيمن فيه النساء ويركع الرجال ويُهين السودُ البيضَ. حتى وصول الرصيف. فيضع العمدة شارته من جديد وينادى صبيّه الطبيب الملوّن. ثم تخلع النسوة أحذيتهن حيث يسرن عائدات وحدهن. ظلت إحدى نساء الحفل بعيدة، رزينة توبّخ قليلاً. تدفع الأذى برشاقة، لا تراهن أو ترفع حرارة. حين سأل عنها سندلر، قال كوسيه "قد تعيش مع أي شيء إن لم يكن لديك ما تعيش بدونه". هكذا كان بوضوح، كما بالصورة التي طبعت ملمحه، عرف سندلر أن كوسيه كان ينظر إليها. عُلّقت مرة في ظهر مكتب فيدا،* ثم فوق سرير هيد كوسيه، وجه بنظرة تعرفها هنا وهناك. وجه اكتسبه رومن: بالملكية أولاً. عرف سندلر أن الأول أحياناً يكون الأخير، وليساعد الله الولد إن ربط روحه بامرأة لا يثق بها.

fb/mashro3pdf

لكن ذلك ما اضطلع به. قرأته فيدا طبعاً بشكل مختلف. وكان السؤال الكبير، من. من الفتاة التي لمّعت جلد الولد وشحنت فُرجَة ساقيه؟ لم يذهب رومن إلى حفلات، عاد حين أخبروه أنه لن يُسلّي صديقاً بالمنزل. قد تكون امرأة ناضجة أكبر عمراً، يقضي وقت الظهيرة بين يديها. لكن نهايات أسبوع رومن وليالي بعد المدرسة كانت مليئة بالتجمّعات. فمتى كان عنده وقت؟ طرح سندلر السؤال على فيدا، من حفزته للكلام مع رومن.

قال "أحتاج أن أعرف الشخص قبل أن أبدأ الكلام معه".

"ما الفرق؟"

"أيسعدك رؤية ملاءاته؟"

قالت فيدا "يقلقني الغسيل، وتقلقك الأمراض التناسلية. قد تأتي مصادفة دون تاريخ شخصيّ. ألا تذكر أنني أعمل بمستشفى؟ ليس عندك فكرة عما أراه".

"سأكتشف من هي".

"كيف؟"

"سأسأله".

"سندلر، لن يخبرك".

"هناك طريقة. هذه بلدة صغيرة ولن أنتظر حتى يأتي والد إحداهن أو أخوها ليدق بابي".

"لا يفعل الناس ذلك عادة. كان بأيامنا. هل دققت باب بلاكمان حين راود دولي؟"

"كان ينبغي ــ حتى لا نبيع أنفسنا بمجرد دخوله الباب".

fb/mashro3pdf

"كن جاداً. بلاكمان يدرس بالكلية منذ عامين. ولا يستطيع أحد أن يمسك له **شمعة**".

"شكراً على تذكيري. أفكّر أن نترك الأمر كله لأبيه بالكليـــة. متى يبلغان السن القانونية؟"

"قالت دولي، في رأس السنة".

"فلننتظر إذن؟ ثلاثة أسابيع".

"قد تحمل الفتاة حتى ذلك الوقت!"

"ظننتُ الأمراض التناسلية ما يقلقك".

"يقلقني كل شيء!"

"فيدا، تعالي. الولد لا يتأخّر بالخارج؛ وفصم عُرى أصدقائـــه مشعّثي الثياب وليس ضرورياً أن تسحبيه من الفـــراش ليذهـــب للمدرسة. فهو مستعد قبل قرارك، يعمل مجتهداً **راسخاً** في فنـــدق كوسيه. مع وقت إضافي، أيضاً".

قالت فيدا "يا إلهي. إلهي".

"ماذا؟" نظر سندلر لزوجته منفجراً بـــالضحك. "أراك فقـــدت عقلك، يا امرأة".

قالت "يويوه. لم أفقده. و**راسخاً** كلمة صحيحة، آه".

رأى سندلر فجأة فخذين يصعدان بحذاء أسود طويل، فتســاءل ثانية إن كان جلدها سيثلُج وقت لمسه. وآه كم هو أملس".

ربما أثار نزوةَ رومن ذلك الحذاءُ الذي لم تخلعه، مع عريـــها ـــ جعلها في الحقيقة أكثر عُرياً مما لو نزعته. كان طبيعيـــاً أن تسرق كاب زيّ الأمن الخاص بجدّه. كان رمادياً لا أسود ليناسب

fb/mashro3pdf

الحذاء لكن مقدمه لامع، وحين لبسته واقفة هناك فقط بالحذاء والكاب، عرف رومن أن نبضه سليم. نبضه كله سليم، الآن. بالرابعة عشرة يلبّي حاجة امرأة بالثامنة عشرة أو ربما بالعشرين. لا تريده فحسب؛ بل تتطلّبه. رغبتها الملحّة تعادل رغبته الملحّة ورغبته الملحّة دون قعر. هكذا يتذكّر قبل 12 نوفمبر. من ذلك الرعديد الباكي تحت مخدة بسبب مرات إخفاقه الحماسية؟ لم يكن لدى رومن وقت لذاته المتباكية الآن. كانت نوادي بيتون هاي صالات استعراض؛ الجميع عند الأبواب المغلقة كجمهور حول أمير. لا مسيرات جانبية بمدار الجدران أو استكشافات آمنة بين الحشود. ولا يُسمَع حتى نفخة بوق. أمر بهذه البساطة.

حين اقترب من الأبواب المغلقة أول يوم، عرفوا. ومن لم يعرف، أخبره ـــ مصادفة. كلّ من يريد السُكر أو الارتباط بآخر أو رفقة جماعة، عربيد. قبل يومين خبطه ثيو بالحائط. لكن في 13 نوفمبر، كانت عينا رومن الجديدتان تقيّمان وتتحدّيان. يخاطر الأولاد بتعذيب المقعَدين قليلاً، لكن ابتسامة رومن البطيئة الواشية تفقدهم التوازن. وجاء العمل الحاسم من جانب الفتيات. شعرن بشيء قادر في سلوكه، فكفّت أعينهن عن الدوران وكتمن قهقهة. تقوّست ظهورهن الآن، وألقين بأكتافهن للخلف بتأوّهات كبيرة، خادعة طويلة. قطعن عليه نظرات السؤال والجواب. ليس من تسديد رومن، بل لأن التسديد أخذ وقتاً. تساءلن، أهو معلّم؟ كأنه أخت كبرى؟ لم يكد يتكلّم ـــ حتى قاوم "أمك" التي صعدت

fb/mashro3pdf

لشفتيه. عموماً، لديه رقبة. وحين لا يمدّها، كان يحدّق من نافذة الفصل حالماً بمن أخذ محلّه ومتصوراً وسائل جديدة لفعل ذلك. حذاء. جورب أسود. مع كاب أمن، تبدو مثل ضابط. ضبط رومن كرسيه بقسوة من ينقّب عن النفط، وحاول التركيز في إصلاحات القرن الثامن عشر التي تشرحها المعلّمة بكثافة حتى لا يكاد يفهمها. أكان مفترضاً منه التركيز بدرس التاريخ بدلاً من وجه جينيور الجديد بالدراسة؟ فقد تطلّب منه ثدياها وإبطاها استكشافاً مركزاً؛ واحتاج جلدها تحليلاً من قرب أكثر. أكان عطرها زهرياً أم شبيهاً برائحة مطر؟ وعليه أن يتذكّر الطرق الثمانية والثلاثين التي ضحكت لها ومرمى كلٍ منها. يحتاج فصلاً دراسياً كاملاً لتصوّر عيني الخيال العلميّ: جفنان، هُدبان، حدقتان سوداوان لامعتان حتى لتبدو غريبة. غريبة قد يقتلها لينضم إلى سفينة فضاء.

اعتادت جينيور استخدام سيارة كوسيه. للتسوّق، للبنك، لمكتب البريد، لأداء مهمات تحتاجها السيدة كوسيه ولا تريد الآنسة كرستين أداءها. بعد حصته السادسة، أو حصة قبل الغداء، تلقطه جينيور إلى شارع برنس آرثر بسيارتها وإلى أحد مواقعهما سابقة التخطيط. كانت الخطّة (خطّتها) أن تفعلها بأي مكان. لترسيم خريطة للمقاطعة بالمصارعة والحرارة. جرّبا قائمة لكن فشلت، بيتون هاي (تفضيلاً بحجرة الفصل)؛ مَجمَع السينمات، الشط، معمل التعليب المهجور، الفندق. كشك الهاتف بشارع بارون قرب محل سوفتي المُفضّل عندها، وحتى الآن فعلاها مرة واحدة

fb/mashro3pdf

غير مغامرة غرفة نومها ـ مغامرة المقعد الخلفيّ ذات مساء بموقف سيارات قهوة ريا. سيقابلها اليوم وراء فيديولاند، لمجرد ضربات فرشاة سريعة قبل ذهابها بالسيارة لشارع مونارش، حيث ينزع ورق الشجر من البالوعات. ثم تقود به عائدة، وربما يقفان بكشك هاتف آخر على الطريق. إثارة عجل بها طول السكّة، صعبة المحو كهذه البلدة (أصبح مالك شيء كمقهى ريا الآن، وثيو أيضا)، لا شيء يبزّ منظر جينيور حين تباعد ساقيها بالفراش، في حذائها والقبعة، بحافة القبعة المُخفية عينيها تحت الظلال. يستطيع ثيو وجمال وفريدي الحفاظ على أيّ فتاة يجدونها بحفل الصف العاشر في نعلين بلاستيكيين. أين أصل المسألة؟ لا يشدّان ذراعين غير أذرعهم؛ لا يُشغَفون بشفاهٍ غير شفاههم؛ لا تصدُر إه إه إه إه اللذة غير أنّاتهم. لا خصوصية لمعظمهم. كانوا يحتاجون جوقة تشدّ أزر كلٍ منهم، لتحقيق ما يطلبون، تُعينهم على إسكات البوق الصارخ بآذانهم. يفعلون هذا طيلة الوقت، لا مع الفتاة فحسب بل مع، حتى مع أحدهم الآخر. وهو على الجانب الآخر، مع امرأة تخصه، مقبوضاً عليه، تقضم فيه برفق، كان يقف لينزع الخصوصية وسط العامة بغبائهم الأعمى.

رفع رومن عينيه لينظر الساعة. دقيقتان ـ أبديتان ـ قبل الجرس.

***

fb/mashro3pdf

أدارت جينيور المحرك. لا تملك رخصة قيادة وتريد أن تظلّ بوضعية الإقلاع لو لمحت دورية شرطة. جاءت ثانية. أكلت قبل ساعتين أربع شرائح خنزير وخبزاً مُحمّصاً وبيضتين. تفكّر في تناول البيرجر مع لبن رائب بمحل سوفتي ثم تقفل عائدة إلى فيديولاند. تستطيع فعل شيئين معاً. حتى ثلاثة. يحبّ رومن ذلك وهذا ما يجب أن يكون عليه رجلها الطيب. يجلس أحياناً عند قدم سريرها ـ سعيدا بمراقبة نومها، وحين تستيقظ يغمز بعينيه قبل أن يبتسم ليخطو مبتعداً. يسعدها أن ترى هكذا طول الوقت، أما مراقبة الإصلاحية نهارا وليلاً فتحنقها، لكن نظرة رجلها الطيب تسرّ قلبها. لا تدير رأسها لتعرف إن كانت قدمه على لوح الباب أو تنقّر أصابعه على عتبة النافذة. يعلن مقدمَه عطرُ بعد الحلاقة. وإن شبعت يهمس: "شعر بديع"، "خذيه"، "فتاتي الطيبة"، "حلمتاك لذيذتان"، "لم لا؟"، بتفهّم أكثر من جي آ جو. لا يزال حظّها عسراً: مكان دافئ بوسائد تمكث فيه، مزيد من طعام جيد حقاً، وظيفة (مأجورة) ـ أكثر مما توقعت حين كان على الإصلاحية أن تطلق سراحها بسبب عمرها. لكن إضافة رومن كانت كعلامة زائدة بعد الدرجة الأولى في فصل المدرسة. كعلامات نالتها وهي طالبة مثالية. اعتبروها مثالية حيث بدت كأنها قتلته. لماذا فعلت هذا؟ ثم تراكمت الفوضى وهي على وشك التخرّج.

قتل المدير لم يذُر ببالها ـ كان طريقة لإيقافه. تعشق بعض الفتيات لقاءاته؛ تتاجر بها مقابل الواجب، ملابس داخلية جذابة ورحلات خارج الحرم. لكنها لم تفعل. كانت جينيور تُكافأ فعلياً

fb/mashro3pdf

على مهارات عزفها، دائماً لديها واجب. وعندها ملابس داخلية قطنية رائعة؛ ورجفة رحلات خارج الحرم تمحوها الأعين المتطلّعة من أهل البلدة كأنك تتجول بقطار أو تضع كوعيك على نضد بيرجر كنج. عموماً، تنال نصيبها من الجنس بالحرم (أ) أو مع فتاة تبكي للعودة. من يريد أو يحتاج عجوزاً (بالثلاثين، على الأقل) يلبس ربطة عنق حمراء عريضة يشير أسفلها إلى قضيب لا ينافس الخضراوات النيئة، قطع الصابون، أواني المطبخ، الآيس كريم أو أيّ شيء آخر تلتمسه الفنيات المبدعات؟

كان موعد اللقاء الخارجيّ يوم الجمعة، وحين يغيره يبكّر أربعة أيام إلى الاثنين، تفكّر جينيور بجائزة أو عرض وظيفة يمكن نقاشه. كانت حرة بالخامسة عشرة أن ترحل، مطهّرة من الشرّ الذي يهبط هناك ثم يعود بها إلى عائلتها، لم يزرها أحد منهم طيلة ثلاثة أعوام. ولم تتخذ نية العودة إلى الستلمنت. أنقذتها منهم الإصلاحية. كانت تودّ رؤية ما يقع خارج عالم الستلمنت؛ يتكلّم طلاب الإصلاحية الجدد عن عالم تليفزيونيّ. فيمنعها شغف الخروج بالدقيقة الأخيرة؛ يردّها سلوكها الطيب المعهود. ترفض اللجنة تصديقها وتصدّق المدير بدلاً، لكن الأخصائيّ الاجتماعيّ يعرف أكثر.

بداية اللقاء الخارجيّ عظيمة. يصف المدير بثرثرته المرتاحة آمالَه عنها وعن الإصلاحية. يتمهّل عند باب منزلق يُفتح على بلكون صغير، يدعوها للانضمام إليه مبدياً إعجابه بالشجر الضخم المحيط. سند على الدرابزين واقترح أن تحذو حذوه،

fb/mashro3pdf

يهنئها مذكراً إياها بمعاودة الاتصال به. فهو موجود من أجلـــها. يخبرها مبتسماً أنها تحتاج لقصّ شعرها قبل الرحيل. "هذا الشعر البديع، الوحشيّ". لمسه مربتاً رأسها بحنان، في البداية ثم تسحّب مقترباً وعانقها. بشدّة. سقطت جينيور علـــى ركبتيــها، وبينمــا انشغلت يدا المدير بفك الحزام، راحت يداها لباطن ركبتيه فقلبتــه على الدرابزين. سقط طابقاً. طابقــاً واحــداً. رآه الأخصـــائيّ الاجتماعيّ وهو يسقط فاندفع لنجدته، رأى أيضاً الحزام المفكـوك وزمام البنطلون المفتوح. رتّبت شهادته طبعاً للحفاظ على وظيفته ودعم المدير، ارتبك مذهولاً كالآخرين من "سلوك مفاجئ غريـب عيّاف" لفتاة مثالية. تأذّت اللجنة من استخدام جينيور لكلمة "لحس" بدفاعها، حوّلتها بسرعة من طالبة إلى مفطورة على العنف تثـير التحسّر.

تعلّمت جينيور الكثير بسنواتها الثلاث التالية. لو فكرت لحظة في إخفاق حياتها بعد الإصلاحية، لتبخّرت الفكرة ســـريعاً. فقـد صفّى الإصلاح ثم السجن نظرها الثاقب. لم يكن الوقت الحقيقـيّ بالإصلاحية مُستنفداً؛ كان يرسب جزءاً بعد جزء طيّعاً. ماذا تفعل بنصف الساعة التالية، بالدقائق العشر. يستغرق تقليــم الأظـــافر سبع دقائق؛ وغسل الشعر عشرين. من صالة الرياضة للفصـــل دقيقة ونصف. ألعاب، تسعون دقيقة. ساعتان للتليفزيـــون قبـل إطفاء النور فالانغمار سنيناً من النوم بعده استيقاظ "هنــاك" مـــع أجسام الآخرين. عكس ما يرتّب الناس عـــبر شـبكة أنشـطتهم اليومية، كان التخطيط مميتاً. فكـــن مســتعداً، علـــى أطــراف

أصابعك. اقرأ بسرعة: اللمحات، العيون، الأفمام، نبرة الحديث، حركةَ الأجسام ــ العقول. قِسْ لحظتك. انتهز الفرصة. فالأمر بيدك. ولو ضغطوا عليك فاقترب من محفظة، نافذة، باب مفتوح، وامض! الأمر بيدك. كلّه. حظاً سعيداً صادفت، بل ثروة ضخمة جمّعت. وافقها رجلها الطيب. علمت من البداية، أنه يودّ أن يراها تفوز.

عرف بعضهما الاخر من أول ليلة حين حدّق فيها بجانب وجهه. لكنه كحلم ألمّ بهما. لا جلبة، لا مضايقات، لا اتهامات مضادة ــ رفعها نحو كتفيه، حيث امتطت بستاناً من تفاح جريني الأخضر. وحين استيقظت في غرفة باردة مضاءة، كان دفء الحلم أحسن من بطانية. حمام بانيو (أخيراً) قبل صعود السلالم بشغف جزئيّ لتبيّن للسيدة رئيستها الجديدة أنها جِدّ دقيقة؛ ولتلحق غالباً بنظرة أخرى على منكبي رجلها الطيب. هيد جالسة بفراشها، يبدو تاج رأسها فقط تحت الإطار الذهبيّ. أخبرتها جينيور أنها لن تذهب لتحضر ملابسها ــ بل ستلبس ما عليها حتى تشتري أشياء جديدة. فأشارت هيد نحو الحمّام حيث بذلة حمراء معلّقة بمشجب بلاستيك. كانت كريهة وواسعة، لكن جينيور فكرت برغبتها في التجرّد هناك بغرفة نوم هيد حيث كان يراقب.

قالت هيد "هاتي الفطور وتعالي".

أحضرت: جريب فروت، بيض مقلي، لحم خنزير، برغل ــ وهي تكلّم كرستين في بذلة امرأة عجوز.

fb/mashro3pdf

انتهى بها الحال، في طريق عودتها إلى هيد، أن عرفت. انغمرت بصحبته، في مدخل الطابق الثاني: رنة طرب، وعد بمزيد؛ ثم ينسحب انتباهها نحو باب موازٍ للغرفة التي تنام فيها. نصف مفتوح. في الهواء عطر بعد الحلاقة أو مرهم عطري خفيف. سارت إليه. بالداخل مكتب مع كنبة ونضد ومقاعد جلدية ومرآة زينة. أمعنت فيها جينيور. مسّدت بيدها أربطة العنق والقمصان بالخزانة؛ شمّت رائحة حذائه؛ دعكت خدّها بكمّ سترته القطنية المخطّطة. ثم عثرت بكومة ملابسه الداخلية، خلعت البذلة الحمراء وسارت بالشورت لترقد فوق الكنبة. سعادته لا تخطئها عين. وارتاح أن تكون هناك، تتلمّس أشياءه وتمتّع نفسها بمواجهته.

بعد أن عادت جينيور إلى غرفة هيد، نظرت عبر كتفها إلى الباب ـــ لا يزال نصف مفتوح ـــ فرأت كمّ قميص أبيض ويده تغلق الباب. ضحكت جينيور، علمت أنه فعلها كما فعلت.

ألا تعرفين ذلك أنتِ أيضاً؟ أن ولداً هناك خارج نافذة هيد. يخصّها. اتّضح كلّ شيء. لو حاولت إسعاد المرأتين، لسعدتا بالحياة معاً. كلّ ما عليها فعله أن تفحصهما وتعلّمهما. لا تهتمّ كرستين بالمال، تحبّ إطعامها، حثّها على الخروج بالسيارة. كان يُقلق هيد أسعار البنزين وثمن علب الحليب المؤرّخة والخبز الصابح. رأت جينيور أن كرم كرستين وعفن هيد صورتان طاردتان. إحداهما "خذي ما تحتاجين واتركيني لحالي". الأخرى "أنا المهيمنة لا أنتِ". لم تهتم بها المرأتان ـــ عدا أنها قد تبسّط أو

fb/mashro3pdf

تعقّد علاقة كل منهما مع الأخرى. لم يكن دورها وسطيّاً بينهما، ولا مؤتمناً، بل مجرد دور تكشف به أسراراً صغيرة. بين الملابس الجديدة غير البالية بحقائب السفر المغلقة هناك قميص نوم شفاف قصير بحواشي ريش طيار؛ كرتون يتضح محتواه بما فيه؛ مرطبان مسحوق خردل مبسنجل أصفر. أشياء مطلوبة بالعطلة؟ للهرب من شيء؟ أخذت كرستين حفنة من حبّ فيتامين وصبّت مطهّر المايكلب بعلبة بيبسي فارغة. كانت المرأتان تشتريانه بانتظام وتحفنان فوط المائدة فترة الحيض ثم تلقيانها بالقمامة غير مبقّعة أبداً. وكان توقيع هيد على الشيكات برسم حرفي HC مخلّعين مائلين يساراً.

حين تتعب المرأتان من شجارهما، يعهدان لها بكلّ شيء. قد تنجح فترتّب بانسجام وقت الضرورة، كما كانت بالإصلاحية حين كانت بيتي تقطع على سارة رقصة الكريسماس وتتشاجران حتى العزلة. يقطع السكون عودة الفتيات، فتتخذان مظهر عدوانية في غرفة الاستراحة، سلوك مهدّد قد يدمّر ماري هاوس. مناصرة كل خصم منهما أصبحت عادة لا غنى عنها لكلٍ منهما. وكم يجب أن تقسو على امرأتين أنهكهما التسوق، وتعجزان حتى عن صبغ شعرهما؟ عجوزان حتى لا تذكران مهمة السيارة الأصليّة. فكان يضحك بخفوت.

أطلقت المحرّك. رائحة فانيليا؟ فراولة؟ ورومن على مرمى النظر.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

6

زوجة

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تعرف فتيات الإصلاحية أفضل مما تطلبه اليافطة. كانت "هيا اجلسن خمس دقائق، ثم اشطفن عميقاً" مجرد اقتراح لا أمراً. يحتاج بعض الشامبو خمس عشرة دقيقة؛ بينما تُرهق الأخريات فروة رأسهن فوراً. تعرف فتيات الإصلاحية كلّ شيء عن تجهيز عروس: ضفر الشعر، لفّه، تصبين بالشامبو، فرده، قصّه. قبل إبعاد الأطراف الملونة ـ أعمت فون رأس هيلين عملياً بدفق محترز من شامبو نتشرال انستكت ـ وكن يمارسن الصبغ والتظليل بإخلاص محترف.

دسّت جينيور ذيل مشط بأسنان ناعمة في شَعر هيد، وخلّلت وديانه الفضيّة بسيل سميك من صبغة فلفت ترس. زيّتت فروق شعرها بالفازلين لتهدئة ألم التمشيط. ثم أمالت رأس هيد بنعومة

fb/mashro3pdf

ـ هنا وهناك ـ لفحص القفا ومنابت الشعر. كانت حافتا أذنيّ هيد مجروحتين قليلاً، إما من حروق صبغ قديمة أو أسنان مشط أهوج. أجرت جينيور سبابة قفازها على الجروح ببطء. ثم حنت أذنها لمسح السائل الزائد بقطن. كانت الجذور مشبعة من البلل ومنقوعة، فطوت الشعر بكاب الحمّام. غسلت الأواني، طوت المناشف، أنصتت لدندنة هيد ـ همهمة شهوانية تصحب دائماً تصفيف شَعرها. وكان التدليك وملاطفة اليدين بإخلاص يرافقان طبيعيّاً عملية صرف الماء الدافئ، صوت صريف خجول من الشعر النظيف. أوضحت هيد بصوت نعسان مليء بالمسرّة أنها تجلس بكرسي الحلاق. قال بابا لا يوجد كرسيّ بالعالم أكثر راحة منه؛ دفع حقّه ثلاثين دولاراً لكنه يساوي المئات. لم تكن دعوى الديكور بالبيت تُثنيه عن تحريكه مَن الفندق لغرفة نوم منزلهما الجديد. قدّرت هيد الكرسيّ كثيراً، فكمّ تألّم أيام زواجهما الأولى وهو يعلّمها تقليم الأظافر والعناية بالأقدام، لتجعل أظافره بشكل باهر. كيف تحلق ذقنه أيضاً بموسَى مستقيمة وشاحذ جلديّ. كانت قصيرة فتقف على كرسيّ مرآة لتصل. لا شيء غير الصبر علّمها. شجّعها صمت جينيور المذعن بل المبالي، فمضت تقول إنها لم تحسّ بنظافة كافية أول تلك الأيام. كان جيرانها يهزؤون من الحياة قرب مصنع سمك، ورغم أنها لم تعمل دقيقة واحدة هناك، فقد ارتابت من ارتيابهم فيها بسبب هذه الآفة. كان

fb/mashro3pdf

ذلك أسوأ ما في يديها حتى الآن، وعلّة ذلك أن عاداتها الصحيّة محدودة.

تساءلت جينيور إن كانت هيد ترغب في تقليم أظافرها مع حمّام اليد. لم يكن ذلك شبيهاً بمرح الحمّام الجماعيّ بالإصلاحية، إلا أن تصبين جسم ــ أي جسم ــ كان بمنح طفلة ستلمنت إشباعاً أيّما إشباع. كذلك يسعده أن يراها تعتني بزوجته؛ كما يسعده أن يشاهدها مع رومن يتدافعان عاريين بمقعد سيارته الخلفيّ التي يملكها منذ خمسة وعشرين عاماً؛ بالإضافة إلى أن ارتداءها شورته كان يثيره.

فتحت المجفّف العاصف. هواء دافئ ثم بارد على فروة رأس هيد، فينبثق مزيد من الذكريات.

"كنا أول عائلة ملوّنة في سيلك لا مجرّد بَولٍ خرج من فم أبيض. 1945. انتهت الحرب تواً. لدى الجميع مالٌ لكن بابا معه أكثر من الزائد، فبنى هذا المنزل بأرض أبعد مما ترين. فيما يُدعى أوشنسايد الآن، لكنها حينذاك كانت بستاناً مُعدَماً تملأه الطيور. ناوليني المنشفة!"

ربّتت هيد على صدغيها وهي تنظر بالمرآة.

"لدينا احتفالا نصر. أحدهما بالفندق للعامّة؛ والآخر خاص بمنزلنا. تحدّث عنه الناس سنوات. استمر ذلك الصيف كله احتفالاً؛ بدأ في مايو وانتهى 14 أغسطس. أعلام بكلّ مكان. مفرقعات نارية وصواريخ على الشط. كان اللحم شحيحاً، لكن

fb/mashro3pdf

بابا جلب لنا باتصالاته مع السوق السوداء ملء شاحنة. لم يكن مسموحاً دخولي المطبخ، لكنهم احتاجوني عندئذ".

"لماذا لم يكن مسموحاً دخولك المطبخ؟"

كشّت هيد بأنفها "لم أكن طباخة ساهرة. وتعرفين، كنت زوجة؛ مُضيفة، والمُضيفة لا "

سكتت هيد. كانت ذكرى "ضيافة" احتفالَي النصر في 1945 مختلطة باحتفالين اخرين، بعد سنتين. عيد الميلاد السادس عشر زائد حفل تخرّج كرستين. من جديد، عشاء عائليّ بالمنزل يسبق الاحتفال العلنيّ بالفندق. في يونيو 1947، لم تر هيد صديقها المعتاد من أربع سنوات. لم تكن كرستين التي نزلت من كاديلاك بابا تشبه في شيء تلك التي تركت البيت في 1943 وهي تمسح دموعها عن خدّيها براحة يدها. اتسعت العينان فوق ذينك الخدّين ـ ثم بردتا. جديلتان بهيئة قَصّة الوصيف[1] ناعمتان كبسمة صاحبتها. لم تدّعيا حبّ بعضهما الآخر، فكانتا تجلسان إلى المائدة وتخفيان فضولهما كمحترفتين. تغطس الشمس حمراء كبطيخة، تُخلف وراءها حرارة ـ رطوبةً وطنيناً. تذكر هيد رائحة بودرة المولود من آنية الجاردينيا، بأطراف بنيّة كخبز محمّص. وتذكر يدين: قبّة مفاجئة عند زمام بنطلون، وفوطة مائدة لتغطّي شفته العليا؛ بينما تلاعب سبّابة بابا شاربه. بصمت ينتظران إل. طبخت وجبة مترَفة وجهّزت كعكة. ست عشرة شمعة ترقب الاشتعال بجنينة ورد سُكريّ وعصافير مرزبان[2]

fb/mashro3pdf

زرقاء. الحوار مهذّب أجوف، تُنهكه مروحة سقف مزعجة ونظرات ذات مغزى بين ماي وكرستين. كان بابا وسط انفعال بعد الحرب يتكلّم عن خطط لتطوير الفندق، ضمنها نظام كلارييز لتبريد الهواء.

قالت كرستين "سيكون ذلك رائعاً، فقد نسيت حرّ الجوّ هنا".

قال كوسيه "سننشغله بالفندق أولاً. ثم المنزل".

حين شعرت هيد بوهج السُلطة، قاطعت الحديث "مراوح غرفة النوم جيدة، لكني أحسّ مروحة هذه الغرفة رديئة".

"تقصدين (رديئة). أم تحسين كفاءتها (رديئة)".

"قلت ذلك".

"قلت (رديئة). و(تحسّين) فعل لازم بعبارتك تمّ دعمه بالصفة. لو قصدتِ فعلاً أنك تحسّين كفاءتها (رديئة)، لوجب عليك قول شيء مثل (أصابعي بكماء فلا تلمس الأشياء جيداً). ولو أردتِ الآن ــ"

"تجلسين إلى مائدتي وتخبرينني كيف أتكلّم".

"مائدتك؟"

"هدوءاً، كلاكما. رجاءً؟ قليلاً من الهدوء".

"في صفّ من أنت؟"

"افعلي ما أقول، يا هيد".

نهضت هيد "أنت تأخذ صفها!"

"اجلسي، سمعتِ؟"

fb/mashro3pdf

جلست هيد بصمت مكتوم، تحسّ باليدين الضخمتين وتويجات الجاردينيا حتى دخلت إل بدلو الشمبانيا. بحضورها هدأت هيد ثم رفعت كأسها لتسكب لها فيه.

قال "الآخر. فهذا كأس ماء".

لم ترد هيد إخفاء مرحها وهي تتبادل النظرات مع ابنة ماي. وحين لمحت هيد ابتسامة ونظرة، انفجرت من تلقاء ذاتها فرمت الكأس الخطأ ناحية زوجها واندفعت أمامه نحو السلالم. نهض بابا قابضاً ذراعها. ثم بنوع من المجد الغابر، نزل بها عند ركبته وصفعها على كفلها. لا شديداً. ولا عنيفاً. بطريقة نظامية، ممانعة، كما تفعل مع طفل مزعج. حين وقف حال بينها والهروب من الغرفة نحو السلالم. لا مهرب مطلقاً، لكنها هربت. كان الحوار المُلتقط وقدمها تزلّ على السلالم مريحاً، كرائحة فظيعة تُلهي الضيوف وقد تلاشت أخيراً.

فصلت جينيور المجفّف "ماذا عن عائلتك؟ فلم تحدثيني عنها أبداً".

صدر صوت عن حلق هيد ولوّحت كزِعنفة.

ضحكت جينيور. "أعرف ما تقصدين. فقد انتفخت مرارتي قبل الحياة مع أهلي. جعلوني أنام على الأرض".

قالت هيد "ذلك ممتع. في أولى الأسابيع القليلة بعد زفافي، لم يطب لي النوم إلا على الأرض. ذلك ما اعتدت عليه".

fb/mashro3pdf

حدّقت هيد في وجه جينيور بالمرآة، وهي تفكر: ذلك ما جعلني أتبنّاها. كلانا هنا، وحدنا. نملّ يتحرّق لينضمّ للعائلة. كان الزواج فرصتي للخروج، لأعرف كيف أستلقي بسرير حقيقي، ويسألك شخص عما تريدين تناوله، بل يطعمك من الصحن. الجميع بفندق فخم حيث تُكوى الملابس ثم تُطوى أو تُعلّق بمشاجب ـ لا مسامير . حيث ترين نساء المدينة يتمايلن بصالة الرقص؛ يتخفّين وراء خشبة مسرح لمشاهدة الموسيقيين يعزفون ألحانهم ويثبّت المطربون ملابسهم الداخلية أو يتناولون رشفة نهائية قبل الذهاب لغناء "في الظلام، في الظلام " بعد الزفاف مباشرة، بدأت عائلتها الظهور ومصّ دمها. مهما كلّفها من خزي، فعائلة كوسيه كانت (أصبحت) عائلتها. كانت مضطرة للقتال لنيل مكانة فيها، لكن باب مكّنها من ذلك. كان حول الجميع يساندهم. وبان ذلك مرة تلو أخرى ـ عليهم توقيرها. كما حدث حين عادا من "شهر عسلهما" الذي دام ثلاثة أيام. تفجّرت الحكايات عند هيد برؤيتها كرستين. حين تهادت بخُفّها الجديد المربوط بمكحليها، أوشكت على الوقوع من السلالم، ولم تُقابل فقط باحتقار ماي بل عبوس كرستين أيضاً.

بدأت ماي طبعاً السخرية بصوتٍ عالٍ من ملابس هيد الجديدة؛ لكن كرستين انضمت إليها بمجردٍ بسمة متكلّفة لم ترها هيد من قبل.

fb/mashro3pdf

قالت ماي وهي تمسك جبهتها "بحقّ الله ماذا تلبسين؟ "تبدين كـ، أ "

قال بابا "هوا. هوا. لا يعجبني هذا السلوك. اخرجا ـ كلاكما. أتسمعانني؟"

نظرت هيد مرتجفة إلى كرستين طلباً للنجدة. لم تجدها. عيون صديقاتها باردة، كأن هيد خانتها، بدلاً من التفافها على الموضوع. تقدّمت إل بمقصّ وجزّت طرف السعر المعلّق بكُمّ هيد. تساءلت، ماذا يضحكهن؟ الحذاء مكعّب النعل؟ جورب الشبكة الأسود؟ البذلة البنفسجية البديعة؟ كان بابا مفتوناً بما اشترته. أخذها لمحل كبير رائع دون يافطة أو سياسة "لا للملونين"، حيث تستطيعين استخدام الحمام، قياس القبعات (يضعون منديلاً في تجويفها)، وتخلعين بحجرة خاصة في الخلف. تخيّرت هيد أشياء تلبسها فاتنات الفندق وظنّت ابتسامة البائعة العريضة وضحكة الزبائن الآخرين الجذلة تعبيراً عن موافقة سارة على خياراتها. قال أحدهم "تبدين كالحلم"، وتفجّر مهتاجاً بالسرور. لحظة خروجها من غرفة القياس بفستان بيج كريمي على كتفه ورد حريريّ أحمر مخيط، وأعلى صدره مقطوع الحافة ليُجمّع الثديين أماماً، ابتسم بابا وأومأ قائلاً "سنأخذه. سنأخذ ذلك كله".

تسوّقا طيلة أيامهما الثلاثة، تركها بابا تشتري ما تريد، حتى أحمر شفاه باريزيان نايت. كانا يلعبان "رست"(3) صباحاً ثم الغداء

fb/mashro3pdf

بمطعم رينودس. في غير الفندق الذي يقيمون فيه ولا يضمّ صالة مطعم، وهو ما أسعد بابا، انصبّ همّه على أعمال تجارية لملونين كانت أقلّ إشباعاً من أعماله. أخذها إلى شارع برود، إخوان إدورز، وولورث، هانسون، لتبتاع حذاء عالي الكعب لكنها أخذت أيضاً صندل وارشي[1] وخفي غرفة نوم بلون بوّاق وجورب شبكة. كانت مساء وحدها، حيث يزور أصحابه ساعات قليلة بغرض العمل. لم تهتم هيد، فلديها كتب ملونة ومجلات مصورة ودمىً ورقية تقصقصها وتُلبسها. ثم هناك الشارع. من نافذة طابقهما الثاني، تراقب الناس والمارة تحتها بافتتان مشدوه. سيارات سوداء مربعة الأسقف، تسقسق أبواقها. جنود وبحارة، نساء بقبعات صغيرة كمخدات دبابيس. شجر خضراوات أمام ملصق "العم سام يريدك".

أخذها بابا لترى **كم كان الوادي أخضر**، **كيتي فويل**. كانت تنشج عالياً وطويلاً عند رؤية **عناقيد الغضب**، وينقع منديله بللاً. كانت مشدوهة كشهر العسل، تنتظر على نارٍ أن تعود فتخبر كرستين عن كلّ شيء. آذاها استقبالها، فكتمت حكاياتها لنفسها. المرة الوحيدة التي أقامت فيها سلاماً مع كرستين، عرضت عليها ارتداء خاتم زفافها، فانفجر المطبخ. كان أربعتهن ـ ماي وإل، كرستين وهيد ـ يجهّزن الخضراوات حين سلّت هيد خاتمها، أمسكت به خارج إصبعها إلى كرستين وقالت "البسيه، لو أحببت".

fb/mashro3pdf

صرخت ماي "أنت حمقاء صغيرة!"

حتى إل التفتت إليها. قالت "انظري إلى نفسك. فالشوارع لا تمضي هناك".

انفجرت كرستين باكية تركض نحو الباب الخلفي. ووسط انهمار المطر، استطاعت هيد سماعها تصرخ بوَصلة "ردَح" مُهينة[5].

تفحصت هيد حبوب البازلاء عن قرب بينما يرنّ برأسها آخر وَصلة "الرَدح".

حين سحب عمدة سيلك كرستين لترجع تلك الليلة عن محاولة هربها الحمقاء، صفعها على وجهها، ولم تخاطبها هيد بكلمة. بل وقفت على السلالم مع بابا متناولة يده بين يديها. بعد أسبوعين، راحت كرستين تاركة هيد لتُعيل نفسها. كان بابا وإل المُخلّصين لها وسط العالم المحيّر.

قالت جينيور "لم أعرف لي أباً. فقد قُتل بالجيش. في فيتنام".

قالت هيد "ارتاح على الأقلّ".

"ولم تُظهر أمّي أيّ اهتمام بي".

"أنا أيضاً".

"ربما كان عليّ أن أتزوّج، كما فعلت".

"حذار".

"آه، قد تُطردين من هذا المنزل الكبير البديع".

fb/mashro3pdf

فكّرت "فيتنامي الخاصة. غير أني خرجت منها حيّة. لكن كما تقولين، تركني بخير بعده".

"انظري؟ ألم يسعدك أنك أثرت أساه عليك؟"

"آسفة؟" انتصبت هيد. "ماذا حدا بك لقول هذا؟"

"آه، لا (أسف). لم أقصد. قصدت أنه عرف أنك ستكونين وحيدة".

"طبعاً. لكن دون شفقة. كان، كان..." لم تستطع قولها، وبعد 1947 لم تسمعه يقولها أبداً. لم يقلها، وقد انتظرت أربعة وعشرين عاماً. كانت الصرخات المنطلقة من فمها حين مات اعترافاً بأنها لن تسمع الكلمة ثانية.

"اسمعي" تراجعت لتلمس كوع جينيور. "هناك ما أودّ أن تؤدّيه لأجلي. معاً. سنؤديه معاً. لأجلك مثلما لأجلي".

"حاضر. ما هو؟"

"أحتاج بعض المستندات. بمكان لا أستطيع الوصول إليه بنفسي. خذيني هناك وساعديني في العثور عليها".

"آخذك إلى أين؟"

"إلى الفندق. العليّة. سنحتاج قلم حبرٍ".

لم تجده جينيور. بحثت عنه بالغرف الأخرى، وحين جلست بغرفة مكتبه ولبست ربطة عنقه، لم تتبين أثر عطر ما بعد الحلاقة؛ أبداً. همس بأذنها "أهلا، حبيبي اللذيذ". قد لا تحتاج منه ذلك. حتى توافق. ربما ضمن أنها ستعرف ما تفعل. تفتش أولاً

fb/mashro3pdf

عن كرستين؛ تتأكد من ودّهما لو أخفقت خطّة هيد. يجب أن يكون إخراج هيد إلى سيارة لا تراها كرستين أمراً سهلاً، فنظام المنزل موثوق كنظام إصلاحية.

أقعت مساءً قرب كرستين، وكانت جالسة بالشرفة الخلفية مع علبة صودا في يد وسيجارة بالأخرى. تلبس كرستين بلوزة دون كمّين تحت مئزرها، غير مبالية بجوّ البرد. طرقت جينيور رماد سيجارتها.

"هل آخذ واحدة؟"

"اشتري لنفسك. تقدرين على ثمنها. أما أنا فلا".

"كرستين، افترضي لا أقدر".

"بل تقدرين على ثمن هذه العلبة، وثمن السجائر".

"آه، أنا لا أدخن عموماً. فهذا عفن".

ضحكت كرستين وهي تفكّر في جينيور المندفعة التي وصلت المنزل يوم عادت. قالت "أحسن لك".

"كيف أصبحت لا تقدرين على ثمن شيء؟ فعملك شاقّ أكثر منّي".

"لأن رئيستك مجنونة وشريرة وتحتاج للعون دائماً".

"سأعينك".

"لا ذلك القدر من المعونة. ألا تلاحظين فيها شيئاً غريباً؟"

"نوعاً. ربما".

fb/mashro3pdf

"نوعاً؟ من لا يغادر غرفة لسنوات غير معوز؟ ما تتكلّمــــون عنه كلكنّ، على أي حال؟"

"حياتها هراء".

"يا إلهي".

"أرتني صوراً. صور زفاف. رأيت صورة لك جميلة بزفافها. كنت شهوانية يا كرستين، شهوانية فعلاً. هل تعرفينها منذ وقـــت طويل؟ أولاد عمومة أو غيره؟"

"أولاد عمومة؟" لوت كرستين شفتيها.

"لا أقارب؟ مجرد صحاب؟"

"ولا صاحبة. هذه جدّتي".

"ماذا؟"

"سمعتني. جدّتي. ألا تصدقين؟"

"لكنك من عمرها".

"بل أكبر. أنا أكبر ثمانية أشهر".

احتدّت جينيور "دقيقة واحدة. قالت تزوجته من ثلاثين عامـــاً ومات من خمسة وعشرين عاماً. إذن فقد كانت... وليدة".

"تذكرين ما حدث". رشفت كرستين من العلبة.

"وكنتِ... كم عمرك؟"

"اثنتا عشرة. وقد تزوجت جدّتي بالحادية عشرة. كنـــا أعــزّ صحاب. بنينا ذات يومٍ قلاعاً على الشط؛ ثم أجلسها على حِجــره اليوم التالي. لعبنا ذات يوم بالمنزل تحت لحاف؛ ثم نامت بفراشه

fb/mashro3pdf

اليوم التالي. لعبنا ذات يوم "الولد"؛ ثم ضاجعت جدّي اليوم التالي". تلمّست كرستين مجوهراتها وهي تلوّح بأصابعها كراقصة الهولا(6). "كان هذا المنزل ذات يومٍ لي؛ وامتلكته اليوم التالي".

أبعدت سجائرها ووقفت. "الزواج قبل أن تأتيك دورتكِ الأولى، يدمّر العقل. ألم تكن تحتاج مساعدة مهنية؟" نفخت كرستين في خواتمها. قالت "عذارى ومن ثمّ أطفال"، وتركت جينيور تتأمّل أفكارها ملياً.

خلف المطبخ، بدأت كرستين تفرز عرقاً. وضعت جبهتها على باب الثلاجة، ثم فتحتها ليمرّ هواء بارد. يسبقه موجة حرّ، كما أحسّت به على السلالم، لكن عادت بسرعة فجعلتها ترتجف. مرت لحظة قبل انفراج الوشاح ليكشف مشهداً واسعاً على حجر بدون حياة وتساءلت أهي التي تحتاج مساعدة مهنية، أم هيد. استخلصت مكعّبات ثلج، لفّتها بمنشفة بها لمست حلقها وصدغيها ورسغيها حتى شعرت بالثبات. ظلّ البرد قارساً. منظر رائق من العالم ــ قبيح معتم أجدب بدون ندم. ماذا تفعل هنا؟ يتسارع عقلها؛ حوافزها كليلة. عرفت أنها تلعب دور المشغولة، لكن أنّى لها أن تسندها ــ صخرة باردة معراة من الخضرة؟ أغلقت عينيها، وضغطت بالمنشفة الباردة على جفنيها، همست لا! وفردت عمودها الفقري. شيء مهمّ. لم يكن صراعها مع هيد غبيا ولا مبدّداً. فلن تنسى كم حاربت من أجلها، تحدّت أمّها

fb/mashro3pdf

لتحميها، تهبها ملابس: فساتين، شورت، مايوه، صندل؛ للتنزّه وحدها بالشطّ. شاركتها ضحكاً يوجع المعدة، لكنة سرية، وعرفتا لحظة النوم معاً أن حلم واحدة نفسه حلم الأخرى. ثم تتأنقين بعد أن تخلف صديقتك الرشاش بحمّامك، تتاجرين بقصص ملفّقة وتهمسين تحت ملاءات فراشك بغرفة معتمة اخر الصالة يفوح منها خمر وأفعال عجوز، يفعل أشياء ليس لأحد أن يصفها، فظيعة ليس لأحد أن ينكرها. لن تنسى ماي. ولم تنسى؟ فقد غيّرت حياتها. غيّرتها مدى الحياة. حتى سقط فكّ إل.

بعد الزفاف وبين الحين والآخر، كانا يلعبان معاً، لكن ترقد كلٌ منهما بانتظار إهانة الأخرى، وتنتهي الجهود بالشجار. ثم الدموع، تمسكها يد ماي؛ تهسهس الكلمات خشية أن يسمعك الجدّ كوسيه تستهزئين بعروسه.

تنتشر أكداس من المَلام. كان الرئيس الذي لا يوقفه أحد، في منجاة من ذلك مع أيّ شيء يريده. ثم هناك أمّها التي تخيّرت إرسالها بعيداً لا مواجهته. وضعتها بمدرسة بعيدة وأثنتها عن قضاء إجازة الصيف منزلياً. قالت، لصالحها، فكانت ترتّب معسكرات الكنيسة ورحلات الصيف لزملاء الدراسة. ومرة أدرجت ماي اسمها أخصائية بنُزل ستلمنت للفتيات الزنجيات الهاربات من سوء معاملة الأهل. لم تكن تهتم بطرود عيد الميلاد بالبريد أو الأحذية الغالية بمقاسات خطأ في سبتمبر؛ ورغم امتلاء المظاريف بأكاذيب ونقود إلا أن الرفض واضح. كانت إل أيضاً

fb/mashro3pdf

محطَ اللوم؛ فهي حمامة السلام الوحيدة بالمكان، سواء حملقت أو هزت رأسها، لكنها لا تساند أحداً. وقعت خيانة حقيقيــــة تحـت قدميّ صديقة كانت تبتسم وهي تجرّها عبر الصالة نحو العتمــة، رائحة خمور، سمة العجوز. ومن يذهب؟ من يترك غرفة نومها، مسرحها والبحر؟ البريء الوحيد بالمكان، هو. حتى حين عــادت رابطة الجأش بالسادسة عشرة، على اســتعداد لتولّــي مكانتـها العائلية، ألقوا بها بعيداً، فقد كانت هيد عندئذ ناضجــة بغيضــة. عفيّة حتى لتستطيع حرقها.

ذهبت كرستين لغرفتها وجلست بكرسيّ الاستلقاء البالي الــذي تفضّله عن الكنبة الخادشة. انحسر العَرَق؛ تسبقه الدوخة. كآبـــة ملحة. فكّرت، كنتُ الوحيدة التي حلُمت بهذا العالم. وليس بمقدور الطيبين امتلاكه.

كان مختلفاً. وكانت تعني أن تكون مختلفة. بالقطــار، وهــي تتجه عائدة من ميبل فالي، خطّطت لمقصدها وسلوكها بحــرص. كل شيء سيصبح لطيفاً، فعودتها متزامنة مع احتفال جامع: عيـد ميلادها والتخرّج والمنزل الجديد. صمّمت أن تتمدّن مــع هيــد، تهيمن لكن بلطافة، كما علّموها التصرّف في ميبل فالي. كيف أو لماذا غوت استعراض مهارتها في النحو، لم تستطع التذكر. مــا تذكره جيداً جدّها وهو يصفع هيد، وفيض اللذة الذي غمرها حين س.اند حفيدته ضد زوجته، وكنوع من التغيــير ســارت قُدمــاً لتستعرض سلوكاً تُكافَأ عليه. كانت بهجة كرستين عميقة مفرطـة

fb/mashro3pdf

بينما ثلاثتهم ـ عائلة كوسيه الحقة ـ معاً، رحلوا مسرعين بالسيارة الكبيرة، غير الجديرة بحقهم والتي لا تُرى بأيّ مكان.

بعودتها مع ماي، رأتا الدخان منتفخاً كوسادة من نافذة غرفة نومها. صراخ متسارع في المنزل وعلى السلالم، وجدتا إل تطفئ ناراً بجوالات السكر المسودة وزن عشرين باوند، تجعل الشرّ زبداً.

كان على كرستين ثانية، لا هيد، أن ترحل. ترك الجدّ كوسيه حفل الفندق فجأة ذاهباً حيث لا يعلم أحد. ظلّت الأم وابنتها، بخوف وغضب، يقظتين ترغيان على الثالثة صباحاً حتى عاد، عاري القدمين ككلب الفناء، ممسكاً حذاءه بيمينه. بدلاً من تحديد مكان هيد ليلقي بها حيث جاءت، ضحك.

استهجنت ماي "كادت تقتلنا".

قال "الفراش كان شاغراً"، وهو يضحك في سرّه.

"الليلة مضت! فماذا عن الغد؟"

"سأُكلّمها".

ترجوه ماي "تكلّمها؟ تكلّمها؟ بيل، أرجوك!"

"ماي، اهدئي. قلتُ سأهتم". تحرّك كأن الحوار انتهى ويحتاج للراحة. لمست ماي كوعه.

"ماذا عن كرستين؟ لا يمكن أن تعيش هكذا. فالوضع خطير".

قال "لن يحدث هذا ثانية"، مشدّداً على كلمة "لن".

"تعرفها، يا بيل. خطيرة".

fb/mashro3pdf

نظر إلى ماي، وتبيّن كيف بدت طاعنة، أومأ "أنت على حقّ". ثم لمس شاربه "أين يمكن أن تذهب أسبوعاً أو اثنين؟"

"هيد؟"

ردّ "لا"، مندهشاً من الاقتراح ثم حانقاً. "بل كرستين".

"لكن هيد المذنبة. أشعلت النار. فلماذا ترحل كرستين؟"

"هيد زوجتي. لا كرستين. كما أنها ستبتعد وقتاً وجيزاً. حتى تستقرّ الأوضاع هنا".

وكما قال، صرّت كرستين حقائبها، راحت بعيداً لمنزل صديقة دراسة. أسبوعاً أو اثنين. سيخبرون الناس "إجازة"، سواء ظنّ أحد أم لا. كرستين في زيارة قصيرة وعاونتها ماي في الترتيبات.

استقرّت كرستين واقفة هناك بلباس نجمة سينما، متوّجة بماس زائف. لم ينظر إليها يوماً. ضحك. حاولت زوجته القحبة الصغيرة الرخيصة قتلها ـ نوعاً ـ وحين تنجح غداً، هل يضحك أيضاً، ينظر أخيراً إلى لحم تفحّم من لحمه وتهدأ أعصابه أيضاً كأنه ضيف متفحّص أو عازف دون عرض أو شجار مع بائع ردّ أقلّ من باقي ثمن ويسكي سكوتش؟ بعد، زيارة لزميلة دراسة. بعد، نوبات جنون. البس حذاءك أيها العجوز، وتطلّع فيّ جيداً الآن، فلن تراني ثانية.

قلتُ لها، أنت تفكرين في الموت دائماً. قالت، لا. الموت هو ما يفكر فيّ دائماً. لم تعرف أنه يجثم هناك. تظنّ الموت سيؤول

fb/mashro3pdf

إلى نعيم أو جحيم. لم يخطر ببالها أنه قد يكون أكثر من نفسه. قد تفعل ما تريد إلا أن تفعله بنفسك. هكذا تظنّ ماي علّة أن تختزن وتدفن، تحفظ وتسرق. كان الموت يسعى بتمعّن لفتح الباب، وتحتاج براعتها جميعاً لتحطمه. ابنتها كمفصّلة مُخلّعة، ضعفها يؤدي بها لخسران كل شيء. كان عليها الدفاع عن كرستين لا مما بدا متشبثاً بوالدها بل من موت الفقراء الحيّ، ذلك النوع الزنجيّ المتآلف مع ماي. كانت حقيقة كرستين المشردة الراجية تتطلّب عرفاناً بلا نهاية على مائدة الإنسانية. لم يرعبها سوى البيض المعترضين. منحت نفسها الفرصة لشرح كيف جاء السيد كوسيه من صفّ طويل من عبيد مزدهرين هادئين ومُعتَقين مقتصدين ـ كلّ جيل يضيف إرثاً خلّفه سلفه. تطلق عليهم، المتعهدين المستقلين: إسكافيين، حائكات، نجارين، تجار حديد، حدادين، عمال سُخرة وحرفيين يبزّون مهاراتهم لكن يُضيّق عليهم لصالح أغنياء يُنعمون عليهم متفضّلين. صنع النجارون بيانوات رائعة؛ قدّم تجار الحديد معملاً لمعهد أهليّ. أخذ حدّاد حرفته لمزرعة جياد فجعلهم يعوّلون عليه بداية، ثم صار ضرورة لازبة، بعدها كان يربح. هنا، طلب أجرة لا مجرد مأوى مقبول. مضت القصة قليلاً قليلا، فتجمّعوا واصلوا ما يكسبون لذريّة حكوا لها علّموها إتقان المزيد. لكن ظلوا متواضعين، لا متباهين أو مزدرين ـ كانوا يتملقون البيض الذين يقصدونهم للحفاظ على علاقات حميمة

fb/mashro3pdf

معهم. تلك حكاية الشارع الطيب، على أي حال ـ الذي كان ملك الحرين حتى خطفتُه مع السيد كوسيه. كان يعرف أفضل، والمشكلة أن ماي صدّقته وهذا سبب أن هيد الصغيرة وهي تلبس فانلة رجل كفستان بدت لها نهاية لذلك كله ـ ذبابة دخلت من الباب، ثم طنّت فوق مائدة الطعام، ولو قرّت على كرستين، للطختها بنفاية كمن ولدت بها. تحمّلت رفقة الفتيات حتى عبث بها السيد كوسيه. تصوّرتها شيئاً سيخرج بسرعة. لو كان لدى هيد وكرستين فكرة عن الصداقة والتصرّف بأخوة لمجرد أن عجوزاً فاسداً متهوراً يعيش نزوة، لوضعت ماي حداً لذلك. إن لم تستطع طرد الذبابة بعنف، لمزّقت جناحيها ورشّت الهواء بمبيد ريد حتى لا تتنفس ـ أو تحيل ابنتها إلى حليف.

يا للحسرة. كن مجرد فتيات صغيرات. وخلال عام سيبدأن الدورة ـ نزيف حاد. جلد صافٍ يتحدّى الموت. ليس بمقدورهن دفع مجريات الأمور.

يوم أخبرنا السيد كوسيه عمن سيتزوج كان يوم افتتاح عمل ماي 7 ديسمبر. بعين عمياء انطلقت من الدفاع إلى الحرب. وكما يخبرك أيّ محارب شريف، فالحرب تفيد العُزّل وفيها راحة للحمقى. لم تكن هكذا دائماً. حين رأيتها بداية في 1929 تقف جنب بيلي بوي كما كانت عليه: آخر أبناء كاهن جوّال كان يتقبّل الملابس من حشود مصلّين يلفت انتباههم. كانت فتاة جميلة، مدلّلة قليلاً بمعطف مرتّق. ياقة فراء بالية، فستان

fb/mashro3pdf

بخضرة الخسّ وخفّ أبيض في أسود فيهلّ على بالك فوراً مزاد سلع رخيصة. حين استفهمتُ أين عثر عليها ابن السيد كوسيه، رفعَت يد بيلي بوي إلى فمها فقبّلتها. كانت تطوف أعلى وحول ردهة الفندق بطريقة عينيها التي أكلت كل شيء، ظننتها ستتصرّف كضيف توقّع أن ينتظره أحد. لكني أخطأت. فقد تجنّبَت حلّ أمتعتها الكرتونية؛ تغيّر فقط ذلك الفستان المستعمل وتنطلق. "دعونا" قالت بصوت لذيذ ناعم. "دعونا نلمّع هذا. دعونا نحرّك ذاك، نظفوا تحت هنا، امسحوا هناك..." لم ينجدنا غير الابتسام. فصوتها خافق بالسكّر وحركاتها تليق بسيدة. أما السيد كوسيه فكان يرى أن ابنه اختار زوجة تُمثّل إضافة.

لقد نقلَت بيلي بوي من انتظار الموائد إلى أعباء بار ثم حجز عطور، وحرّرَت السيد كوسيه ليفكّر فقط بالمال واللعب. حتى الحَمْل لم يُثنها. كانت ماي أول أمّ رأيتُها تفطم رضيعتها عند ثلاثة أشهر. مات بيلي بوي في 1935، فذهب سريعاً قبل أن يُتاح لنا وقتٌ لنشهده. زحفت كرستين تحت فراشي، وحين وجدتها هناك رفعتها لتنام معي. لم تكن طفلة باكية، فكان الإنصات لنشيجها وهي نائمة يريحني، فقد اعتبرت ماي وفاة بيلي بوي إهانة أكثر منها تراجيديا. تركت لي كرستين، بعينين جافتين كسلحفاة، لأربيها. غاب السيد كوسيه فعهدوا إلى ماي (معي) الحفاظ على دورة الأمور. في السنين السبع التالية وضعت طاقتها جميعاً في شؤون الفندق. سبع سنين من عمل

fb/mashro3pdf

شاقّ كوفئت عليها بـ "سأتخذ زوجة. تعرفينها. صديقة كرستين الصغيرة". كانت مكافأتها أن رأت حماها يتزوج زميلة لعب ابنتها بالثانية عشرة ثم يضع زميلة اللعب تلك أمام كل شيء، بما فيه هي نفسها وابنتها وكل ما تعمل لأجله. ليس هذا فقط. بل كان مفترضاً أن تعلَم وتدرّب زميلة اللعب لتصبح مسؤولة عنا. كان معظمهم يتزوج صغيرات سوداوات وقتئذ (كلما أسرع رجل لنيل فتاة، كان أفضل)، لكن أحد عشر عاماً؟ أمر مثير للمتاعب طبعاً، لكن هناك من نال أصغر عمراً. حماة ماي الجديدة لم تكن فقط طفلة بل من عائلة جونسون. ليس لها أن تبتكر بأي حلم وحشيّ عائلة أصبحت ترعبها أكثر. الأحمق على بيانات دواء الشراب الألماني. الهمجيّ على مسحوق سيزر لخميرة الكعك. ميت الدماغ على خلّ الفواكه ألدين، حبوب كورن كنكس، خيوط جي جي كوتس، ومواليد لوّثها ذباب على زنجبيل سانفورد. ذلك ما تراه حين تنظر إلى عائلة جونسون. قد تجدل شعرها بغرفة النوم، ترطّب صدغيها بالماء في المطبخ، حيث كلامها هو نفسه: الكسل ليس عادة بل ميزة؛ والجهل هو المصير؛ وسخ يتلبّث بالاختيار. ترتجف وهي تقول ذلك، كونها ابنة كاهن حاولت فعلاً رفع الوحل عن محبة كرستين، لكن تفشل حين تتطلع بعائلة جونسون. أو تسمع عنها. قالت، وتنصت لأسمائها. أسماء طنانة يطلقها الناس على بغال أو قوارب صيد: برايد. ويلكوم مورننج. برنسيس ستارلت. ريتوس

fb/mashro3pdf

سبريت. سولتيد. هيد ذا نايت[7]. أضف إلى ذلك الكارثة الكبرى ـ كسل الوالدين ويلبر وسيري غير المبرر، فكانا يظنان أن مجرد الجلوس بقارب تجذيف مع حبل هو عمل. أفقدهما قاع البحر طفلين، فاستخدما حزنهما بداية كنصيب شحاذ، ثم ضريبة فرضاها على الجيران. ولماذا لا يزوجان ابنتهما الصغرى لعجوز بالثانية والخمسين فمن يدري كم ستمسك أيديهما من مال. لو منحهما فاتورة بدولارين، قالت ماي، لتبقى دولار وخمسون فلساً ديوناً. نعرف جميعاً أن السيد كوسيه لا يشتري الرخيص ـ وإن فعل، فلأن قيمته ستعلو عبر الزمن. مثل طفل يكبر فوراً لتربية أطفال آخرين. ماذا حدا بي لشيء آخر يضايق ماي. لم تكن عائلة جونسون مجرد فقراء تافهين، بل يُتوقّع لبناتها أن يكبرن بسرعة في شقق تُرفع فيها الجونلات. إذن فما جذب السيد كوسيه إلى هيد بالمقام الأول قد لوّث ابنتها. قبل أن تبدأ ماي شرح ما يتعلق بالحيض، أو فكرت بحماية كرستين من أولاد غير ملائمين، خفق بيتها بلحم فتاة شهيّة، وهو الجوّ الذي نُقعت فيه كرستين بسرعة أكثر من نقع كعكة فاكهة بخمر الروم. وكان هذا تلبية لرغبة السيد كوسيه بإنجاب أطفال.

آه، ذلك ما قاله لأصحابه وربما لنفسه. لكن ليس لي. فلم يقله لي لأني عملت عنده منذ الرابعة عشرة وعرفت الحقيقة. كان يحبها. كما أن امرأته الرياضية، مثلما فعل كثيرون حين وضعت الحرب حداً للتمييز العنصري، غادرت البلدة. هذه بعض

fb/mashro3pdf

الحقيقة، لا كلها. أذكره يخبرني حكاية عن طفل سقط على روَث جواد راكض خلف جماعة إقرار الأمن وكيف ضحك البيض. أمتع الجمهور أنفسهم بمشهد قتل، عنيف. كان يكرّرها كلّ مرة يحتاج لمثال عن البيض معدومي الرحمة، فافترضت أنه ضحك أيضاً ثم أسف على ذلك بزواجه من هيد. كما تجنّب كرستين بالضبط لأنها تحمل عيني أبيه الرماديتين، التقط هيد لتصدر أنين السود الغابر. توصلت لاعتقاد مفاده أن كل عائلة بها أسود وتحتاج إلى أسود. عبر العالم كله، يفيد الخونة التقدّم. كمن يتعرض للسلّ. فبعد ملئه المقبرة، يقوّي الناجين؛ يعينهم على إدراك الفرق بين عقل منيع وعقل سليم؛ بين المستقيم والاستقامة ــ إنه، فوق كل شيء، التقدّم. مشكلة من تخلّفوا أحياء فيما يفعلونه بخصوص الانتقام ــ كيف تهرّب الحلو من عفنه. لذلك تتبين كيف تربّي العائلات أفضل خصومها. فلديهم الوقت وفرصة الشرّ المناسبة فيما يفضّلون من زبد العسل. رغم ذلك، فهو قصر نظر. ما نفع الحفاظ على مسيرة بغضاء فضلى حين يكون القريب الذي سمّمت حياتك معه هو الواحد (بل الوحيد) القادر أو العازم على حملك للحمام وقت لا تستطيعين الوصول إليه بنفسك؟ كنت أجلس عند قدم سرير ماي أو فوق مرآتها أحياناً وأراقب هيد تصبّن مؤخرتها، تهرس طعاماً مطبوخاً رديئاً لضبط قوامه الصحيح. تقصقص أظافر قدمَي ماي وتمسح القُشارة البيضاء عن جفنيها. الفتاة التي

fb/mashro3pdf

أساءت ماي معاملتها بحياتها هي من تعتمد عليها الآن لتمسك رأسها فوق حوض الغسيل. تشاكسها كل ثانية، لكن تفعل هذا: تهويتها، تنظيفها، مناولتها، دعكها، قلبها ناحية الجانب الرطب من السرير بالليالي الحارة فتجعلك تبكين. ولا حسّ هناك بتضييع الوقت والحياة حين تحاول وضع امرأة بملجأ لينتهي الحال بأن تبشري الثلج من أجلها لتمصه. ما جدوى إضرام النار بعشّ تسكنينه لو كان أمامك أن تعيشي في الظل خمسين عاماً؟ رأيتُ ما فعله السيد كوسيه مع هيد بعشاء عيد الميلاد. بسطت قلبي إليها وخليته يعرف. كان يتلمّس شيئاً بجيبه بينما تنتظره ماي وكرستين بالسيارة، فطرقت على كتفه. "ألن تضع يدك عليها ثانية بأي شكل كان. افعلها، وسأرحل طويلاً". نظر إليّ بعيني بيلي بوي قائلاً "أخطأت يا إل. خطأ كبيرا". قلت "أخبرها". وكلّ ما نلته من ردّ كان آهة، ولو لم أنفعل لعرفت مباشرة من تأوه عليه.

لم أعلم بما حدث حقاً بصالة الرقص، وأمي لم تُلزمني به. بمجرد رحيلهم عرفتُ أن هيد على وشك أن تفعل شيئاً. فقد اتصلت بواحد من نُدل الفندق؛ أخبرته أن يأتي ليأخذها. بعد حوالي ساعة من رحيلها سمعتُ شاحنة تركن وباب يُصفق. ثم كعبين عاليين يركضان عبر الصالة. ولم تمرّ دقائق خمس حتى شممتُ دخاناً. شعرتُ بضرورة الصعود هناك بسطل ماء وظللتُ أركض عائدة وهلم جرا من وإلى حوض الحمّام لأملأه، لكن لم

fb/mashro3pdf

يُجد الماء نفعاً مع حروق المراتب. فقد تظنّ أنها سطحيّة، لكن تجدها عميقة هناك ترتقب، تستمهل وقتاً حتى تدير لها ظهرك. ثم تأكل المكان كله. سحبتُ أكبر كيس سكر وجدته هناك. برجوع ماي وكرستين كان الفراش ساكناً، كعصير فاكهة.

لم تعترف هيد أو أنكرت الحريق لكن ظللتُ أتعجّب لماذا، فلو كانت مجنونة به لنفّست في كرستين بدلاً منه. ولم أتعجّب بعدها. كما لم أتعجَب لم ظلّ مزاجه رائقاً حين علم أن هيد الفاعلة. وكانت ماي غير متسامحة بطبعها، فبعد ثمانية وعشرين عاماً ظلّ يعجبها منظر خصمها مجبرة على إطعامها. كان يُرضيها أكثر مما لو كانت تُمرضها بنتُها ــ وهو ما حدث أخيراً.

زمجرت هيد كما تتوقّعين لدى مقاطعة كرستين، لكن أسعدها تحوّل ماي إليها. وبحالة تطلّع كرستين للوظيفة كانت ستغيّر رأيها وترحل، ثم ولّت هيد وجهها نحو فراشها ويداها مطويتان. ظننتُ أولاً أن ماي سترتاح لعودة ابنتها، رغم أن كرستين كانت خيبة أمل كبيرة لها. وكانت نوبات شجارهما سباقات مهينة تفصل بينها سنوات من العدم. فاندهشتُ من ردّة فعل ماي. كانت خائفة. لم توقن بأن ابنتها قد تؤتمن على وسادة. لكن كرستين نهضت بمهام طبخ بديع ونباتات تملأ الغرفة، وللحقّ فقد أسرعت كلّ منهما للمرأة العليلة. لعبت

fb/mashro3pdf

كرستين دور الفتاة المبذرة نحو عام، وبمطلع فجر بهيّ، ماتت ماي. مبتسمة.

لم أدرك كنه الابتسامة. فلم تستهدف شيئاً مضى في طريقها ـ عدا فأس صغيرة رمت بها بين هيد وكرستين وهما فتاتان صغيرتان. كانت طعنة. فهي تقلع الأرض التي كانتا تقفان عليها. وحين مالت كرستين لمسح لباب الخبز عن ذقن أمّها، رأت ماي نظرة أليفة بعيني ابنتها. وكما بالسابق. تهامسا عن هيد، أنعشا نفسيهما بحكايات قديمة عن كيف حاولت خداعهما لتصديق أنها تستطيع الكتابة؛ الضربة الخاطفة سقوطاً إلى الأرض حيث لم تتوصل للمدية؛ كيف خاب دلالها للسيد كوسيه أن يحصره بين ملاءاتها؛ وخابت القبعة التي اختارتها لجنازته. أصبحت الأم وابنتها صديقتين بالنهاية. مرت عقود من المرارة، محكومة بمشاجرات انقضت حول مالكوم اكس، ريفيرند كنج، سلمى، نوارك، شيكاغو، ديترويت، واتس. مات السؤال عن أفضل من بالسباق، فقد أجابت لهما عنه هيد. كانت تمثّل السلفية التي حاربتاها كلاهما. لم يفز أيهما، لكنهما اتفقتا على الهدف، وهكذا أخمن أنه كان سبب ابتسامة ماي بمطلع ذلك الفجر البهيّ.

ضمت هيد أصابعها. كانت كرستين تزينها. لا يهم. فمعاركهما مستمرة كبطلتي سباق رغماً عن التضحيات. عار صارخ.

fb/mashro3pdf

الهوامش

---

(1) قَصّة الوصيف: على هيئة شعر مرسل إلى الكتفين ملفوف للداخل. (م)

(2) المرزبان: حلوى من سكر ولوز وبيض. (م)

(3) الرست: مصارعة اليدين. (م)

(4) وارشي: صندل بسير جلدي، يلبسه هنود المكسيك. (م)

(5) وصلة الردح، بلكنة تخصّ ثلة من الزنوج، تطلق عليها موريسون اسم "يداجاي". غير قابلة للترجمة. (م)

(6) الهولا: الرقصة الوطنية بجزر الهاواي. (م)

(7) معانيها، على التوالي: عروس. صباح الخير. الأميرة ضوء النجوم. الروح الطيبة. وحيدة. حنان الليل. (م)

fb/mashro3pdf

7
حارس

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

"لا أعرف ما أقوله للولد؟"

"آه، فكِّري في شيء. بسرعة. وإلا سأفعل".

"ما؟ بماذا تخبره؟"

"الغرض من زمام البنطلون. مسؤولية الأب. أخلاقية الإيدز".

"إيدز؟"

"من يدري أين أو مع من كانت؟ من هي، عموماً؟ فليس لها أهل ولم يسمع عنها أحد. تلبس كامرأة شوارع. تتصرف كـ، آ..."

"هي لن تعمل معهن إن لم تكن على ما يرام. لها مرجعيات أو من هذا القبيل".

"تخرفين أم تزعمين؟"

fb/mashro3pdf

"انظر من يتكلم".

"سُمعة كرستين تُخزي إيزابيل، وسُمعة هيد من سُمعة عائلة جونسون، تذكرين؟"

"ماذا يُفترض أن يعني؟"

"يعني أخلاقيات من أيِّ نوع لم تعهدها تلك العائلة. ماذا تعرف هيد، التي تزوجت في سن يانعة بالحادية عشرة، عن أخلاقيات، التزام..."

"لم تدُر حول كوسيه وتعلم أنها لم تصفح عن ماضي كرستين. ولا تلُمها عما فعله والدها".

"لا، لكني أعرف طبيعة والدها. هل حاولت أم لم تحاول حرق منزلها؟"

"لا أصدق".

"آه، لا تسقط البذرة أبعد من الجراب. لو استوعبن هذه الفتيات لتعمل معهن، فماذا سيحدث أيضاً؟ أنّى لك الوثوق بأي منهن؟ أن تعهد هيد إلى رومن بتنظيف فنائها لا يعني تغيّرها".

"تغيّرها من ماذا؟"

"من قحبة مخادعة تودّ السيطرة على الناس".

"ظننتك تقصد سلوك رومن".

"هو كذلك. سلوك يتأسّى بعاهرة سابقة وعرافة. اسمع يا سندلر، لن أكون جدّة كبرى أو ممرضة مجانية أو محفظة جيب عميقة لأمّ مراهقة تافهة لمجرد أنك لا تعرف ما تقوله لولد

fb/mashro3pdf

بالرابعة عشرة. كما أننا مسؤولان عن رومن. تتوقّع ابنتنا منـــــا ذلك. تعتمد علينا".

نخر سندلر ليخلّي بينه وجدل زوجته، نقطة بنقطـــــة، يـــزورَ عنها. عرف ما سيقوله لـــ رومن، لكنه عرف أيضا عدم أهميته. تحجيمه قد يجعل الأمر أكثر سخونة وأشدّ غواية. لن يبلغـــــه أن يختار فتاة غيرها، بل أن يتخلى عمن مارس معها هياجه الجسديّ كاملاً. كأنك تخبر بطّة: لا تتبختري. عليه أن يستخدم شيئا. كبَوتا على الأقل، لكن فيدا توقعت المزيد ــ نهاية العلاقـــــة. تضيـــف حقيقة غير محتملة أنه ظنّ رومن يتعامل بتعقُّل مـــــع الأشـــياء، يتملّى. فلم يكن مدمناً، ولا انخرط في عصابة، لم تغلّه سلاســـــل بمحكمة، وسلوكياته بالمنزل متمدّنة. فيدا على حـــقّ. فـــالجيران تغيّروا وكذلك الزمان. لم يعرفوا الفتاة، ولا علموا بما تضطلع به حالياً نساء كوسيه. مجرد نميمة، تخميـــــن، وشـــكاوى نـــاس لا يعرفون أكثر مما يفعلون. قديماً، كان الجميع علـــى علـــم بكـــلّ شيء. قديماً، كان أحدهم يكلّم الآخر عن ابنه أو ابنته؛ أو تنقـــضّ نساء على فتاة مسرعة. عدا عائلة جونسون. فلم ينقـــضّ عليـــها أحد. لم تكن نمطيّة، حتى في آب بينش، حيث يعيش الناس فـــوق بعضهم البعض وكل سَعلة أو نظرة جانبية، مراقَبَة.

فكّر، يا يسوع، مرّ ذلك من خمسين عاماً. ما جدوى تذكّر أيام غابرة طيبة كأن الماضي كان صافياً؟ عرف حقاً أنه كان خانقـــاً ببساطة. لم تذكر فيدا، ضمن حكايتها عن نزعة الشرّ، شيئاً عـــن

fb/mashro3pdf

بيل كوسيه. تصرّفت كأن هيد طاردَت فغوَت رجلاً بالثانية والخمسين من عمره، أكبر من أبيها. اختارت الزواج منه لحظة إبلاغها به. يُحتمل أن فيدا، كمعظم الناس، كانت تغيظ الطفلة فقد ظلت زوجته، تحبّه وتتولّى تجارته. في بالهم أنها ولدت كاذبة تنقّب عن ذهب، لم ترتقب عيد ميلادها الثاني عشر خشية القيل والقال. صفحن عن كوسيه. في كلّ شيء. حتى مسألة لوم طفلة على اهتمام رجل كبير بها. ماذا يُفترَض أن تفعل؟ تهرب؟ أين؟ وهل يوجد مكان لا يصل إليه كوسيه أو ويلبر جونسون؟

كان يرى هيد مؤخراً أكثر من الآخرين، وقد طرق الباب يسألها إن كانت تحتاج استخدام رومن معاوناً بعد المدرسة. كانت متمدّنة. دقيقة كالوتد، دائماً. عرضت عليه قهوة مثلجة، لتدعه يرى وضعية كرستين بالمنزل. يجدها سندلر أقلّ ألماً مما يحسّ به الآخرون. خمّن، ربما لصداقتها مع زوجها. لهفتها ليّنة كما يذكر عن بيل كوسيه حين أخبره أنه لم يلمسها حتى جاءتها الدورة؛ انتظر عاماً وبعده أخذها مستهلاً شهر العسل. صعب عليها أن تدور هنا وهناك. لا يستطيع القول إن كانت جميلة الطلعة أم لا فما يهلّ على باله عنها كلمات من قبيل "زائفة" و"حساسة". زائفة، طريقة امرئ يقفز من كوخ إلى قلعة بين عشية وضحاها. حساسة، طريقة امرئ يحسد بينما ماي فوق ظهره. لكن ما رآه سندلر لا يُقارَن بما رآه بيل كوسيه. فما رآه كأن الخمسة وعشرين عاماً لم تكن. وهيد التي يغرق كوسيه في

fb/mashro3pdf

ذكرياته عنها بحالات سُكره على القارب ـ كأنها مـاتت ـ لـم تكن حانقة دائماً من الحذر طفيفاً أو انتهاز فرصة للعثور علـى خطأ، بل ملاكاً طويل الساقين بعينين كالشـموع وبسـمة ليـس بمقدوره غير اللحاق بها.

تقلق سندلر ثقة الاخرين الجنسية بأنفسهم (لم يُبلغهم شيئاً عـن ذلك بالتأكيد)، وكان شغله الشاغل تحويل الموضوع. لكنه يتذكّـر عبارة كوسيه **عضة الحلم** حين عبّر عن هُيامه بأول لمحة مـن هيد: مؤخرة هزيلة، صدر ناعم كخشب أملـس، جِلـد رَخـص ورطب، مثل شفة. سُرّة مخفية فوق شَعر شحيح، كمولود جديـد. لم يفسر كوسيه جاذبيتها بطريقة أخرى، غير أن تقول إنـه أراد يُنشئها لكن لم يرتقب أن يشاهدها تكبر. ملاحظة صلبة مقرّبـة لا يعرف معظم الرجال لذّتها فهي لا تجعله حقيقياً فقط بل نشـطاً. بسماعه وصف كوسيه الجذل عن زوجته، لم يجزع سندلر كمـا توقّع، فصورة الحكي التي انبعثت لم تجلب على باله طفلة بـل موديل موضة. رغم تورّط كوسيه كلياً عندئذٍ مع نسوة ناضجات، فلا تزال ذكرى نَيله عروساً طفلة تثيره. ليس لدى فيدا ما تقولـه عن ذلك، ولا يذكر سندلر سوء التربية، حتـى لا يطعـن وهـم زوجته بضربة قاضية من نفاذ البصيرة.

أوه، أفضل. فكّر، هذا ما أهدف إليه. يوم وصل رومن ليمكث عرف أن حمايته عليه. من شرطيين أشرار، مذبحة شارع، موت

fb/mashro3pdf

مخدّر، مُدَى سَجن، ونيران صديقة بحروب البيض. لم يصدّق أن أنثى تمثّل التهديد الجدّي وخطره الحقيقيّ الأول.

فخطّط مع فيدا ليكون وحيداً مع حفيده. أدهشه شغف الولد مثله. أكان يودّ الكلام أيضاً؟

وقفت فيدا عند النافذة تمسح راحتيها معاً ـ كلمحة إنجاز. تسترضيها رؤية زوجها وحفيدها بسيارة معاً في مهمّة. كان جيل رومن يثيرها. فلا شيء مما تعلّمته بطفولتها أو تربية دولي نفعها معهم، وبكلّ مكان ترى الاباء محيّرين. تهلّ أول فكرة برأس السنة لصالح الأطفال؛ بينما كانت بجيلها الأخيرة. يبكي الأطفال الآن إن لم تكن أعياد ميلادهم مآدب؛ أما أيامنا فكنا نعرفها بصعوبة. كانت تفتنها وتشحذ عزمها قَصص العَوَز التي يحكيها الآباء، لكنها تجعل رومن يغطّي فمه لإخفاء التثاؤب. الفجوة الآن عادية طبعاً، لكن لم تكن أبدية. فالطفل الذي ألقى دلو النفاية على بيل كوسيه لم يكن وحدَه. ابتهج كثيرون.

قاطع الغناءَ الملتهب بعد الظهيرة ضحكٌ وتصفيق. كان كوسيه يصلح صنارة صيد خلف الفندق. يطرح ويعيد اللفّ فيطرح ثانية، بعدها يدور نحو المقدمة ليرى طبيعة الخلل؛ ينصت ربما للغناء، أو يقرأ طوالعه المنبّهة إليه، مرافعة أو طلب. اقترب وصنارة الصيد بيده، تبدو كاعتذار يرفع مرتبة الإقناع إلى جدل ثم دراما يتم تجهيزها بحذر. قفز طفل إلى دلو فقذف ما فيه على بيل كوسيه. ترسبَت البهجة حين ظلّ كوسيه

fb/mashro3pdf

مكانه، تبقّع حذاءه وبنطلونه نفاية حيوان. لم يراوح، حتى ليفحص الوَسخ. بدلاً من ذلك نظر لكلٍّ منهم كمن يصوّرهم. أمال صنارة صيده على سور الشرفة وسار نحوهم. ببطء.

أهلاً، بيله. مساء الخير، آنسة بيرنز. سرتني رؤيتك، جورج؛ ألم تنطلق الشاحنة بعد؟"

كلّم الصغار والأكبر "كيف حالك، بيتي؟ ألا تزال ابنتك بالكليّة؟ تبدين بخير، فرانسي. هلا، شفلي..."

وافقت تحياته ردودٌ دمثة كانت تقاوم الرائحة العنيفة الصادرة عن الوسخ المكتّل بثنيَتَي بنطلونه نازلاً يعبّد دربه. رفع يده أخيراً بوداعٍ عام ليتركهم كمن تقلّد منصباً أو تعمّد بكنيسة. تلبّث الحشد، لكن بفوضى. هكذا كانت فجوة الأجيال في 1968، لكن كوسيه استطاع عبورها، أزال سُمّيتها؛ قال "لست الغريب ولا الخصم". الجسر كلام وقتئذٍ، محترم بل جدّي. وإلا يملأ الفجوة براز خنزير. لم يفعل ما طلبوه ــ تخصيص أرض ــ لكن حاول. لم تعرف فيدا إن كان من منعه ماي أم هيد، لكن شكرت من فعل. فالإسكان أهمّ من دروس الفخّار. كيف يصبحون؟ مشرّدين طاويين[1]، محتَقرين بتعليم رديء يربّون أطفالهم بمبانٍ مستهجنة وشاحنات ساقطة القعر. فكّرَت، لم يكن الخيار إما أن تستسلم للقوة أو الطرد. بل تؤدّي واجبك نحو عائلتك، وضمن لحظتها كلام جادّ مع حفيد. ظنت فيدا أن رومن نزّاع بطبعه لرعاية الناس، لكن يبدو أن هذه النزعة ضلّت طريقها الآن.

fb/mashro3pdf

في المقعد الخلفيّ خمسة عشر طبقاً مغلّفاً بالألمنيوم مكوّمة فوق صحيفة، على كل منها اسم مثبّت. ضمن قائمة المُقعدين ثبّتت فيدا العناوين، حتى لا ينسى أن أليس برنت تشغل حجرة الآن؛ وأن السيد رويس انتقل مع ابنته التي تعمل ليلاً. أو أن الآنسة كولمان لا تزال بعكازين، تقيم مع أخيها الكفيف بشارع جفرنر. للمقعدين خيارات ثلاثة: سمك أو دجاج أو لحم مشوي، والدخن الصادر عن سيارته حوّلها من ماكينة لمطبخ يتم فيه التباسُط بالكلام.

فتح رومن الراديو بعد انسلاله للداخل، عبث بالأزرار حتى وجد ما يحبّ: موسيقى كانت فيدا قد حثّته من قبل على لبس سماعتين ليسمعها بالمنزل. نوع من الخفقان لكن وجه رومن المنصت أزعجها ــ لا الكلمات. كان سندلر يهوى الموسيقى لكنه اتّفق مع زوجته، عكس اللغة المعروفة لجيلهم ("ماما، أريد طعاماً بحريّاً. الدجاج والأرز طيب لكن يا ماما أريد طعاماً بحريّاً مزيّناً")، أن لغة الموسيقى التي تعجب رومن لها رقة انسياب الزيت. قالت فيدا "تلوّث وتشوّه العقل الطبيعي". مدّ سندلر يده فأدار المقبض ناحية "الغلق". توقّع نحيب رومن، لكنه لم يُصدر نأمة. ركبوا صامتين حتى وصل أول منزل بالقائمة. أبعد سندلر أيدي الأطفال الثلاثة عن بنطلونه ليقرع الباب الأمامي. أصرّت أليس برنت على دعوته للدخول، ثم تخلّت عن الفكرة حين أخبرها أنها الأولى بينما لديه أربع عشرة توصيلة باقية. تركته

fb/mashro3pdf

يمضي، مشبعة بالفخر. سمع رومن يخبط ظهر الراديو ليغلقه، لكن لم يمكن الوقت سندلر أن يراه. فكّر، إنه على الأقل يحترم ما أفضّل. انحرف عن حيّز الطريق، وحاول التفكير في بعض الكلام. شيء يتشاركون فيه قبل الاستفهام أو بدء المحاضرة. لم ينجب أولاداً من فيدا. دولي طفلة مطيعة طبعها رائق، وجّهت كلّ تمرّد شعرت به في البداية نحو زواجها المبكر، ثم إلى القوات المسلحة. لم يكن الأمر صعباً. لم يتجشّم والد سندلر وجدّه متاعب بإبلاغه ما عليه أن يفعل. أوامر قصيرة لاذعة: "لا تنقل جِمَل كسول"، وهو يجرجر كثيراً بالتوالي بين عربات ليوفّر زلاّته المتكررة. وحين ادّعى فَتحاً سريعاً "إن لم تحترم نفسها فلن تحترمك"، أو "لا تعلّق بنطلونك حيث لا تعلّق قبّعتك". لم يعد أحد يعظ أو يتكلّم. لا يفيد ذلك رومن. وحاصل جهود سندلر من هذه الرسائل كلها مجرد عبوس. لا يريد أطفال التسعينات سماع "أمثال" ولن تروّضهم عِبَر مغبّرة صعبة القراءة، ناهيك عن الفهم. فهم يتلقّون نصائح أفضل من موسيقاهم الدقّاقة. مباشرة بدون نقاش. سادة بدون سكّر. مباشرة كرصاصة.

"حامل؟"

أجفل رومن لكن لم يغضب ولا تملّص. "لا! لمَ تسأليني هكذا؟"

فكّر سندلر، أمر جيد. مباشر كأبيه لكن ناقص الوعيد. "تقضي معها وقتاً فظيعاً. فماذا تفعل؟"

"فراغ".

fb/mashro3pdf

"أي فراغ؟"

قال رومن "أتسكّع بالركوب، كما تعرف. رحتُ للفندق القديم السبت الماضي. لأنظر حولي فقط". على أرضية، حشيّة كنب، أيّ شيء يُجدي طالما أنت بمكان غريب. تتبلّل راحتاه من الإثارة فهي تصرّ على أن يقود هو. ليس لأنه غير خبير بل لأنها تهوى الاحتكاك به وصرف انتباهه بينما يجاهد للتحكّم بعجلة القيادة، خشية الارتطام بشجرة أو التدحرج بمصرف وقت أن تلعب أصابع كل منهما في الآخر.

سأل سندلر "دخلت هناك؟"

"نعم. كان مفتوحا". أبواب حديقة، نوافذ مغلقة وأغضب رومن الحديدُ فأطلق قبضته بلوح الزجاج، متوافقاً مع عزم يد جينيور لفتح بنطلونه الجينز. ظنّا المكان مرعباً: شبك عناكب وزوايا نفايات. لكنهما وجدا المطبخ مضاء بنور الظهيرة، مرحباً بسطح مائدة أو بين أرجلها. الغرف الأخرى معتمة لكن ليست أقلّ وعداً. تحسّبت جينيور من أيّ شيء وهما يستكشفان كلّ واحدة، بطول الطريق من الردهة حتى الطابق العلوي.

قال سندلر "لا أظنّ دخله أحد منذ سنين. مجرد فأر".

"نوعاً". لا فئران. بل طيور. تُحلّق بصوت مكتوم بين عوارض السقف المائل. بالمكان كلّه رائحة نبيذ.

"أظنّها لم تدخل كما دخلتَ؟"

"لا. أقصد. كنا ننظر فقط، نمزح حولنا، كما تعرف".

fb/mashro3pdf

"من تظن نفسك تتكلّم معه؟"

"لا، كــ، أقصد ــ"

"رومن، نحن رجال أم لا؟"

نظر رومن أعلاه. كانت لوحة "كنفاه" السود بــأطر بيضــاء باردة.

"إذن. كفَ لعبك عليَ. الآن".

"طيب. آه. تهوى، تهوى أن..." حكّ رومن ركبتيه.

"وأنت لا؟"

"آو، تعرف كيف تجري الأمور".

"ماذا حدث؟"

"لا شيء. أقصد، نعم. دُرنا، كمن يستكشف المكــان. ليس بالأمر الخطير". عدا العليّة. تطلّب الصعود هناك رفع نفسه على كرسيّ لجذب سلسلة تُنزل السلالم المطويــة فيتسلّقها ليصل. أخبرها "نحتاج كبريتاً، أو بطارية". همست "لا، لا نحتاج. أحبه ظلاماً". رفيف أجنحة وشقشقة وهما يدخلان. تساءل، خفــافيش؟ لكن الأجنحة الطائرة أمامهما تدفَ عبر نور الصالة المُرشَح من العليّة، كانت أجنحة صفراء، ولم يكد ينطق "واو، كناري" حتــى شدّته إليها. صارت اللعبة استغماء، فمزّقا عريش شبكة عنكبوت. ضاعا ثم عثر كلٌ بالآخر في غرفة فاحمة السواد؛ تعثرا وتلاطم رأساهما، تعارضا وسقطا، كان تشبّث بقدم فرقبة ثم بالشــخص كله، اجترحا العتمة بالضحك الصاخب ثم أنين لذّة وألم. الطــير

يصرخ ذعراً. تطيح كراتين وتنفتح. صرير ألواح أرضية تنشطر تحتهما، تخدش عريهما وتشحذ لعبتهما، فتُضفي عليها جدّية عالية لم يتصورها.

"ليس بالأمر الخطير؟"

"آه، نوعاً، كما تعرف. مكان فظّ، كما أخمّن كلامك. تعرف ما أقصد؟" دفعها ـ لا، خبطها ـ بالحائط بعد أن كبسَت عورتَه ـ وتأوّهت ملتذّة بدلاً من صراخ عالٍ حين عضّ حُلمتها، بقسوة. فانقلب الأمر عندئذ. من أسود إلى أحمر. كأنه بالخارج، ينظر بريبةٍ، رائياً نفسه واضحا بالعتمة ـ جلده مُعرّق مكدوم، أسنانه وامضة وعيناه نصف مغلقتين.

"ماذا فعلت، يا رومن؟ كفّ لعبك عليّ".

"لم أفعل. هي".

"هذا كلّ ما تقوله، يا ولدي؟"

"لاعَبَتني بعنف، ذلك ما كان. أقصد تهوى التوجّع".

فرمل سندلر عند نقطة تقاطع. لحظة قبل أن يدرك أنه وقف عند ضوء أخضر. كان رومن ينظر من نافذة المسافرين، ينتظر استجابة، تعليقاً من رجل يوافق ثقته أو سرّه، رداً على السؤال الملتفّ باعترافه. قوقأة ضحك من جدّه تعني شيئاً. والتأنيب آخر. هناك أمر اختلف؟ تغيّر ضوء المرور.

"ماذا تظنّ الحكاية؟" قاد سندلر بطيئاً بالضوء الأحمر متظاهراً أنه يفتّش عن عنوان.

fb/mashro3pdf

"قدر. أحمق". لم تكن تهوى ذلك. بل تفضّله. لكنه تهجّم أيضاً. وقفت جنبه، باردة متجهّمة، ترقبه مصابا يقاسي ألماً فوق منسوب الصراخ حيث يهجع نوع جديد من السرح، روسن الذي لا يُطيق قفّازاً مربوطاً بعمود سرير، أظافر مصبوغة بلمعة بنفسجية، رائحة طمي وخضراوات بأجسام معنقلة ــ روسن ذاك تبخّر. ايقن أنه لن يُرى ثانية. عموما، ليس بشكل كامل. مجرد طبعة شاحبة، بعدها أحسَ بالضيق بدلاً من العار. قادها بعيداً عن الفندق، تذمّر ("ابردي، يا بنت. كفى. ستحطمينني") من رجلها حين خبطته بعنف، وكان طرف لسانها في رقبته وحُلمتاها تضغطان أذنه. ثم شيء آخر. خلعت جينيور لأول مرة حذاءها وجوربها. حين خلعا ثيابهما بظهر المطبخ، احتفظت بجوربها كالعادة. لكن نزعته بالعليّة، ربطت فردة جورب حول رقبته بإحكام. بمنتصف نزوله على سلّم العليّة، رفع بصره. كانت جينيور جالسة بالفجوة، تلبس الفردة الأخرى. لم يتأكّد ــ فضوء الصالة شحيح ــ لكن قدمها المُندسّة بالجورب بدت له مثل حافر.

"ضربة سديدة، هوه؟ آه، لا أومن كثيراً بالإرادة الحرة. فهي لا شيء إن لم يكن هناك ما تهيمن عليه". ركن سندلر أمام منزل باهت الزرقة. أمامه عشب مرقّع، يحنّ للمطر. "لكن يجب أن تفعل قليلاً كما يقول البعض، مَن تختار لتعلّق به واحد. فحين تعلّق بمَن يضايقك، تشعر بالتوتر. شعور أكثر من غريزي؛ معلوم، معلوم قد تعوّل عليه. لا تنتبه دائماً لما يقوله الآخرون،

fb/mashro3pdf

لكن تنبّه لذلك. ولا يقلقك إن كان التقهقر يعني أنك خائر. فقد ينقذ حياتك. لست عاجزاً، يا رومن. لا تزرع بنفسك هذا. فالتخلّي يتطلّب من المرء أحياناً شجاعة أكبر من الاستمرار. بعض الأصدقاء تعرفهم أفضل مما لو جلبتهم للبيت. علّة ذلك جيدة، فهل تفهمني؟"

"نعم، سيدي. أسمعك".

"المرأة شخص مهم وقد تفوز بالتاج الثلاثي: طعام طيب وجنس طيب وكلام طيب. يستقرّ معظم الرجال مع واحدة، ويسعدون كالرخويات إن نالوا اثنتين. لكن اسمع، تعلّم شيئاً. الرجل الطيب شيء طيب، لكن لا أفضل بالعالم من امرأة طيبةٍ فعلاً. قد تكون أمك، زوجتك، رفيقتك، أختك، أو مَن تعمل قربه. لا تهتمّ. إن وجدت طيبة، فامكث. وإن وجدت مرعبة، فتراجع".

قال رومن "اخترتك أنت".

كانت أطباق الطعام باردة لكن لا تزال سائغة ومزاج سندلر جذل باستكمال توزيعِ الطعام. رومن شغوف بالمساعدة، كان يقفز أولاً للخروج عند كلِ محطة، يرفع الصواني مثل نادل وهو يخبّ إلى الأبواب. فيدا مسرورة. يخبرها، لا تقلقي. ارتاحي. يتطلّع في حفيده، لم يفتح الراديو، بل اضطجعَ للوراء فحسب على مسند الرأس، نعسان.

عينا رومن مغلقتان، ابتلع اللعاب المحتشد بفمه توقّعاً لرُضاب جينيور. مجرد كلامه معها يقلب حاله. لا يهمّ ما ضايقه، فقد

fb/mashro3pdf

صرعَته. من لحظة البداية، كانت البادية. الآن مع الرقّة ممزوجة بالخشونة، تتفجّر لغة الرغبة المبذولة بالفواحش، وحده المسؤول عنها. يستطيع سحقها لو أراد وكانت ستسقط. مرحة. مثل حيوان مدلّل بهيّ الجمال. سواء أطعمتهُ أو عنّفته ـ فسيقع على حجركَ على أي حال.

كان لها الراديو والمسجّلة. وممسحة الإسفنج بمقبضها القصير لأجل هيد. فرشاة شعرها الخشنة أنعم مما لدى هيد. نشرت جينيور المشتريات على مائدة حجرة الطعام. لا تقدّر هيد أمر الفرشاة، لكن تهوى مواءمة الممسحة الصغيرة للصحة الشخصية. كانت بمقبض معصم حتى لا تنسلّ من الأيدي التي لا تعمل صحيحاً. فكرت جينيور أن أفضل شيء إقناعها بالخروج من البانيو إلى ما تحت الدُشّ. لها مقعد صغير هناك. أأمن. أسهل. ستُقنعها بإحضار من يُركّب دُشاً هنا ـ وآخر بالطابق الثاني أيضاً. كلّ هذا المال ولا تجد ما تُنفقه. تحبس نفسها بالداخل ليلاً، ولا تذهب لمكان نهاراً. ترغب الآن لو يقود بها أحد إلى الفندق، سراً. لا تُبدي هيد أو كرستين اهتماماً بباقي المنزل ـ ما حاجتهما إليه. حجرة طعام كبيرة، غير مستخدَمة، ينبغي ترتيبها من جديد. التخلّص من مروحة السقف والمائدة القبيحة. وضع بعض الكتب والمقاعد وتليفزيون. ابتسمت جينيور حين أدركت أنها تودّ تحويل المساحة لتشبه إصلاحية ريك روم. آه، ولمَ لا؟ غرفة المعيشة، تحتاج أيضاً للتغيير. لها مسحة العرض الثاني،

fb/mashro3pdf

كمنزل أثناء عرض تليفزيوني قديم مع أطفال أثرياء صاخبين وآباء ثرثارين. سارت بالصالة وجلست على كنبة غرفة المعيشة. كنبة فيروزية شبه مفكّكة فوق سجادة بيضاء. لمبتان كمثريتان وامضتان بطرفي المائدة، كانتا مشدوختين. حاملا ستائر مقلّمة مرتخية عن قضبانها؛ آخران منزوعان. فكّرت، إنها آثار معركة. قبل طعنهما في السنّ أو تعبهما من الشجار، خلدتا إلى صمت غير قابل للانهيار.

بجلوسها هناك، أحسّت جينيور بصدمة الوجود، الحياة بمنزل، منزل حقيقيّ، كان الأول بالنسبة لها. مكان بدواعٍ مختلفة لكلّ غرفة وباشياء مختلفة فيها. تساءلت عما يهواه رجُلها الطيب. مَخمل؟ سلة مجدولة؟ هل لقط هذه الأشياء؟ هل حتى تعنيه؟ أنت لم تعجبكِ هنا؟ من شدخ اللمبات؟ من أعاد لصقها ـ كرستين؟ هل هيد التي نزعت الستائر؟ تتكلّم عنكَ طول الوقت. كيف كانت تعبدكَ، لكنها تتظاهر، صحيح؟ وكرستين تبغضكَ. عيناكَ باسمتان بصورتكَ لكن فمكَ يبدو شرهاً. أنت من تزوجت فتاة بالحادية عشرة. أنا هربت بالحادية عشرة. أعادوني ثانية، ثم حجزوني بإصلاحية. كانت عندي دمية ج. آ. جو لكن أخذوها. لو عرفتني وقتئذ، فلم يكن أحد قد عبث بي. لكنت راعيتني لأنك تفهمني وكلّ شيء فلن تسمح لأحد بالعبث بي. هل تزوجتَ هيد لتحميها؟ أتلك الطريقة الوحيدة؟ جرّب عجوز أن يجعلني أفعل أشياء معه. أجبرني. رغم ذلك، لم أفعل. لو كنتَ هناك لقتلته.

fb/mashro3pdf

قالوا إنني حاولت، لكني لم. أقصد، لم أحـــاول. أعـرف أنـك استدعيتني هنا. قرأت الإعلان بصحيفة وجدتُها بمحطة البـــاص. كانت جنبي مباشرة على المقعد. طلقة بعيدة المدى. أخذت عملتي عشرين فلساً من محفظة امرأة. تركَت كيس نقودها على الحوض حين راحت لطرف الحمام الآخر تجفف يديها. قلبتُ كيس نقودها واعتذرت. لم تفحصه. أعارتني تيري بعضاً من ملابسها. نوعاً. أقصد كانت ستعيرني لو طلبت. قابلتها بمحلّ رد موون. منحتني الإصلاحية مائة دولار عن عمل ثلاث سنوات. أنفقتها بالسينمات والمطاعم. تيري نادلة في رد موون. انسجمنا؛ ضحكنا كثـــيراً. دعتني لأقيم معها حين أخبرتها أنني أنام وقت النهار. بمقـــاصر الكنيسة، السينمات، في الرمل قرب رصيف البحر. أتنقل طـــول الوقت حتى لا تراني الشرطة فتظنّ أني سكرانة أو أفتـــش عـــن شيء آخر. لم أشرب ولا أدمنت مخدّرات. تجري الأمور بخـــير لكن يفوتك الكثير حين يرتطم رأسك. لا أريد شيئاً يفوتنــــي، أي شيء مطلقاً. فقد حُبست طيلة سنوات. أخمّن، إنه خطئي. كنـــت بالخامسة عشرة حين خرجت. كان عليّ أن أعرف. لكني عرفت أولاداً فقط، لا رجالاً. أيعجبك رفيقي؟ أليس وسيماً؟ لطيف جـــداً ومتين. من لديه ساقان مثله؟ منكباه بعرض ميل ولا يهتزان حين يسير. الله. أودّ الاحتفاظ به، طيب؟ تأخَر اليوم فهو مع جدّه. كان الجو ثلجاً بارداً بالجراج، لكن تناكحنا بطريقة أكل اللحم المشوي. كان يجب أن ترانا. لكنك رأيت، صحيح؟ أنت تذهب حيث تريـــد

fb/mashro3pdf

وأعرف أنك كنت تحب الفندق أكثر من هنا. قد أخبرك حين أذهب مع رفيقي هناك. أحسّ بك عبر المكان. تريد مني هيد فعل شيء هناك. لن تخبرني كنهه، لكن أعرف أنه يخصّ تعديل وضعية كرستين للأفضل. تواصل الحلم. أُلعبة تلعبانها؟ تخسر كلتاهما. عليّ فحسب التأكد من أنه ليس أنا. أو أنت. لا أعرف لمَ قلتُ هذا. آسفة. فلم أعتد على ذلك بعد. أنسى أحياناً أنك رجلي الطيب.

[1] الطاوية: مبدأ صوفي صيني، رمز يمثّل طاقة الحياة. (م)

fb/mashro3pdf

8

أب

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

كانت تحتاج حذاء للسفر تطفلاً اشترته بتوصية من آنا كريدج. طريق الفندق غدّار لعابر هستيري بليلة مقرورة في حذاء تنس دون جورب. استعدت آنا كريدج واقعية المزاج: حقيبة ظهر، ماء، بطارية، حساء، سمك مجفّف، مكسرات. تعلّمت منها كرستين الطبخ حين كانتا معاً زوجتي جنديين أمريكيين بقاعدة في ألمانيا. قرب العشرين كانتا مخلصتين، آنا ماهرة في الخضراوات الطازجة، أنواع البطاطس، الطعام البحري، لكن أمهر في الحلويات الشهيّة. كانت دروس الطبخ والبيرة تجعل أمسياتهما مرحة فرحّلت انهيار زواج كرستين لنوع من التحلّل يماثل المساكن التي تعيشان فيها. مقابل الصداقة، وافقت كرستين يوماً على السفر تطفلاً مع آنا. اشترت حذاء جيداً وحقيبة ظهر

fb/mashro3pdf

أوصت بها آنا وذات صباح شرعا مبكراً في الرحلة. قرب نقطة نصف الطريق، وقفت كرستين ترجوها إلغاء الرحلـــة، والتقـــاط سيارة للعودة إلى القاعدة. فقد التهبت قدماها وانقسمت رئتاهـــا. سجّل وجه آنا أقصى درجة لخيبة الأمل لكنها تفهمت. "أمريكيـــة ناعمة، بائسة، خائرة الطاقة، دون عزيمة". قفلا عـــائدتين فـــي صمت.

حين فتحت كرستين الباب وجدت إيرنى بين ذراعَي زوجـــة رئيس الأركان. ودّت لو ترفس ظهره العـــاري، لكـــن قدميـــها موجوعتان فعمدت إلى ست زجاجات سباتن قذفتها عنيفاً بتتـــابع سريع إلى رأسه.

أحسّت التزامها بأداء حركات هياج غيور، لصالح معنويـــات الزوجات الأخريات بالجيش المقاوم للعزل العنصري حديثاً، لكن ذهولها كان أشدّ من الغضب. احتارت مما ظنّه ايرني هولدر، فقد كان واحداً من الطبقة الأولى الغاضبـــة يعـــرض تفانيـــه ورداءً وهروباً لبلد آخر تعويضاً للمهذّبة البديعة. تركته اليـــوم التـــالي، أخذت معها حقيبة ظهرها ومهارات طبخها وحذاء السفر تطفـــلاً. من آيدلويد، اتّصلت بأمها. ارتاحت ماي لسماع صوتـــها لكـــن هزّتها عودتها إلى سيلك. لم يخفِ لغوهـــا المضطـــرب غرابـــة وضعية كرستين كما أحبطتها إشارات "زوجة عكـــرة" وبـــاص "الحرية" المحترق. حذّرتها بوضوح.

fb/mashro3pdf

مكثت كرستين، من بداية طقس مزعج الرطوبة بالنسبة لبلدة صغيرة، كما وصفته ماي. بعد ليلتين (بمحطة باص فرعية، لا في الشارع بالضبط)، انتقلت لمنزل فيليس ويتلي، بعد صرف نظرها عن جمعية الشابات المسيحيات. كانت البلدة التي ابتهجت بمغادرتها ترتعب الان من التهديدات الحمراء والقوائم السوداء. نالت وظيفة نادلة مطعم بمجرد نظرة، حتى اكتشفوا قدرتها على الطبخ. كان الجيران طيبين لكن استاءت من طرق تحايل الزبائن لنَيل طعام مجانيّ، حيث قضت سنوات تتجنَّب فيها ماي وتكذب عليها بينما تفتّش عن زوج. وجدت ثلاثة، لم تتوافق معهم، حتى قابلت فروت. كانت عندئذ منقوعة حدّ الملل في نميمة المطعم من قبل المالك وزوجته والصراف وطباخ الطلبات السريعة. استنفدها الحقد الأحمق، كما بالحوارات الدائرة بينها وأيّ متزوج كانت على وصال معه. لا يعنيها إن كان منفصلاً عن زوجته أم لا، ينام مع أمّ أولاده أم لا، يهبها هدية هيّنة برأس السنة أم لا. ولأنهم بدون أصدقاء عموماً، فلم يكن لهما ما يتحدثان عنه غير براهين عاطفية وتهديدات فراق. كان ذلك تخطيط حياة، رسوماً عابثة تملأ بها فوطة مائدة ورقية بينما تمكث عمداً بعيداً عن بيت وصفته ماي. خلال فترة فقدان الهدف جاء فروت، بحقيبةٍ قماش وقميص عملٍ مكويّ دون عيب.

"لا تُخف اللحم. أحب رؤية ما آكل". أمسكت كرستين عن الصلصة الحمراء، وتعجّبت من وضوحه ـ اكتشفت فيما بعد أنه

fb/mashro3pdf

عادته وعطيّته. حين أنصتت إليه، اتّضح كلّ شيء فجأة حتى قضَت تسع سنوات بشِركته. كان رقيق العظم انفعالياً، بيدين كبيرتين بديعتين وصوت فاتن. وضّح لها العالم. جدّها (خائن بورجوازي)؛ أمّها (معصوبة الرأس)؛ هيد (يد عريضة)؛ ايرني (خائن). مجرد "حطب" كما وصفه مالكوم اكس، ومن الكلمة نَقّط شيء كالحِمض. ثم خطّط واجباتها. كان يمتدح جِلدها المنير، عينيها الرمادين، وشَعرها المتوعّد بنعومة قاتلة، فأضحت كرستين زوجة مخلصة منطقية، تُسعدها خدمته. غيّرت ملابسها إلى "وطنية"، شحذت لغتها بشعارات نشطة، حملت مُدية للحماية، أخفت شَعرها المزيّف بدهان أنيق؛ علّقت صدفتين صفراوين بشحمَتي أذنيها، ولم تضع ساقاً فوق ساق، أبداً.

كانت مخاوفها المخيّبة أمل هذا الرجل ضارية متطلّبة، غير قابلة للرشوة، أو ربما أجبرته أن يعاملها كنفاية، مخاوف لم يدركها فقد كان فروت محباً للنفايات. كانت وجهة نظره التي يشاركها عن التربة والأرض والمحاصيل رومانسية. قال، لو كان لدينا مزرعة، لاتخذناها قاعدة لنا. وافقت كرستين، لكن الأحداث تسارعت والمال (مجموعاً، مكتسباً بالتملق، أو مغتصباً) أصبح يحتاج طوارئ أخرى.

عبر البلاد كلها هناك جيران نائمون يحتاجون تنبيهاً، شبان مستهترون يحتاجون تركيزاً. وبلي حذاء السفر تطفلاً من المسيرات؛ حقيبة ظهرها تحفزها للراحة بالاعتصامات. كانت

fb/mashro3pdf

كرستين تُرغي بالانتعاش والعزم، اكتسب زهوهـــا الشـــخصي شرعيّة عنصرية وأصبحت نزعتها للمـــهمّات شُجاعة. تذكُـــر الشجار الآن بصعوبة: وفرة الوشاة، مـــال مُفسـد، تصرّفـــات عشوائية مقابل خطط طويلة المدى، عمل سرّي مقابل لعب مـــع وسائل الإعلام. تشكّلت جماعة السبعة عشر ــ أحد عشر أســود وستة بيض ــ سراً بعد محاكمة تل. كانت ذات نزعة استقلالية، فانضمت لجماعات أخرى حين حكموا على نشاطها بحزم كـلف. تستسيغ العمل؛ مزدهية بجدّيته ومتورّطة بالكامل مع فروت. لــم تكن معه على الدرب، بل داخله. لا زوجة ممزّقة، عشيقة زائدة، ابنة مؤذية غير مرغوبة، حفيدة جاهلة، صديقة في المتناول. بـل ذات قيمة. لا سبب هناك يجعلها تنقطع. والطوارئ المزروعة في 1955 أينعت في 1965، وتمزّقت بالغضب في 1968. بحلـول 1970، تقوّضت بالجنازات، بدت مَحاقاً لأجلها. ســاعدت نينـا سيمون في تأخير بداية النهاية. عبّر الصوت عن منزلة استسـلام أنثويّ، ورومانسية انتهاك بليد. حين وصلـت النهايـة، كــانت مجهولة هكذا. ومضة حمّام حقير، صغير. نهضت بعد إجـهاض روتينيّ، كان الأخير من سبعة، شدّت الرافعة، أدارتــها لـترى دوامة الماء. هناك لطخة أحمر متخثّر، ظنّتها صورة وجه. طفت على السطح في أقلّ من ثانية صورة مستحيلة. تحمّمت كرسـتين ثم عادت للفراش. لم تكن دائماً عاطفية فيمـا يخـصّ عمليـات الإجهاض، تعتبرها أقلّ ارتباطاً من السلسلة القابضة، فلم ترغـب

fb/mashro3pdf

أن تصبح أماً ــ أبداً. كما أن أحداً لم يوقفها أو اقترح أن تفعل شيئاً مختلفاً: فالثورات تحتاج الرجال ــ لا الآباء. وهكذا لم يزعجها المتطفل السابع بأدنى درجة. رغم إدراكها أنها كانت تناشد العين الموءودة التي اختفت بسحابة التوت الأحمر الأرجوانيّ، وتتساءل أحياناً عمن قد يتطلّع فيها بمثل هذا الاهتمام الهادئ. باللحظات الأشدّ غرابة ــ معزولة بحجرة انتظار مستشفى مع ولد مُصاب يبكي أمه، توزع مياهاً معبّأة وزبيباً على تلاميذ منهكين ــ تبدو لها هناك العين الملتبسة، بالبيت وسط فوضى الشرطة والدموع. لو انتبهت أكثر لانهارت، ولمنعت النهاية الحقيقية، لكن جدّها تُوفّي. شجّعها فروت على حضور الجنازة (العائلة هي العائلة، قال مبتسماً، وإن كانوا مُغفّلين سياسيين). تردّدت كرستين. فقد كان عليها أن تصحب هيد المجرمة؛ وتواصل الجدل مع أمها بالسياسة كما تفعلان بمكالماتهما الهاتفية المتقطّعة، باتهامات صارخة: لماذا لا تهدؤون كلكم الآن؟ ألم تكفكم ثلاثمائة عام من الهدوء؟ سنخسر كل شيء! كل ما استُعبدنا لأجله! في داهية.

مات. ذلك القذر الذي قدّمها إلى بغيضة ولامها من أجلها.

مات. ذلك القويّ الذي هجر عشيرته وأحال دورها إلى رفيقة لعبها.

مات. آه، أفضل. ستذهب لترى ما خلّفه من حطام.

fb/mashro3pdf

لا شيء تراقبه الآن. راح كلّ شيء من زمن، العين غير المميزة مع حقيبة الظهر وحذاء السفر تطفلاً الذي تحتاجه باستماتة الآن لوقف ثعبان ما وذلك الصغير عن أن يدمّر اتّزان حياتها. لا تتواجد هيد وجينيور بأي مكان في المنزل. الجراج فارغ، الطريق خال. لا شيء يرغم هيد أن تغادر غرفتها غير سلوك شيطانيّ ـ وليلاً؟ هناك مكان واحد قد تهتم به ـ الفندق ـ فما عاد لديها زمان تضيّعه هناك حتى لو ركضت بطول الطريق.

قد لا يخمّن أحد أن فروت أصغر منها ثمانية أعوام، فكان يسلّي نفسه طبعاً مع نسوة أخريات. في ذلك جمال علاقتهما، أمانتها. من بين الناس، كانت ملكة الأزواج الغاوين، أمر مفهوم، حيث كبرت في فندق عُرضةً للمتسللين بأطراف أقدامهم العارية، السذّج وراء ظلّ المعدّات، كانت لمعة عين ضيفة مُصوبة على أخرى من الأمور اليومية. ألم تسمع جدّها يُخبر زوجته أمام الجميع "لا تهزّي مؤخرتك الصغيرة أمامي. لا أريد ذلك ولا أحتاجه قطعاً"، ثم يترك هذه الزوجة ترقص وحدها بحفل عيد الميلاد بينما يتسابق للقاء أية واحدة يحتاجها؟ مع ذلك حام ايرني هولدر وراحت زجاجة سباتن إلى رأسه، فقصدها الرجال لمشاركتهم. اعتادت الأمر وكانت تفعله بمجد، صحيح؟ لم تسبب لها مشكلةً أسرَةُ النسوة الأخريات. عموماً، مع العمل الواجب تنفيذه، لا وقت لأحد يرصد فيه شاردين؟ كانت المرأة المقصودة،

fb/mashro3pdf

من يعرفها الجميع هكذا. تُنطَق أسماؤهم بلقاء مخطّط بدا كمقصف مجانيّ: فروت مع كرستين. كرستين مع فروت.

لم ينقوّض المِقصَف المجاني حتى اغتصب أحدهم طالبة متطوّعة. فعلها رفيق. فخجلت الفتاة أن تثور، وترجّت كرستين ألا تخبر والدها، عميد الكلية.

"من فضلك، أرجوك، لا تُبلغيه".

"وأمّك؟"

"أوه لا! فستُخبره!"

انتفضت كرستين. مثل كلب دبرمان أثناء تدريب، انخرطت الفتاة بمزاج الحماية. لا يجب أن يعرف، بابا الطيب، الرئيس. تجاهلتها كرستين وأخبرت الجميع، وأرضتها ردّة فعل فروت. راح الجميع يعتنون بالفتاة، يسبّون ويستشيطون غضباً مما فعله الرفيق؛ وعدوا بالحديث معه، عقابه، طرده. لكن لم يفعلوا. عند ظهوره تالياً، قالوا فقط "أهلاً، يا رجل، كيف حالك؟" حين انتحت كرستين مع فروت أبلغها ما قاله الرفيق: لم يكن خطأه، فقد دارت حواليه الفتاة عارية الثديين بنحو صبيانيّ حتى ربّت على ظهرها بلطف ليصرفها عن انتباهه لكنها قهقهت بدلاً من تحطيم فكّه وسألته إن كان يريد بيرة. هزّ فروت رأسه من غباء البشر المُحزن والسياسات الرجعيّة. وكان الحزن كلّ ما فعله. غضّ النظر عن حثّها له "كلّمه" ــ لم تذكر "عاقبه" أو "اطرده" ــ فلم تتوصّل لشيء. آه، ظنّ فروت أن الرفيق مزعج، لكن لم يخبره

fb/mashro3pdf

شيئاً. آه، ظنّ أن الرفيق يعرّض قضيتهما المبدئية للخطر، لكن لم يواجهه. لم يحمل اغتصاب الفتاة ثقلاً ضد اغتصاب أشدّ رسوخاً لصداقة الذكور. كان فروت يستطيع توبيخه، طرده، ضربه كخائن أو جبان، كأيّ فتىً متهور على أتفه الأضرار. لكن ليس هذا ــ فاغتصاب فتاة بالسابعة عشرة لا يُعتبر تهوراً قد يضيف هامشاً لقائمة سلوكه المشين، فلم تكن المُغتصبة تعنيه. حلّت كرستين المعادلة العنصرية: المغتصبة سوداء والغاصب أبيض؛ كلاهما أسود؛ كلاهما أبيض. فأيّ اتحاد كان يؤثر على قرار فروت؟ كان سيُجدي لو لم ترتبط الآهات العاطفية للفتيات الأخريات على المغتصَبة بأسئلة مزعجة: ماذا فعلت؟ لماذا لم؟

أغلقت كرستين الموضوع أخيراً، ودام الفعل المفيد كالعصيان المدنيّ والطاعة الشخصيّة، وقوطع بين الحين والآخر بصورة وجه استدار، عارضاً عينه كليلةَ التمييز. حين عادت من جنازة جدّها، فتحت حقيبة ظهرها وهزهزت كيساً ورقياً بخواتم الخطبة. خواتم سوليتير (1) من كلّ مقاس. كانت تكفي لتوقيع اثنتي عشرة امرأة بدفتر ضيافة فندق ميك بيليف. والسؤال ظاهرياً عن راحة الجناح؟ بطريق تريمين 1973، كان مستوى راحة الفندق العالي جذاباً للغاية. خاصة لأن الجميع، مقاتلين ومعتدلين، يريدون التواجد والسهر هناك بالوقت نفسه، حيث كان فعل العصيان المفيد مندمجاً بإذعان مقنّع. تغيرت القضايا، ذاعت، انتقلت من الشوارع والمداخل لمكاتب ومؤتمرات بفنادق أنيقة. لا حاجة

fb/mashro3pdf

لأحد بامرأةٍ شوارع عاملةٍ جلّيسةِ أطفال طبّاخةٍ ناسخةِ رسائل تحمل بندقاً وزبيباً كن أكبر عموماً بالقياس مع الطالبات الجدد عاليات المؤخرة باستراتيجيات معقّدة؛ امرأة غير متعلمة كفاية مقابل حشد من كليّة، ليست ضحلة كفاية بفعل التليفزيون. انسدّت العين غير المبالية، حين فحصتها بعناية المحكمةُ العليا. لم تعد لها علاقة بالموضوع. أحسّ فروت بيأسها فافترقا صديقين.

ظننت أنه صديقها الحقيقيّ الأخير. لو عرف ما استقرّت عليه، لحزن من جديد: فقد ظلّت نسخة طبق الأصل من جدّها البورجوازي. بحقّ، فبعد أن رماها د. ريو هناك لم يعد لها مكان غير البيت. بيتها. تشرب حتى الثمالة وتظلّ أفعى خبيثة مجنونة من نزع ملكيتها.

كرستين بسيارة للمرة الأخيرة التي سافرت فيها على هذا الطريق. تكوّم جونلتها العريضة ـ شيفون شفّاف بلون أزرق مصحون ـ لأعلى، فهي تحتاج مساحة. ترتدي لباس نجمة، دون حمّالات بماس زائف منثور أعلاه. أمّها بالمقعد الخلفيّ؛ جدّها يقود بونتياك 1939، فكانت تثير أعصابه لأنها طراز 1947 ومن سيارات ما بعد الحرب التي لا تتوفّر لمعظم المدنيين. كان يقول هذا، مفسراً مزاجه الغريب وقت الاحتفال الطائش: عيد ميلاد كرستين السادس عشر المؤجل مع احتفال التخرّج. تعتقد أن سبب توتره الحقيقيّ هو نفسه الذي جعلها وأمها متهللتين. بالعشاء المخصص للعائلة قبل حفل الفندق، نجحتا في التخلص

fb/mashro3pdf

من هيد وتلذّذنا بمراقبتها تُعاقب من قبل زوجها. أخيراً، ثلاثتهم فقط. لا زوجة صغيرة جاهلة تتشبّث بعرض منزليّ هائل.

اقتيدت كرستين من السيارة بذراع جدّها، دخول فاتن؛ أوه يا للفتاة الجميلة بفستان بهيّ جميل، عاقبة ودليل على رقيّ عنصريّ وأحلام سليمة. تعزف الفرقة "عيد ميلاد سعيد" عبر تهليل الجمع، ثم وصلات غناء حتى "أضواء الميناء". تشعّ ماي ابتساماً. تتوهّج كرستين. الفندق معبأ بقدماء محاربين في زيّهم وأزواج متمتعين بعطلة مع أصحاب كوسيه. انتقل العازفون إلى "يا للقمر العالي"، فالمستقبل ليس مشرقاً فقط بل مرئياً مع رواتب، واقعياً بطلبات توظيف جي آ بيل، مسموعاً بنهج المطربين المرتجلين. انظروا للأبواب العريضة خلف صالة الرقص بالهواء الطلق لتروا طريقة سريان النجوم. اسمعوا الأمواج تمرح؛ استنشقوا عطر البحر كم هو لذيذ، وهناك ذكور.

ثم هياج ودمدمة استهجان. رؤوس تستدير. هيد ترقص بمنتصف الغرفة مع رجل يلبس بذلة ردنجوت. يرفعها أعلى رأسه ثم يهبط بها ما بين ساقيه، يطرحها جانباً منفرجة الساقين، وينهض في الآن نفسه على ساقيه بزاوية ليقابل مؤخرتها المهتزّة نحو حوضه المتماسك بإحكام. تطوّحت الفرقة. وتباعد الحشد. وضع بيل كوسيه فوطة مائدته على المنضدة ووقف. اصطفّ الضيوف بالجانبين لدى اقترابه. وقف صاحب الردنجوت بمنتصف خطوته فتطوّحت سلسلة جيبه منخفضة. بدا فستان هيد

fb/mashro3pdf

مثل قميص نوم أحمر؛ تهدّل طوق كتفها إلى الكوع. لم ينظر بيل كوسيه للرجل، بل صرخ أو جذب هيد مبتعداً. لم يلمسها حقـــاً. انتبه العازفون لكلّ فارق طفيف بدراما الحشد، صامتين، فســـمع الجميع طرد بيل كوسيه ومداواته الأمر.

طفا البحر هادراً في أذنيّ كرستين. لم تكن قريبة كفاية مـــن الشطّ لتسمعه، فربما سمعت ضغط دم مرتفعاً. تاليه هلّ الـــدوار وماج النور أمام عينيها. يجب أن ترتاح قليلاً، لكن هيد لا ترتاح. هيد تفعل شيئاً سرياً مع عنكبوت قويّ البنية يُعينها.

كان لزاماً أن تعرف. وعرفت. لا ماض لـــدى جينيـــور، لا تاريخ عدا تاريخها. الأشياء التي لم تعرفها ولا سمعت بها تصنع كوناً آخر. لحظة أن جلست الفتاة إلى مـــائدة المطبـــخ حزّمـــت أكاذيبها بــ "نعم، مدام"، وكانت رائحة الشارع ترشح بالـــهتاف، عرفت: ستفعل هذه الفتاة أيّ شيء. رغم أنه كان المطلوب بدقّة. ستعجبك أيّ فتاة في الشارع بدون مسدس. عينان جريئتان، بسمة لعوب. كان عزم كرستين أن تفعل أيّ مهمة أو تعالج أيّ معضلة نعمةً لها. والأكثر، أن جينيور أنصتـــت. للشـــكاوى، النكـــات، المبررات، النصائح، الذكريـــات. لا تتّـــهم ولا تحكـــم ــ تـــهتمّ ببساطة. كان الكلام بهذا المنزل الصامت مع أيّ امـــرئ كأنـــه موسيقى. فمن يعنيه أن تنسلّ مع حفيد فيدا بين وقت وآخر؟ كـــان لصالحه. ويسعدها. احتمال زائد أن تبقى مع فتاة مثيرة مرحة. ما

fb/mashro3pdf

نسيته كرستين هو عقيدة الهرب: تذهب هنا أو هنـــاك، تنطلــق حرّة. صداقة قوية، نعم. ولاء، لا.

الفندق أشد ظلاماً من الليل. لا أنوار ، لكن الســيارة مرتكنــة بالمدخل. أيضاً، لا أصوات بشر . بهمس البحر تحت الدم الــهادر بأذنيها. ربما كان إغراء. قد تفتح الباب ويقتلونها، كما لم تفعــل آنا كريدج، التي لا تملك حساً بالفرار من منزل بحذاء تنس ودون مُدية سويس آرمي. تتعثّر بالظلام، ولا تشعر إلا نادراً بــالوحدة. كذلك الوقت الذي تعلمت فيه لأول مرة كم تكون الوحدة فجائيـــة عميقة. كانت بالخامسة حين توفّي والدها. وهبها يوم السبت كاب البيسبول، وحُمل الاثنين التالي نازلاً السلالم بنقّالة معدنية. عينــاه نصف مغلقتين ولم يردّ حين نادته. ظلّ الناس آتين رائحين لتهدئة الوالد والأرملة؛ هامسين بقسوة خسارة ابن أو زوج أو صديق. لا شيء عن خسارة أب. ربّتوا عليها ببساطة فوق الرأس وابتسموا. هذه أول مرة لجأت فيها تحت سرير إل، ولو كان لها الأفضليـــة الآن لظلّت هناك بدلاً من تسنّم مكان هزهزها بـــالخوف و، و ــ ماذا أيضاً؟ أوه، نعم. الحزن.

حدّقت كرستين بالعتمة الجاثية على سلالم الشرفة حيث وليــد نور الشمس متخشّب من الخوف وحزن الهجران. رغـــم ذلــك كانت يدها المرفوعة بالوداع رخوة. قوس شعرها فقط أشدّ وهنــاً من تلك اليد. وراء نظرتها وليد آخر، يحدّق من نـــافذة الســيارة بتكاسل، وخرخرة مثل قطّ. السائق جدّ واحدة وزوج الأخـــرى.

fb/mashro3pdf

وجه المسافر خليط من عيون متوحشة وابتسام وحيرة. تلوّح يد رخوة وتضغط أصابع الأخرى على نافذة السيارة. هل تتكسر؟ أتحطّم أصابعها الزجاج، تجرح الجلد وتسفح الدم هابطاً جانب الباب؟ قد يحدث، فهي تضغط بشدة. عيناها كبيرتان، لكن باسمتان. أكانت تريد الذهاب؟ تخشى الذهاب؟ لم تفهم إحداهما. لمَ لا تستطيع الذهاب؟ لماذا يأخذ واحدة لشهر العسل ويترك الأخرى؟ سيعودان، أليس كذلك؟ لكن متى؟ تبدو مستوحشة جداً بهذه السيارة الكبيرة، لكن تبتسم ــ أو تحاول. قد يكون هناك دم. دم بمكان ما، فوليد نور الشمس على الشرفة يقبض أنفاسها بشدة ضدّ أيّ احتمال. فقط يدها المودّعة طرية، رخوة. مثل قوس شعرها.

تمتدّ وخزة ألم لكتف كرستين وهي تصعد السلالم. تحاول إمساك مقبض الباب بالعتمة. لا تجده. فالباب مفتوح.

***

"متأكد أنك تريد فعل هذا؟ يمكن أن نعود". تدع جينيور المحرّك دائراً. يترجرج حلَق أنفها الأنيق بآخر الشمس. "أو أخبرني عما تبحث وظلّ هنا". كانت عصبية. لم يظهر رجُلها الطيب من زمن. تأمل أن يكون بالفندق هنا. كلّ شيء بخير،

fb/mashro3pdf

ويكون أفضل لو كان هنا وقال ذلك. "يمكننا فعل هذا يوماً آخر. كما تريد. الأمر أمرك، مع ذلك".

لا تتنصت هيد. لا تنظر من نافذة سيارة على فندق هاو بالشفق. بالثامنة والعشرين، تقف عند نافذة طابقه الثاني محاذياً الخضرة، خلفه رمال وبحر. تحتها، نساء وأطفال كفراشات مجنّحة داخل وخارج الخيام. يلبس الرجال قمصاناً بيضاء، بذلاً سوداء. الكاهن بكرسيّه الهزّاز؛ يعتمر قبّعته القشّ. كانت تتردد على الكنائس أكثر وأكثر، مع جماعات. الضيوف الأسبق أكبر الآن، لا يعودون غالباً لمنتجع كوسيه. تشغل بال أطفالهم مسبقاً المقاطعة، التشريعات، حقّ التصويت. تجلس أمّ بمعزل، فوق ثديها المرضع منديل أبيض. يد تحضن الوليد بينما تهوّي الأخرى ببطء حالَ حوّمت ذبابة قربه. تفكر هيد، ربما كان لها أطفال أيضاً. ربما كانت تتجبهم لو علمت في 1942 أنها ستنسلّ بين ذراعي رجل آخر في 1958: فلم تكن عاقراً أبداً. رجل ـ جاء ليأخذ جثمان أخيه معه بقطار العودة. تذكر هيد ألم خُسران أخوين، تخبره أن غرفته، طالما يحبها، ستكون خالية. وهل هناك ما تفعله لأجله جلس على الفراش وبكى. لمست كتفه الهابط الصاعد بحزن سلس. لم تر رجلاً رزيناً يبكي. ركعت هيد، حدّقت في يده التي تغطّي عينيه، أخذتها إلى ركبته. تشبثت أصابعه بأصابعها وظلا على هذه الوضعية حتى هدأ.

قال "آسف. آسف"، وتوصّل إلى منديله.

fb/mashro3pdf

"لا. لا تأسف من البكاء على أحد". كـانت تصـرخ تقريبـاً وينظر إليها كمن قالت أجمل شيء يسمعه.

قالت "تحتاج إلى طعام". "سأحضر لك صينية. تريـد شـيئاً محدداً؟"

هزّ رأسه "أي شيء".

جرت تهبط السلالم، وعت الفرق فجأة بين الحاجة والالـتزام. جهّزت بالمطبخ ساندويتش خنزير محمّر وغطّت اللحم بصلصـة حارة. فكّرت في بطنه الفاتن المندفع خارج قميصه، وأضـافت للصينية زجاجة بيرة مع ماء مثلج. نظرت إل شـزراً للطعـام، وردّت هيد بسؤال غير مطلوب "إنه لأخ المتوفّى".

"هل أضفت الكثير؟" سألته حين قضم الساندويتش.

هزّ رأسه "مضبوط. كيف عرفت؟"

ضحكت هيد. "سيد سنكلير، لقد أخبرتني إن كنت تحتاج أم لا. قلت أيّ شيء".

"نوكس. من فضلك".

قالت "أنا هيد"، وفكّرت، يجب عليّ الخروج من هذه الغرفـة وإلا سأُقبّل بطنه.

مكث نوكس سنكلير ستة أيام، الوقت الذي يحتاجـه لـترتيب وتجهيز ثم شحن الجثة إلى إنديانا. كان كلّ يوم أكثر تألقاً عمـا قبله. عاونته هيد بمكالماتها الهاتفية، كذلك أبرقت مالاً، وسـلفرت

fb/mashro3pdf

إلى هاربر لشهادة الوفاة. قامت على خدمته برعاية مدير فندق جيد معه ضيف غريق.

كان هذا عذرها. والسبب غناء جيمي ويزرسبون "لا شأن لأحد بي إن فعلت". نالت أمنيتها فحضنت بطنه ودلّكتها ليلاً وقت أن كان زوجها يتسلّى مع زبونة، وفي الصباح حين ذهب يُنيمها. أغرت نوكس بالكلام عن أخيه وزوجته، فقط لتسمع لكنته الشمالية. أذهلها أن يطلبها رجل في مثل عمرها ويجدها شهيّة ذكيّة مرغوبة. وذلك طعم السعادة.

وعد كلٌّ الآخر "إلى الأبد". سيعود لستة أسابيع ويخرجان معاً. خلال ستة أسابيع تمثّل "حفلات" صيد بابا راحة لها، تدمدم لياليه بالشجن. خطّطت بعناية حتى لا تلحظ إل: حزمت ملابس جديدة بحقيبتَي سفر؛ بتواضع لكن بهجوم منتظم.

لم يظهر.

فاتصلت بمنزله في انديانا. ردّت امرأة. أغلقت هيد الخطّ. اتصلت من جديد وكلّمتها.

"هل هذا منزل سنكلير؟"

"نعم". صوت دافئ، نوعاً.

"أيمكنني الحديث مع السيد سنكلير، من فضلك؟"

"آسفة. ليس هنا. هلا تتركين رسالة؟"

"لا. سلام. أعني، شكراً".

fb/mashro3pdf

مكالمة أخرى. يردّ الصوت الدافئ "أنا السـيدة سـنكلير. أي خدمة؟"

"أنا السيدة كوسيه. من الفندق الذي كان يسكنه السيد سنكلير".

"أوه. هل هناك مشكلة؟"

"لا. أنت زوجته؟"

"زوجة من؟"

"نوكس. أقصد، نوكس سنكلير".

"أوه، لا عزيزتي. أنا أمه".

"آه. هل تخبرينه، تجعليه يتصل بي؟ السيدة كوسيه في "

لم يتصل، وعاودت هيد سبع مرات بعدها حتى قـالت أمـه "عزيزتي، أنا فقدت ابناً. وهو فقد أخاً. من فضلك لا تتّصلي هنـا ثانية".

التأم قلبها المهشّم سريعاً حين عرفت، بعد خمسة عشر عامـاً من الأسئلة والشفقة، أنها حملت منه. أسفت على نوكـس "ليـس هنا"، وعليها أن تُقايض أباً لحقّ الطفل يوماً. بومـض الحـدس، أحسّت بالعطف والكرم. كانت وحيدة لكن ليست منعزلة؛ تشـعر بأهمية دون حاجتها لبرهان. تبع نقطة اللحظة الواحدة تخثّر ثقيل، ولم يزعجها انتفاخ ثدييها المستمر ولا شهيّتها الضارية. أكد لـها د. رالف أن كل شيء بخير. وكان وزنها المكتسَب حاداً كنظرات ماي، ثابتاً كبسمات بابا. انقطعت دورتها أحد عشر شهراً وكانت ستنقطع أحد عشر شهراً إضافية إن لم تُجلسها إل، تصفعـها ـ

بشدة ــ ثم تحدّق بعينيها، قائلة "أفيقي، يا بنت. إن فُرنَكِ بـــارد".
أفاقت، بعد شهور من العتمة المتكاثفة مع ضحك نصف مكتـــوم وارتداد زوجها، ركبت هزيلة كساحرة في ضوء النـــهار علـــى عصا المكنسة.

أنهت الأمّ الرضاعة فهزهزت الوليد علـــى كتفـــها. للأمـــام والوراء. للأمام والوراء. شحب لون جمهور الكنيسة مع القمـــر الصاعد، تركوا الخضرة بمجموعات صغيرة. متخميـــن. نـــادوا عالياً بوداع سعيد.

تأكدت أن جنينها كان ولداً، ولو ولدته لمـــا كـــانت بحاجـــة للتسلّل، كمراهقة مدفوعة إلى فندق هاوٍ لتؤمّن مكانها.

أخرجت مفتاحها، لاحظت هيد لوح الباب المكسور.

"لابد أن أحدهم اقتحم المكان".

تقول جينيور "ربما". وتفتح الباب.

تتبعها هيد ثم تنتظر ريثما تنقّب جينيور بكيس تسوّقها عـــن المستلزمات: مصابيح نور، مقص، قلم، بطارية. لن يُعتم المكـــان ساعة على الأقلّ، حيث شقّتا طريقهما بسهولة نحو الطابق الثالث فإلى السلسلة المعلّقة بباب العليّة. البطارية مطلوبة هناك حيـــث تفتّش جينيور بالسقف عن علاّقة.

تقف على صندوق شحن، تبرُم لمبة وتشدّ الخيط.

هيد مصدومة. أطاح الزمن بمُخطّط العليّة، وقد صعب عليـــها لعقود محوها من الذاكرة. فوضى صناديق بكلّ مكان، مُفتّحـــة،

fb/mashro3pdf

مهشّمة، مقلوبة على رأسها. أسياخ سرير مائلة بخطورة على مقاعد محطّمة، شوك تقليب تربة، عيّنات سجّاد، قدور طهو بطيء. تدور هيد، مرتبكة، تقول "قلتُ لك إن أحدهم اقتحم المكان. حاول أن يسرقني".

تقول جينيور "ربما صغار . يهرّجون".

"كيف عرفت؟ ربما فقد أي شيء. انظري، هذه الفوضى. سيستغرق الترتيب ليلاً بطوله". وحدّقت هيد في مروحة كهربية صدئة. فلتت أعصابها.

"نفتش عن ماذا؟" تكلّمها جينيور بنعومة، تحاول استرضاءها، تفكّر، لقد أرعبنا الطيور. فلا أسمع شقشقة.

تقاطعها هيد "رينزو. صندوق قديم كبير عليه ر ي ن ز و. كان هنا".

تردّ جينيور "آه. لنبدأ البحث".

"لا أستطيع البحث وسط هذه الفوضى".

"انتظري هنا"، ظلت جينيور تسحب وتنقل حتى بان طريق، من الأمام للخلف. عبر ألواح أرضية مشقّقة مائلة طرحت مترين من سجاد زهريّ وأقامت كرتوناً من أحذية الرجال. ولم تكن شبكات العنكبوت مشكلة.

بينما تنقّبان، شمّت جينيور رائحة خبز مخمّر، شيئاً بالقرفة. سألت "أتشمّين؟"

تستنشق هيد. تقول "شيء كرائحة إل".

fb/mashro3pdf

تردّ جينيور "لا يُصدر الجحيم رائحة هكذا".

طرحت هيد الموضوع جانباً.

أشارت جينيور "هناك! انظري! خلفك. أعلى هناك".

تدور هيد لتنظر. وزنير. "ليس رينزو".

تضحك جينيور "لا. بل مقلوبة".

هيد محرجة. تقول "فقدت بصري". فتتضايق جينيور فجأة. ما هذا؟ هزء؟ عدم احترام؟ توجّهها "فوق هناك"، وتشير حيث تريد من جينيور تجليس الكرتون.

وضعته أخيراً، الكراتين مقاعد، الكرسيّ مكتب، ثم تشير هيد بسبابة لرزمة قوائم طعام. بمعظمها الشهر واليوم فقط، لكن يبين أغلبها السنة: 1964. أوشكت على تعليم جينيور ماذا تكتب في الفراغات حين لاحظت قلم الحبر الجاف بين أصابعها.

"ما هذا؟ قلم خزّان. لم يكن يستخدمه. لم يستخدم غير حبر حقيقي. يا إلهي، قلبتِ كلّ شيء. أخبرتك! ألم أخبرك؟"

خفضت جينيور عينيها، فكّرت فيما يدور مع من تظنّ أنها تساعدها في سرقة أو خداع أو كذبة، تكلمها كالناظرة. تقول،

"ربما كان في 1964".

"لا لم يكن. فلا تعرفين ما تتكلمين عنه".

"آه، قلم الحبر الجاف يثبت أنه أحدث، صحيح؟ نسخة متأخرة"، معتوهة.

"تظنين؟"

fb/mashro3pdf

"أكيد"، أنت مومس جاهلة.

"قد تكونين على حقّ. آه. هاهو ما تقولين". تغلق هيد عينيها وتُملي. "أترك كل متاعي كتابة إلى زوجتي العزيزة هيد ذا نايت "

ترفع جينيور بصرها لكن لا تقول شيئاً. واضح لماذا كفّ رجلها الطيب عن حبها – إن كان أحبها أصلاً. "كل متاعي". هل ينصت؟ يضحك؟ هل هو هنا؟ لا تستطيع القول. خبز القرفة لا يمثّله.

" التي ساندتني مخلصة طيلة تلك السنين. وبحالة وفاتها، إن لم تترك وصيّة بنفسها، يؤول كل شيء إلى " تتوقف هيد، تبتسم. "سولتيد جونسون".

نعم. طبعاً. تخربش جينيور بسرعة. فقد تدرّبت على خطّ رجلها الطيب لأقصى درجة. تسأل "أهذا كل شيء؟"

"هشش!"

"ماذا؟"

"أسمع شيئاً". تتسع عينا هيد.

"لا أســـ".

"إنها هي".

"كرستين؟ لا أسمع شيئاً".

"لن تسمـــ".

تقف هيد، تحدّق حولها فيما تستخدمه للحماية. لا شيء.

fb/mashro3pdf

تقول جينيور "كفاك قلقاً". "لو اقتربت، فســـ".

"مغفلة! ستمسح بك الأرض!" تخطــف القلــم مــن جينيــور وتنتظر. يسمع كلاهما خطوات أقدام محســوبة تصعــد الســلم الخشبيّ. ترقب كلاهما تاج الرأس، ثم الوجــه يصعــد للنــور. العينان مُفزّعتان. تدخل كرستين الغرفة وتظــل واقفــة. تُــهدئ أنفاسها؟ تقرّر؟ تحطم جينيور الهدوء.

تقول "أوه، أهلاً". "كيف وصلت هنا؟ إننا ننظر علــى شــيء بالأعلى. عن دفترها، تذكرين؟ يجب تدقيق التواريخ؟ ذلــك مــا يدور حوله البحث، كما يقولون".

لو سمعاها، لما أظهرا علامة. ظلت كرستين ثابتة؛ تحركــت هيد، احتاطت بخطوة واحدة، ثم أخرى، هناك قلم جــافّ بيــك راسخ بين راحة وسبابة قويّة. تستعبد عينا كلٍ منهما الأخــرى. غُصص تنفتح من الذنب، الغضب، التعــب، اليــأس. تُســتبدل بضغينة دفينة، كئيبة، تبدو جميلة، مقدّسة تقريباً.

يمضي رأس جينيور من اليسار لليميــن، كمهووســة بلعــب التنس. تحسّ أكثر مما ترى، بينما تعمَى هيد عن أيّ شيء غــير الطود الثابت أمامها، فتصوّب ــ كرة قدم في الوقت المناســب. بحذر، تريح جينيور قطعة السجاد إليها، بإصبع قدمها في الحذاء. لا تراقب أو تصرخ. بل تستدير لتبتسم إلى كرستين، وهدير دمها أعلى من التحطيم، فكان سقوطها مثل سينما صامتة حيث تنفلت يداها الملويتان الناعمتان دون أدنى أمل للتشبّث بخشــب عفــن،

fb/mashro3pdf

تشحب نحو الأسود كما بالأفلام دائماً، وينفكّ الإحساس بالحماسة إلى وحشة لا تُحتمل حين تقع كرستين على ركبتيها فجأة فتُحدّق بالجسد المقوّس تحتها. تسرع لنزول السلّم الخشبيّ، إلى الصالة ثم الغرفة. تستدير، على ركبتيها من جديد، فتلمّ هيد بين ذراعيها. بالنور المنخول فوقهما يفتّش وجه كلٍ عن الأخرى. لا يزال الحسّ المقدّس متّقدا، كما في نقائه، لكنّه مُحوّر الآن، مغمور برغبة. قديمة، عاجزة، ربما حادّة. ينطفئ نور العليّة، ورغم سماعهما أحذية تتراكض، بدأ محرّك سيارة، فلم تندهشا أو تباليا. بغرفة نوم فتاة صغيرة، هيكل عظميّ مستعصٍ، يتحرك وئيداً، يطقطق، ينعش نفسه.

رائحة الخبز تُثير التوتر. رائحة القرفة. هو لم يعد. رغم أن جينيور لا تستطع الكلامِ حتى عما يفكّر فيه، إلا أنها متأكدة أنه سيضحك حين تخبره، تُريه قائمة الطعام المزورة التي فكرت زوجته الطائشة في شغلها بتنقيح قامت به جينيور إن كان يُجدي. آسفة، يا سولتيد. دفعت دواسة البنزين بشدّة أقلّ. كانت انطلاقة طويلة فجائية غير متعمدة، كالطريقة التي تحلم بها. لو خرجت إحداهما أو كلاهما، لقالت إنها فرت لتساعد أو نحو ذلك. لكن عليها أن تصل بدايةً إلى شارع مونارش، تجده، تشاركه الإثارة وملذّاتها. ركنت لتجري على السلالم. باب المطبخ مفتوح باتساعه، يتأرجح بهواء ثلجيّ. على كرستين أن ترحل لا باستعجال فحسب بل بنوبة مرض. لم تطفئ الأنوار ولا الفرن،

fb/mashro3pdf

هناك ساق واهنة من لحم حَمَل تتشبّث بعصائرها كعصيدة بمقلاة. أدارت جينيور المقبض نحو "الغلق"، تجولت في الغرف، تثيرها رائحة اللحم المحترق التي تخفي رائحته. لم يكن في مكان، ولا بغرفة مكتبه، فذهبت إليه مباشرة. هناك كان. ترحيب باسم فوق سرير هيد. من رجلها الطيب.

يوقف رومن دراجته بشارع مونارش نحو المدخل. يُميلها لباب الجراج، يلحظ بخاراً يتصاعد من اولدسموبيل. يلمس غطاءها. السيارة دافئة. حين ردّت جينيور على طَرقَته بدت إليه بديعة كما ينبغي لبشريّ. شعرها، كما رآها أول مرة: ناعماً، مرفوعاً، وعيد مختلط بدعوة. عينان كخيال علميّ براقتان تحملان الابتسامة رقم واحد وثلاثين. بانا بوقوفهما فلم يكد يفكر بسؤالها أين المرأتان حتى قادته جينيور لأعلى إلى غرفة نوم الطابق الثالث.

"انظر ما أتيتُ به". استندت جينيور إلى سرير هيد تحت صورة الرجل. عاريةً، تلُوّح بفرخ صحيفة مطويّة. لم يتطلّع إليها رومن.

"أين السيدة كوسيه؟ ليس لي علمٌ أنها قد تترك غرفتها؟"

ضحكت جينيور "تزور حفيدتها".

"أي حفيدة؟"

"قالت، تعيش في هاربر".

"تمزحين؟"

fb/mashro3pdf

"تعال"؟ ونحّت جينيور الأغطية "اخلع ملابسك وقرّب".

"قد تفاجئنا، يا بنت".

"لا مفرّ. تعال!".

لا يريد رومن فعل هذا أمام الوجه المعلّق بالحائط، فجذب جينيور للحمام، حيث ملأ البانيو ليريا كيف يكون الحال تحت الماء. اكتشف حبسة المكان؛ لا كأخدودٍ كما ظنّه، فادّعيا أن كلاً منهما يُغرق الاخر . ترشرشا بالماء ونادى أحدهما الآخر بأسماء فاحشة حتى انهارا منفصلين كسلمون نافق، يشهقان للهواء بطرفي البانيو المتقابلين. كان منحرفاً بزاوية عن السدادة، وهي تريح رأسها على الحافة.

يحسّ بطاقة وذوبان في الوقت نفسه، مدّ رومن يده فرفع قدم جينيور فوقه، كانت مشوّهة تحت الماء. أجفلت، حاولت خلعها من بين يديه، لكنه عَلِقَ بها متشبثاً، ناظراً عن قرب أصابع قدمها المسحوقة. ثم أحنى رأسه، رفع أصابعها إلى لسانه. بعد لحظة أحسّ بها تلين، تمنح، فاندهش حين رفع بصره لدى رؤية عيني الخيال العلمي هامدتين.

فيما بعد، تحت الأغطية بفراش هيد، أفاق من قيلولة قصيرة، قال "أين هما، بصدق؟"

"في الفندق".

"لماذا؟"

fb/mashro3pdf

أخبرته جينيور عما حدث بالعليّـــــة. كأنــــها مذيعــــة أخبـــار تليفزيونية من بعيد، تفتعل هياجاً عن حادثة غير ذات أهمية.

"تركتهما هناك؟"

"ولم لا؟" أدهشها سؤاله بالفعل. "انقلب. دعني ألحس ظهرك".

"أكره هذه الصورة. كأني أجامعك أمام أبيك". كان ريقها رطباً على عموده الفقري.

"ثم أطفئ النور، يا سُكَرة".

---

[1] السوليتير: خاتم من ماسة واحدة. (م)

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

9

شبح

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

لم تستطع هيد النظر. غطّت كرستين قدميها بلحاف، في وضعية تربيع كامل الآن، وذهبت تفتش عما يُلطّف الألم. هناك كلّ ما صادرته ماي: كحول مقطّر بعلبة زينة، أسبرين بأنبوب. أمّلت هيد الكحول فما من ماء هناك، ويستهويها الإغماء من السُكر أكثر من اللوعة. عظامها هشّة من عقود السُبات، شذرات زجاج. لم يعد مكحلاها المفاصل الوحيدة المُشقّقة. فهناك خَدَر بحوضها ولا تستطيع رفع ساقها اليمنى. تسندها كرستين للحائط، فلا مراتب بالسرير. من حصافتها، بعد غلق الفندق، أن باعت كلّ ما يُحتمل.

ترسم شريطاً بأنفاسها، تسدّ على أي دمع كامن كالذكريات وراء جفنيها. لكن **لا تنسني** الهائمة على ورق الحائط كانت أشدّ

fb/mashro3pdf

حيوية في هذا الظلام الرهيف مما لو أطلقتها بضـــوء النـــهار، وتتساءل عما تريده منها. تفكّر، العودة. حين دخلتُ من البـــاب، ظننتُ أنني عدت.

آثار خطوات كرستين المألوفة تقاطع جهودها بتذكّر المزيـــد. وجدت أشياء: بينها ثقاب، علبة شمع مفرقعات، علبـــة أنانـــاس دولي، ورُزم من مسحوق ستابك. تشعل شمعة، تثبتـــها بسائلها المنقّط. لو فتحت الأناناس، لابتلعت هيد مسحوقه. الصمـــت دام بينما ترنّ كرستين برأس قدّوم على مسمار كبير في حافة العلبة. تفلح، فتفتح علبتين وتنخل المسحوق اللاذع بفم هيد، بـــدلاً مـــن العصير. تجذب اللحاف لأعلى حول كتفي هيد فهي ترتجف.

كلتاهما تتوقع شجاراً. من يقع عليه اللوم؟ من بدأ باســـتئجار لصّة ومن جعل استشارة محامية ضرورة؟ خطأ مَن أنهما ابتعدتا سبعة أميال عن الإنسانية فلم يعد أحد يعرف أنهما هناك أو يبالي إن كانتا تعرفان؟ لا أحد يصلّي لأجلهما ولم تعودا تصلّيان حتـــى لنفسيهما. تتفاديان ترديد الاتهامات، فهي مضيعـــة أنفـــاس الآن حيث إحداهما مُخلّعة والأخرى تعرَق كغسّالة. بالطابق العلـــويّ هنا حيث العزلة كغرفة طفل ميّت، بحر دون عطـــر أو هديـــر. مستقبل ينحلّ مع الماضي. مشهد طبيعيّ خلف هذه الغرفـــة دون لون. مجرّد حافّة صخرة مكشوفة وليس لأحد أن يتصوّره غـــير هكذا ـ كما يعلم كلّ امرئ، من أعماقه. عالم لم يولد بعدُ حيـــث الصوت، أيّ صوت ـ خدش مخلب أو التطام قـــدم مشـــتبكة ـ

fb/mashro3pdf

هدية. حيث المعجزة الوحيدة والضرورة الوحيدة، صوتٌ بشريّ. لغة، حين تأتي في النهاية، فلديها سريان مفعول إصبع داحس عفا بعد واحد وعشرين عاما من الألم. لغة فجائيّة فجّة، مُعرّاة حتى من ملابسها الداخلية.

تعلمين أن ماي لم تكن يوماً أماً لي.

على الأقل لم تبعكِ.

لا، تخلّت عني.

ميبل فالي؟

ميبل فالي.

ظننتكِ أردتِ الذهاب.

لا بحقّ الجحيم. وماذا لو فعلتُ؟ كنت بالثالثة عشرة. وكانت ماما. أرادتني أن أذهب حيث يريد، وكانت تريد أياً ما يريد. غيركِ. كانت فتاة أبي. لا أنتِ.

ألا تعلمين.

أراهن أنها جعلت حياتك فيلم رعب.

وحياتها أيضاً. ظننتُ لسنوات أنها تُخفي شيئاً لمجرد أن تُكايدني. لم أكن أعلم أن هيو نيوتن هي مَن كانت تُرعبها.

هل ظنّت النمور تطاردها؟

بين أشياء أخرى. ودّت لو تستعدّ. في حالة...

آه. الثورة الحقّة: أولاد بالعشرين يقاومون نكح نساء بالستين.

قد يفعلون أسوأ.

fb/mashro3pdf

فعلوا أسوأ.

قابلت أحدهم؟

لا. كنت بعيدة وقتئذ.

أيستحقّ؟

ليس سؤالاً.

سمّيتك الحمقاء، لكني غيورة أيضاً. إثارة وكل شيء.

قد تُجدي.

تبدين حزينة.

لا. هكذا. آه، كأننا بدأنا نُباع، تحرّرنا، فبعنا أنفسنا لأعلى مزايد.

بمن تقصدين "نا"؟ السود؟ النساء؟ تقصديني أنا وأنت؟

لا أعلم قصدي. تلمس كرستين مِكحل هيد. المكحل غير المتورّم.

سسسسسس.

آسفة.

أخمّن، أنا محطّمة أيضاً.

سأجهز لنخرج من هنا صباحاً.

توقد كرستين شمعة أخرى، تجيش أنفاسها، وتمضي لمرآة الزينة، تفتح درجاً بعد آخر. بأعلى درج تجد شمع تلوين، جراب قماش صغيراً؛ بالأوسط براز فأر وبقايا ملابس طفل داخلية:

fb/mashro3pdf

جورب، لباس، قميص تحتي. تشدّ سروالاً أصفر باهتاً فتمسكه قائماً لتراه هيد.

لباس استحمامكِ.

هل هناك أحد بهذا الصِغر؟

كان يُلبسُني؟

لا تجرّبيه. تمسح كرستين عرق وجهها ورقبتها بقماشة، ثم تقذفها للأرض. تعود إلى هيد فتُجلسها بصعوبة على جنبها. لهب الشمعة ينير أيديهما لا وجهيهما.

كنتِ يوماً مومساً؟

أوه، أرجوك.

الناس قالوا.

خسئ الناس. لم أبع جسمي. لكن، قايضتُ به.

كما فعلتُ.

لا أنتِ لم. كنت صغيرة على اتخاذ قرار.

لم أكن صغيرة على الإرادة.

لكن؟ هيد، كان طيباً معك؟ أقصد طيباً فعلاً؟

في الأول. كان طيباً لسنوات معي. يهمّك، كنُ أظنّ بالحادية عشرة أن علبة فشار مُحلّى هي أحسن معاملة. وكان يفرك قدميّ حتى يصبح نَعليّ كالزبد.

اللعنة.

fb/mashro3pdf

بعد سوء الأحوال اعتمدتُ على ماي ولكِ تفسير ذلك. وحين لم يعد مجدياً لُمتُ كلّ شيء مع بدء خسارته ماله. لم ألمه قط.

كنتُ ألومه دائماً.

كيف تحمّلتِ. فالعمدة لم يرحم رقبتك.

أذكره. كانا يصيدان معاً.

سأقول. كانا يصيدان. نسي ما يعرفه كلّ طفل زنجيّ. لا يلقي البيض بنسائهم في كوبك إن لم ترقص.

تزعمين أن عمدة سيلك حطّمه؟

ابنه؛ لا هو. كان من الأصحاب، لذلك فالكلام مع الوالد لكن الابن جنسٌ آخر من الكلاب. فعل أكثر من تحطيمه. تركه يُحطّم نفسه.

ما قصدك؟

دَين صغير هنا، دَين أكبر هناك. فمضى من سيئ لأسوأ. وعليه السداد كما تعرفين، ليظل محلّه مفتوحاً لبيع الخمور. أمر صعب لكن محتمل. ثم مات عمدة سيلك العجوز فرفع الجديد الضرائب. ولم نعد نحتمل أجر الفرق والشرطة، والساقي أيضاً.

كيف تدبّرتم الحال لفترة طويلة؟

بالمصادفة. وجدت بعض صور الصيد.

تتطلّع هيد في كرستين.

لا.

أوه، نعم.

fb/mashro3pdf

مَن؟ وأين؟

مَن يرعى من؟ و"أين" بقاع سفينة، ظهر مركب، كرسيَ طيار، أيّ مكان وبسطح أيّ شيء. تفكرين مرتين فيما قد تصيده صنارة.

للرجال ذاكرة قصيرة. يريدون الصور دائماً.

هوه.

تأوّهت هيد، تتخيّل عمدة سيلك. تقف هناك خائفة، تتراوح بين العرق الرطب والرجفة. تتساءل هل كان يريد الجنس أم مجرد إذلالها؛ أم المال الذي جاء لأجله زائد راحة مستعجلة. العار ما أراد، طبعاً، لكن لم تعرف إن كان يشمل ثدييها. عموماً، فقد بيعت مرة وكانت كافية. "هنا ما أرادك أن تأخذيه". سلّمَته مظروفاً بُنياً وأمّلت أن يظنّ فيه مالاً. ثم أدارت ظهرها لتدَعه يفتحه كشيء خاص ليبلغه جهلها بأمور الرجال. حين سمعَته يفكّ مشتمله، قالت "على فكرة، هناك مظروف آخر. لكنه معنون لعناية أمّك من هاربر جورنال. هل أسلمها إياه، إن عثرتُ عليه، أو أردّه لهم بالبريد؟ تريد شاياً مثلجاً؟"

تسرد هيد اللقاء بلكنة أمّ وعينَي أمّ مورمّتين. تضحكان بخفوت.

نقله للسيدة العجوز؟

أدّيت مَهمّتي.

ها، سلشيال.

fb/mashro3pdf

او ، يا فتاة. متى بدأنا؟

كانوا يلعبون بالشطّ يوماً، في سن العاشرة تقريبـــاً، ســمعوا رجلاً ينادي "ها، سلشيال" على امرأة شابة بفستان أحمـــر لـــون الغروب. صوته رطب، نوع من معرفة خاصة بلمسة حسد. لــم تنظر حولها المرأة لترى مَن ينادي. كان وجهها مرسوماً بمشــهد البحر؛ رأسها مرفوع عالياً. لم تتطلّع فيهم، بل دارت. وجهـــها مجروح من الوجنة حتى الأذن. ندبة ناعمة كخطّ قلم رصــــاص ممحوّ حوّله لوجه مشقّق. تحبس عيناها أعينَهم الباردة المرتعبــة حتى غمزَت، فانطبقت أصابع أقدامهم ملويّة بالفرح. فيمـــا بعـد سألوا ماي عمّن تكون، سلشـــيال هــذه. ردّت "ابتعــدوا قــدر المستطاع. اعبروا الناحية الأخرى لو قدمت نحوكم". سألوا مــاي لماذا، وقالت "لأنه لا شيء يصدّ امرأة رياضية".

حاولوا، مفتونين، تصوّر ما لا تتردّد في فعله بغض النظــــر عن خطورته. أطلقوا اسمها على مسرح لعبهم. سلشيال بـــالاس. وصاعدا كانوا يقولون "آمين"، لو صادفوا شيئاً لمّاعاً خطــــراً أو جريئاً من نوع خاص، يحاكون الصوت الذكريَ صائحين "هـــا، سلشيال".

عدا الكلمات التي اخترعوها سراً بلكنة أطلقوا عليها "يداجاي"، كانت "ها، سلشيال" هي شفرتهم الأكثر خصوصية. أما "يداجــاي" فتعني الحميمية، النميمة، السخرية بالنكات مـــن كبـــار الســـن. واستُعملت مرة واحدة فقط لسفح دم صديق.

fb/mashro3pdf

ردح، آذى كرستين. تدعوني، عبدة. مؤلم كثيراً.

تقصدها. فكرت بالموت.

يا لبؤسنا.

ماذا بحقّ الجحيم دار في باله؟

فتّشيني.

بعد موته مباشرة، عاشرت شخصاً يشبهه. عجوز، أناني، زير نساء.

تستطيعين البقاء هنا إن أردت الارتباط به. فلديه نساء كُثر نسيتُ عددهن.

ضايقك؟

طبعاً.

علمت إل بما كان يدور في قاربه؟

ربما.

قصدتُ أن أسألك. كيف ماتت؟

ما رأيك؟ بمطبخ.

شيّ الدجاج؟

يوه هوه. تشوي رقائق خنزير.

أين؟

بمطعم ماكيو. سقطت ميتة على الفرن.

لم تعد بعد الجنازة؟

لا. ظننتكِ ستعودين لأجلها. ألم تكتب لك ماي؟

fb/mashro3pdf

آه، لكن كنت بشقّة خياليّة أتشاجر مع فأر.

الدكتور؟

كيني ريو.

تاجرتِ معه؟

اشتريتُ. أشياء كالويسكي. وكما تعرفين، لدى نقطة معينة تشترين المزيد. دام ذلك ثلاث سنوات. والآنسة كوتي سارك.

لم يدمن جسمك أحد.

وهل أدمن جسمك أحد.

ماذا إذن؟

فتاة صغيرة. حاولت إفساح مكان حيث لا يمضي الطريق هناك.

اعتادت إل قول هذا.

يا يسوع، أفتقدها.

وأنا أيضاً. دائماً أفتقدها.

كنا نعيش حياتنا يداً بيد بدلاً من البحث عن بابا الكبير بكلّ مكان.

كان بكلّ مكان. ولا مكان.

هل اخترعناه؟

اخترع نفسه.

ساعدناه.

يوه هوه. الشيطان فقط كان يدفعه.

fb/mashro3pdf

واحدة فعلت.

ها، سلشيال .

بلكنة "يداجاي" فقط لم تعودا قادرتين على المشاركة في عــار مزدوج. ظنت كلّ واحدة أن الفساد يلحق بها. كانتا الآن جالستين أرضاً تتحديان خيانة آخر، بكلّ شــيء ولا شــيء تخســرانه، فتسحبهما العبارة لتعودا ثانية إلى زمان لم تريا فيه البراءة، حيث لم يكن أحد يحلم بالجحيم.

كانتا تلعبان 1940 على الشط. تحزم إل غداء خلويّــة لــهما حيث تتناولانه دائماً بظلّ وحميمية سلشيال بالاس: تربّعان علــى قارب تجذيف مهجور منذ زمن طويل في عشب البحــر. قامتــا بتنظيفه، أثّثتاه وأطلقتا عليه اسماً. يحوي بطانيــة، طاولــة مــن خشب الطفو، صحنا فنجان مكسوران، وطعام طــوارئ: خــوخ معلّب، ساردين، مرطبان جيلي تفــاح، زبــدة فــول ســوداني، وبسكويت صودا الهش. ترتديان لباسَي استحمام. هيــد ترتــدي واحداً مما لدى كرستين، أبيض على أزرق شبكة. لباس كرستين أصفر من قطعتين؛ يقولون عنه كاشف الجذع. شَعرهما بــالطراز نفسه، مقسوم أربع جدائل. جدائل كرستين منسابة. هيــد غــير. تسيران فوق حشيش الفندق فتذكر إحداهما أنهما نسيتا الكــرات الصغيرة. تتطوع هيد لإحضارها بينما تنتظر كرستين بالشــرفة لحراسة الطعام.

fb/mashro3pdf

تركض هيد لمدخل الخدمة وأعلى السلالم الخلفيـــة، منفعلـــة بالخلويّة ورائحة لبان الفقاعات. تهلّ الموسيقى من بار الفنـدق ــ لذيذة مشجّعة حتى لتهزّ هيد مؤخرتها مع إيقاع الطبل نازلة نحـو المدخل. ترتطم بجدّ صديقتها. ينظر إليها. ترتبك ــ رآها تـــهزّ مؤخرتها؟ ــ مرتاعةً. صاحب الفندق، مارد وســـيم، ولا أحـد يجيبه بوقاحة. تتوقّف هيد عاجزة عن الحركـــة أو حتـــى قـول "عفواً. آسفة".

يتحدّث "أين الحريق؟"

لا تردّ. يحاول لسانها تحريك لبان الفقاعات.

يتحدّث ثانية "أنت من عائلة جونسون؟"

ساعدتها الإشارة لوالدها فتحلحل لسانها "نعم، سيدي".

يومئ "ما اسمك؟"

"هيد، سيدي". ثم "هيد ذا نايت".

يبتسم. "ضروري. طبعاً".

"سيدي؟"

"لا شيء. لا تشغلي بالك".

يلمس ذقنها ثم ــ مبتسماً، كالعادة ــ حلَمَتها، أو مكاناً تحـــت لباس استحمامها حيث توجد حلَمَةٌ تُميّز نقطتها المدوّرة صدرَهـا. تقف هيد هناك ما بدا أنه ساعة لكنه أقلّ من وقت نفـــخ فقّاعـــة كاملة. يرى القرنفل منداحاً من فمها، فلا تزول ابتســامته وهـــو يمضي مبتعداً. ترتدّ كالسهم نحو السلالم. لم تعـــرف أن بقعـــة

fb/mashro3pdf

صدرها احترقت، وَخزْ. حين انتهت إلى الباب، كانت تلهث كمن ركضت بطول الشطّ لا بسطة سلالم. تمسكها ماي من الخلف فتوبّخها على ركضها بالفندق. تأمر هيد أن تعينها في حمل أكياس كتان لون قاع التُربة إلى المغسلة. استغرقت دقيقة أو اثنتين، لكن لدى ماي كوسيه ما تخبرها به عن السلوك العام. بعدها تخبر هيد عن سعادتها بصداقتها وكرستين وما قد تعلّمها إياه مثل هذه الصداقة. تجري هيد لتخبر كرستين ما حدث، وما فعل جدّها. لكن كرستين لم تعد بالشرفة. تعثر بها هيد خلف الفندق عند ميزاب المطر. على لباس كرستين شيء مسكوب كالغثيان. وجهها قاسٍ مُسطّح. مشمئزة، مريضة، ولا تواجه عينَي هيد. تعجز هيد عن الكلام، فلا تخبر صديقتها عما حدث. تعلم أنها أفسدت كلّ شيء. تمضيان صامتتين إلى نزهتهما. ورغم أنهما تمارسان العادة ــ استخدام أسماء مُختَرَعة، ترتيب الطعام ــ إلا أنهما لم تلعبا بالكرات الصغيرة، فلم تعد هيد بأيّ منها. تُخبر كرستين أنها لم تجدها. أول كذبة، من كُثر تتبعها، وقد نبتت نتيجة ظنّ هيد أن كرستين عرفت ما حدث فأصابها الغثيان. الخطأ حدث مع هيد. رآها العجوز هناك وكان كلّ ما فعله أن لمسها وجرى الأمر كما عرف بحدوثه فالخطأ هناك فعلياً، ينتظر سبّابة ليعود إلى الحياة. هي بدأته ــ لا هو. فقد جاء هزّ مؤخرتها أولاً ــ ثم هو. وتعلم كرستين الآن أنه هناك، فلا تتمكن من التطلّع فيها فالخطأ يبين عن نفسه.

fb/mashro3pdf

لا تعلم أن كرستين تركت الشرفة لتقابل صديقتها بمدخل الخدمة. لا أحد هناك. نظرت كرستين إلى نافذة غرفة نومها، حيث تبحث هيد عن الكرات الصغيرة. النافذة مفتوحة؛ ستائرها الباهتة مرفوعة. تفتح فمها لتنادي "هيد! تعالَي!" لكنها تُحجم فجدّها واقفٌ هناك، بنافذة غرفة نومها، بنطلونه مفكوك، خصره متحرّك بطريقة إل حين تسرع بخفق زلال البيض في قشدة خيالية. لا يرى كرستين فعيناه مغلقتان. تغطّي كرستين فمها الضاحك، ثم تنزع يدها فيندلق إفطارها براحتها. تندفع إلى ميزاب المطر لتشطف أعلاها ويديها وقدمها العارية من الأصفر المريض.

حين وجدتها هيد، لم توضّح كرستين لمَ كانت تمسح لباس استحمامها، ولماذا لم تتمكن من التطلّع فيها. خجلاً من جدّها ومن نفسها. بعد رواحها للفراش تلك الليلة، كان ظلّه يلتهم الغرفة. لا ضرورة لتحدّق بالنافذة أو ترى الستائر مرخية بالنسيم، لتعرف أن لذّة عزلة العجوز كامنة هناك. كزائر بحجز طويل الأمد يصل غرفتك أخيراً، زائر تعلم أنه سيبقى.

ليست الإثارة ولا التعاسة هما ما أعجز الفتاتين عن الكلام. بل شيء آخر. جعلهما تظنان، دون علم بالسبب، أنه عار مختلف لا يجوز الإفصاح عنه ـ حتى بلكنة الأسرار التي اخترعوها.

هل ينساب القذَر داخلياً؟

fb/mashro3pdf

تتجرفان الآن هالكتين إلى نوم مستغرق، دون حديث عن ميلاد الخطيئة. فلم تسعفهما لكنة "يداجاي".

احتاجت هيد أكثر من حبة ستنباك، كانت تسعل وهي تبلعها. سعال مزعج أخذ وقتاً طويلاً حتى هدأ.

أين تؤلم؟

سمّه.

خفّي عني.

ثم؟

سأحملك.

ياه، أكيد.

ها! انظري ما وجدت.

تقيم كرستين الكيس فتُفرغه، تُسقط خمس كرات صغيرة وكرة نطّاطة على الأرض. تجمعها الخمس ثم تنثرها. قليل جداً على لعبة. تأخذ خواتم من أصابعها لاستكمال الطاقم. نجوم تختلط بجواهر بارقة على ضوء شمعة جديدة. لم تستطع هيد تنطيط الكرة، رغم أن أصابعها جاهزة للدفع.

كان بُغضُك الشيء الوحيد الذي تحبّه فيَّ أمي.

سمعتُ أنه دفع لأبي مائتي دولار، ومصروفاً لأمي.

لكن أليس صحيحاً أنك رغبت فيه؟ ألم ترغبيه؟

تدفع كرستين أربع كرات بسرعة، فتتوجّع. تسافر شوكة من كتفها لذراعها.

fb/mashro3pdf

وددتُ لو كنتُ معك. أتزوجه، ظننتُ ذلك ممكناً.
وددتُ الذهاب في شهر عسلك.
ليت فعلتِ.
كيف كان الجنس؟
مرحاً في البداية. لا يُحكَى عنه. لا يُقارَن بشيء.
أبداً؟
أبداً.
ها، سلشيال.
مثل نزهاتنا. تذكرين؟
أذكر. كان معنا "بيبي روث" بالسلة.
وليمونادة.
لا لبّ.
إل غرفت اللبّ.
كان معك سجق أم خنزير؟
خنزير، يا بنت. إل لا تقرب السجق.
أمطرت؟ يبدو أنك تذكرين المطر.
أذكر الحباحب.
وددتِ لو عبأتها.
لم تسمحي لي.
أرعبتنا السلاحف.
صحتِ.

fb/mashro3pdf

وأنتِ.

أنا؟

يوه هوه.

أكاد أسمعك.

امسكي... يدي.

اغتصب مني طفولتي، يا بنت.

اغتصبك مني كلّك.

تذكرين السماء؟ والشمس تهبط؟

رمال. استحالت أزرق شاحباً.

ونجوم. قليلة في البداية.

ثم كُثر بعدها تنير العالم البائس.

بديعة. جدّ جدّ بديعة.

غرام. فعلتُه حقاً.

يوش يداجاي. يوش يداجاي.

أمكنة معتمة دون مصابيح شوارع أو نيون نابح، ليل عميق قادمٌ مستريح. إطلالة النافذة راحة، والبعد عنها. يحتاج اللصوص الليل للسرقة، لا التمتّع به. تنتظره الأمهات رغم استعدادهن للنوم. فما يعرضه الليل من غرض أساس هو الهرب من المراقبة والمراقبين. كالنجوم حرّة في صنع تاريخها فلا يعنيها شؤون الأخريات؛ أو كماسٍ تحرّر من عبئه، فانطلق نحو صخرة بديعة.

fb/mashro3pdf

***

لا ردّ حين نادى رومن "هل أحد هنا" مشفوعاً بذبذبة بطارية واهنة، عبر الردهة وصعد السلالم. سيهلّ النهار حالاً، لكن كلّ شيء خفاء الآن. سمع غطيطاً خفيفاً يساره من باب نصف مفتوح. دفعه على اتساعه فكان شخير رائق من امرأتين. اقترب. كانتا نائمتين لكن إحداهما فقط تتنفس. واحدة راقدة على ظهرها وذراعها اليسرى فوق خصرها؛ الأخرى لفّت ذراع المتوفاة اليمنى حول رقبتها وتغطّ بكتف الأخرى. حين فضّ النور وجهها، تحرّكت وئيداً، ركّزت فقالت "تأخرتَ"، كأنهما على موعد. كأن اختلاس السيارة لم يكن حافزاً بل مَهمّة عهدت إليه بها. كأن ما أخبرته جينيور لم يكن ذا شأن.

كان نائماً واستيقظ ففكّر في شيء يأكله حين أخبرته.

"تركتهما هناك؟"

"لِمَ لا؟ أطفئ النور، يا سكّرة".

فتّش رومن ليطفئ اللمبة فوجد نفسه يتناول مفاتيح السيارة. نهض ليلبس ملابسه. لم يستطع فكّ شفرة ما قالته جينيور، صارخة. جرى ـ بسرعة على السلالم، خارج الباب، يطارده همس العجوز. "لست عاجزاً، يا رومن. لا تظنّ ذلك في نفسك". غبيّ! مهرج! كان يريده أن يتحمّس، ينصت، يخبره أن رومن العجوز الباكي لا يستطيع فكّ رباط حذاء عن رسغ فتاة عنيدة،

fb/mashro3pdf

مؤخرتها أعلى من الأخرى التي لا تستطيع طرح فتاة متطلبَة في عليّة. خرج إلى المدخل مسرعاً بالطريق. فكّر أن يبطئ. أبطـــأ. لا حيز للطريق. تحفّه مصارف من الجانبين. ومَضَ المصبـــاح الأماميّ ثم خمد.

جثمت جينيور على ركبتيها تمسكهما معاً بين ذراعيها. تـهتزّ للأمام والوراء، تذكر كيف رفع رومن قدمها من البانيو فلعقَـــها كمَصّاصة. غادرا البانيو، كلاهما مُبلّل ونظيف كغضروف، بـدأا الانزلاق. دبيب داخليّ جعلها تحسّ أنها متهتكة وجميلـــة معــاً. شعرت بحماية صُلبة كأولى لياليها بالمنزل التي مـــهّدت دربـــاً لبريق عصبيّ أسعدها وأرعبها. فرقدت على ظـــهرها، أغلقــت عينيها للتمعّن فيه. دارت في النهاية لترى وجه رومن. عميقاً في نوم بعد الجِماع، شفتاه منفرجتان، تنفّسه خفيف، ثابت. ولد جميل عَيّدت به كأنه مأدب عيد الميلاد الذي لم تُقمه. توترت أعصابـــها ثم تبيّنت اسمه فجأة. كان يغزوها جنس جديد، غريب كلياً، فتحسّ أنها انفتحت على وسعها، متوافقـــة فعــلاً وواثقــة مــع لعــق المصّاصة. بعدُ وصاعداً، كان ذلك السبب، وحين طلبـــها ثانيـــة أخبرته الحقيقة. الحقيقة، بوضوح. أدهشتها استجابتُه "تركتـــهما هناك؟"، كهَجمته الفجائية التي انطوت. أراد إطفاء اللمبة، لكنـــه أمسك مفاتيح السيارة، فلبس ملابسه بسرعة كإطفـــائيّ. نـــادت باسمه، صارخة "ما؟ ماذا؟" لم يردّ. جرى.

fb/mashro3pdf

تركت جينيور فراش هيد لتجول بالمنزل. لا تودّ رؤية الرجل الطيب أو تشمّ عطر بعد حلاقته. فُقد من أيام، فلم يظهر بعليّة الفندق ولا عاد لغرفته. تواجه صورته، شغوفة أن تبلغه بمهارتها في الفندق، تقمع الشكّ بخيانته، وبعد وصول رومن نسيته تماماً ثم كان لعق المصّاصة، فتلاشى الرجل الطيب من لوحته، تاركاً إياها متهتكة وحدها مع رومن. الذي جرى. مبتعداً. بسرعة قدر المستطاع.

تحيّرت وهي تخبّ بالغرف فترة، انتهي بها الأمر للمطبخ. فتحت هناك الفرن، قرفصت، نزعت شريحة من أديم ساق الحمَل المتفحّمة. دسّتها بفمها في نهم. لكن البريق العصبيّ لم يشحب، رغم أنه أقلّ مما كان منذ ساعة. ليس أكثر.

***

على رومن أن يحملهما. كلّ واحدة مرّة، كلّ واحدة مرة على السلالم. دسّ المتوفاة بالمقعد الخلفيّ الواسع؛ وساعد الأخرى بالمقعد الأمامي.

"ذهبت؟"

"لا، سيدتي. بالمنزل".

لن تدعه يذهب للمستشفى، تصرّ أن يوصلها لشارع مونارش. لحظة الوصول، كان النور منفجراً. النوافذ تلمع لون الخوخ؛

fb/mashro3pdf

المنزل يدخّن بهواء رطب، جوانبه ترشح بالرطوبـــة. يحملـــها رومن على السلالم للمطبخ. قبل أن يُجلســـها، تدخـــل جينيـــور مندفعة ــ عيناها جاحظتان، ترقب شراً.

"ووو أنا سعيدة. حاولت طلب النجدة فلم أجد أحداً، ثم وصل رومن وخرجنا مباشرة. أنت بخير؟"

"أعيش".

"سأعمل بعض القهوة، أين الـــ ؟"

"هناك وأغلقي الباب". تنحني متثاقلة، ذراعها معلّـــق بـــذراع رومن ويدها تتشبث بظهر الكرسيّ، تومئ لغرف إل القديمة.

تتطلع جينيور في رومن. يبدو أنه عاد يتوقّع نزيفاً. لا شـــيء هناك، مجرد طرفت بعينيها، دون خوف أو استفهام. ظلّت تنظـــر دون غمز، وراقب رومن خشيتها تستحيل تحسّباً يستحيل عبوســـاً مطرقاً للأرض. شيء يفرَغ منها.

"هيا!"

دارت جينيور، دون رفع بصرها، إلى الغرفة، أغلقت الباب.

تخبر رومن "أحكم غلقه. المفتاح بسلّة الخبز".

يساعدها لتجلس بالكرسيّ، يغلق الباب ويُسلمها المفتاح.

"كان يجب إيداعها ثلاّجة الجثث. جِد هاتفاً في الخارج واتصل بالإسعاف. بسرعة".

يدور رومن فيغادر.

تقول "انتظر. شكراً، يا رومن. كل ما بقي بي يشكرك".

fb/mashro3pdf

يقول "نعم، سيدتي"، ويتجه للباب.

تقول ثانية "انتظر. خُذ بطانية. فقد تبرد جثتها".

تجلس وحدها للمائدة، تكلّم صديقة عمرها ريثما تُساق لثلاّجة الجثث.

ماذا فعلنا بها؟

رصاصة انطلقت مباشرة.

أنت بخير؟

تقريباً. وأنت؟

لا أعرف.

الحياة تمضي.

أراهن أنها تتصوّر طريقة للخروج قبل مجيء الإسعاف.

لا ليست هي. صدّقيني.

آه، ستبدأ الأنين بعد دقيقة. تظنينها خجلة؟

ربما.

يعود رومن ببطانية. يقول "سأعود حالاً". يقول "لا تقلقي"، ويفتح الباب.

تقول "عجّل"، وتدلّك المفتاح بسبّابتها.

يجب أن تذهب، دون وجهة معينة، كشيء مشرد؟

يمكنها أن تُقيم، في ظروف محدّدة.

ما الفرق؟

بالنسبة لي، لا فرق. تريدينها هنا؟

fb/mashro3pdf

لماذا؟ أوافقك.

تعرف كيف تبثّ المتاعب.

نحن أيضاً.

ها، سلشيال.

يسرع رومن بشارع مونارش، يبذل أقصى جهد حتى لا يُزعج راحلته. يسيطر على نفسه رائقاً الآن، رغم أنه حين قرّب من السيارة ونظر للمنزل، كانت سحب بغيضة تُبحر فوق سقف واحد شارع مونارش، صورها مكبّرة الرأس تعتم المنزل كله عدا نافذة، كانت كعين مُغازل متعمّد، تحفظ وميضَها الرائع.

أراك. أنت وصديقتك اللا مرئيّة، لا تنفصلان على الشط. كلاكما تجلس فوق بطانية حمراء تتناولان آيس كريم، فلنقل، بملعقة قهوة فضية، فلنقل، وتظهر فتاة حقيقية تخوّض في موج قليل. أراك أيضاً، تسيرين على الشط بفانلة رجل داخلية بدلاً من فستان، تنصتين لصديقة لا يراها غيرك. تنكبّين على كلمات تسمعينها حين ينادي صوت حقيقيّ ها، تريدين شيئاً؟ لا ضرورة الآن، فالأصدقاء المتخفّون يغطّيهم روائح اللحم والعظم.

كما يسقط أطفال على بعضهم البعض. فوق بقعة، دون تمهيد. لا يلتفت الكبار كثيراً حيث لا يتخيلون شيئاً أكثر مهابة لأنفسهم من الأطفال، تحيّرهم الثقة من التوقير. لا يهم أن يكون الآباء ليّنين أو حازمين، خائفين أو واثقين. يمنحون أشياء جذابة أو تروّعهم الدموع، يوافقون أي نزوة أو ينفقون أيامهم

fb/mashro3pdf

على طفل مؤدّب ومتأدّب ـ بأيّ نوع كـــانوا، إلا أن مكانتـــهم ثانويّة أمام أول حبّ يختاره الطفل. يعثر الأطفال على بعضـــهم البعض قبل التعرّف على جنسهم، سواء مات أحدهم جوعـــاً أو أتخم بطنه؛ قبل معرفتهم اللون من عدم اللـــون، القريـــب مـــن الغريب، ثم يعثرون على خليـــط مـــن الاستســـلام والتمـــرّد لا يستطيعون العيش دونه. وقد عثرت كلّ من هيد وكرستين علـــى شيء كهذا.

لا يحسّ معظم الناس بعاطفة قوية هكذا، من باكر. ولو صح فسيذكرونها بابتسامة، يطردونها كولع واهن عاجلاً أو آجـــلاً. يصعب التفكير في هذا بطريقة أخرى حين تظهر الحياة الحقّـــة على قائمة الآخرين، بخليّة أفكار أخرى. لو كان اسمك برســـالة كورنثه الأولى[1]، إصحاح 13، فهذا شأنك طبعاً. لن تعرف مـــن أو متى تُصدَم وإن كنت ستظلّ على الدرب. هناك شيء واحـــد حقيقيّ ـــ يحمل المراقبة، إن تحمّلت النظر إليـــه. كـــانت هيـــد وكرستين من نوعية الأطفال التي لا تـــردّ الحـــب، أو تكبحـــه. وعلى هذا، فالانفصال يحزّ فيهما حتى العظم. وإن كانت النهايـــة مستلَبة، فتنضغط لمجرد لمحة دم، تُراق لصالح الطفل، فتدمّـــر العقل. كما كانتا، فوق ذلك، تكرهان بعضهما البعض، وقد تضيع حياة قبل أن تعيشها. وألوم ماي على الكراهية التي غرســـتها فيهما، لكن أعيب السيد كوسيه على السرقة.

fb/mashro3pdf

يدهشني ما قد يفعله مع جينيور. تعرفون أنه خبير في اكتشاف النسوة الوحشيات، المحتاجات. لكن هذا الآن ـ لا سابقاً. لا يعلم ما يقدر عليه نموذج عصريّ من النساء مثل جينيور. مشينة. قد تكفي يد راعية، عين مخلصة، إن لم يتأخر الوقت ويصبح نومهما مجرد انتظار مستكنّ، كجمرة بمرتبة. لا ولداً سكّرة في العالم قد يطفئها. كما يعلم السيد كوسيه. تدعوه أطيب رجل شرير، أو أخبث رجل طيب. يعتمد هذا على ما يشغلك يا عزيزي ـ طبيعته وسببه. أميل لخلطهما كليهما. وحين أرى وجهه الصالح يقوّم هيد، عينيه الهامدتين تحدقان في كرستين، أظن السود فائزين. فأسمع الضحكة، أذكر رقّته تهزهز جوليا بمهد البحر؛ محفظته الكبيرة، يده تنكش شَعر ابنه

لا يهمني ما تظنه. لم يكن لديه S مخيطة بقميصه ولم يكن يملك مذراة. رجل عاديّ كبقيتنا، يشقّه الحنق والغرام.

عليّ أن أوقفه. أكيد.

كانتا تتشاجران أيضاً على قائمة طعامي، تعتبرانها علامة تفضيل وتسيئان قراءتها. كان إدراك هيد بمهارة خطّ اليد محدوداً، لكنها اندهشت في 1971 أن " طفل كوسيه اللذيذ" الذي أوصى زوجها له بممتلكاته في 1958 لم يكن هي ولا كرستين بل طفل مشرّد. لم يرياه عن حقّ ـ شهدته على يدي، توثقه زوجة عمدة سيلك ـ فعهدا بكل شيء إلى سلشيال. كلّ شيء. كلّ شيء. عدا قارب خلّفه إلى سندلر جيبون. لم يكن صواباً. لو

fb/mashro3pdf

سمح لي بقراءة ما وقعتُ في **1964** حين هدّد العمدة بإغلاق موضوعه، حين عيّره الصغار واحترقت الشوارع كلها، لاستطعت إيقافه عند حدّه ـ بطريقة لطيفة ـ حتى لا يُخلف كلّ ما عملناه لشخص يستغني عن كلّ ما لا يعيش فيه أو قريباً منه؛ لعصفتُ بكلّ ما جعله وقفاً كرسالة تنبيه تعلل لمَ لم يُسمح لها بترتيب خطواته عدا رياضته الحقيقية بقوارب الصيد. بغض النظر عما صرّح به قلبه، لم يكن صواباً. لو قرأت ذلك في **1964** لا في **1971**، لعرفت أن ما بدا شبيهاً بشفقة ذاتية وندامة دامتا سبعة أعوام كان انتقاماً حقيقياً، وأن كرهه لنساء منزله ليس له مقياس. فقد خيّبن أمله أولاً ثم تحدّينه فأحلن بيته لبرميل شجار كانت تتصيّده فتغيّر حياته نحو نوع من الدرس الحذر ضمن تاريخ أسود. لم يفهم: فالحلم كان مجرد كابوس يتجمّل بأحمر شفاه. لو ظنّ هذا صحيحاً أو خطأ، لما سمحتُ له بطرد عائلته للشارع. كانت ماي بالواحدة والستين؛ فماذا يُفترَض منها أداؤه؟ تُزجي عمرها الطاعن في سُترة مجانين؟ وهيد بالواحدة والأربعين تقريباً. أيُفترَض منها أن تعود لعائلة لم تكلّمها من أيام ترومان(2)؟ أما كرستين ـ فكلّ ما أمّلته لم يتحقّق في النهاية. ليس هناك غير حلٍ واحد. قفّاز الثعلب(3) ينمو سريعاً، لو عرفت ما تفعل به فلن يؤذيك طويلاً. لم يعد تفكيره سليماً، ولا يبدو أنه سيتحسّن وعمره واحد وثمانون. شيء يأكل الأعصاب، وقبل أن يطرق الحانوتي الباب بفترة، مزّقت تلك الورقة الخبيثة إرباً. كانت قائمة طعامي

fb/mashro3pdf

ستجدي. تمنحهم سبباً للارتباط وتصوّر أن اللغة ثمينة. لو استُخدمت صحيحاً لأنقذتكَ من انتباه الشرطة حين تصطاد النسوة اليائسات، العنيدات، مسيئات تربية الأطفال. يصعب إتقانها لكني أعرف امرأة على الأقل أتقنتها. من تقف تحت قبعاتهم العريضة ولِحاهم المضجرة، تروعهم بكلمة ـ أم رسالة؟

اختفت ندبتُها. أجلس قربها مرة عند المقبرة. صرنا الوحيدتين اللتين تزورانه. يؤذيها المكتوب بشاهدة القبر، ساقاها متقاطعتان، تجثم أعلى القبر لتخفي طيّات فستانها الأحمر الإهانة: "زوج نموذجيّ. أب مثالي". لكنها، قانعة. أحبّها وهي تُغنّي له. إحدى تلك الأغنيات المنزلية الفاحشة، بما يفسد جَمعاً بصالة رقص. "عُدْ، حبيبي. فهمتُكَ الآن. عُدْ، حبيبي. خُذ بيدي". إما أنها لا تعرفني أو غفرت لي حلولي، فلم يكن يعنيها أن أجلس على بُعد قريب منها، وأنصت. لكن حين يفعم صوتها الشوق إليه، لا أستطيع معونتها. فأنا أريد شيئاً يعود. شيئاً يخصّني. به أنضمّ. وأُهمهم.

fb/mashro3pdf

الهوامش

---

[1] كورنثه: رسائل وجهها القديس بولس إلى كورنثه اليونانية، في العهد الجديد بالكتاب المقدّس. (م)

[2] هاري ترومان (1884 ـ 1972)، رئيس الولايات المتحدة ما بين (1945 ـ 1953). (م)

[3] قفاز الثعلب: نبات صحراوي أرجواني شكل القمع. (م)

fb/mashro3pdf

سيرة ذاتية

محمد عيد إبراهيم

شاعر ومترجم مصري، مواليد 1955، القاهرة، خريج جامعة القاهرة، كلية الإعلام قسم الصحافة 1978. ترجمت أشعاره إلى أكثر من لغة عالمية. أنشأ سلسلة "آفاق الترجمة" في هيئة قصور الثقافة بمصر وعمل مديراً لتحريرها ما يزيد عن عامين أصدر فيها أربعة وخمسين عملاً فكرياً وإبداعياً بترجمة نخبة من المترجمين المصريين والعرب. كما كان يعمل مشرفاً تنفيذياً على "المشروع القومي للترجمة" في المجلس الأعلى للثقافة. ينشر أشعاره وترجماته في معظم الصحف والمجلات والدوريات المصرية والعربية. دُعي إلى عدد من مهرجانات الشعر في الدول العربية: جرش بالأردن، عتبات بالمغرب، وغيرها. ويعمل حالياً مترجماً بالإدارة الثقافية في وزارة الإعلام والثقافة بدولة الإمارات العربية المتحدة.

fb/mashro3pdf

الإصدارات المطبوعة

دواوين

1 ـ طور الوحشة، أصوات، 1980.

2 ـ قبر لينقض، طبعة محدودة، 1991.

3 ـ على تراب المحنة، هيئة قصور الثقافة، 1995.

4 ـ فحم التماثيل، دار شرقيات، 1997.

5 ـ الملاك الأحمر، الانتشار العربي، بيروت، 2000.

6 ـ مخلب في فراشة، الانتشار العربي، بيروت، 2000.

7 ـ بكاء بكعب خشن، دار ميريت، 2004.

ترجمات شعرية

1 ـ أشعار سودرجران، (بالاشتراك)، دار شرقيات، 1994.

2 ـ قصائد حب، آن سكستون، (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، 1998.

3 ـ رباعيات مولانا جلال الدين الرومي، دار الأحمدي، 1998.

4 ـ الهايكو/رحلة حج بوذية، (شعر ياباني)، مركز الحضارة العربية، 2000.

5 ـ رسائل عيد الميلاد، تيد هيوز، (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، 2002.

fb/mashro3pdf

6 ــ نهايــات، ديريك والكوت، (شعر)، مركز الحضارة العربية، 2003.

7 ــ رســائل عيد الميلاد، تيد هيوز، (ديوان)، إبداعات عالمية، الكويت، 2003.

8 ــ كــاس الألم، إديت سودرجران، (ديوانان)، مركز الحضارة العربية، 2004.

9 ــ أعشاش تحت القلب، (ديوان الشعر السويدي)، اتحاد كتاب الإمارات، 2004.

ترجمات روائية

1 ــ جاز، توني موريسون، دار شرقيات، 1995.

2 ــ فالس الوداع، ميلان كونديرا، دار الهلال، 1998.

3 ــ فــالس الــوداع، ميلان كونديرا، دار علاء الدين، دمشق، 2001.

4 ــ جاز، توني موريسون، دار علاء الدين، دمشق، 2003.

5 ــ الساعات، مايكل كننجهام، دار الحوار، دمشق، 2004.

6 ــ حرير، أليساندرو باريكو، مركز الحضارة العربية، 2004.

8 ــ غرام، توني موريسون، دار الحوار، دمشق، 2004.

ترجمات قصصية

1 ــ مرآة الحبر، بورخيس، آفاق الترجمة، هيئة قصور الثقافة، 1996.

fb/mashro3pdf

2 ـ مراة الحبر، بورخيس، دار علاء الدين، دمشق، 2003.
3 ـ كـتاب الحـواس، ايتالو كالفينو، مركز الحضارة العربية، 1999.
4 ـ شـجرة مطر، (قصص معاصرة)، مركز الحضارة العربية، 2001.

ترجمات نقدية

1 ـ الخـلاص بالحـرية (مقـالات عـن الأدب العربي)، مركز الحضارة العربية، 2003.
2 ـ تخمينات عن الأدب العالمي، مركز الحضارة العربية، 2004.

fb/mashro3pdf

ماي، كرستين، هيد، جينيور، فيدا، وحتى الطباخة إل، كلهن مسوسات بغرام بيل كوسيه، صاحب منتجع وفندق كوسيه، والذي كان يلهب عواطفهن المشبوبة أصلاً، كأب وزوج وعشيق وراع وصديق ثم شبح. إنها الأشواق التي هيمنت على قلوب هذه النسوة حتى بعد وفاته. وبينما كانت حياتهن تدور حول محور واحد هو كوسيه، كان هو من جانب آخر محكوماً بقوىً سرية: ماضيه المضطرب وامرأة تُدعى سيلشيال.

رواية "غرام" رؤية جديدة لطبيعة الحب، ثرية بأشخاص وأحداث درامية وعميقة الفهم تؤكد أن الماضي يعيش طويلاً. رواية حسية قاهرة مؤسية، هي آخر ما أبدعته قريحة الروائية الزنجية الأمريكية توني موريسون، أفضل من يكتب الرواية في أمريكا الآن، والحائزة على الجائزة الأسمى نوبل عام 1993.

(غرام) رواية تعكس أوجه الحب المختلفة، من الرغبة إلى اللذة نحو الاستحواذ والشوق المرير، لتمنحنا دائرة كاملة حول هاجس الحب الأول الذي يشكلنا جميعاً وللأبد.

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339

fb/mashro3pdf